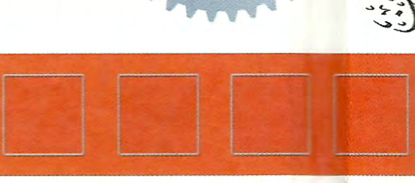
جفاف المشاعر

أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي



دار الإيمان
إسكندرية

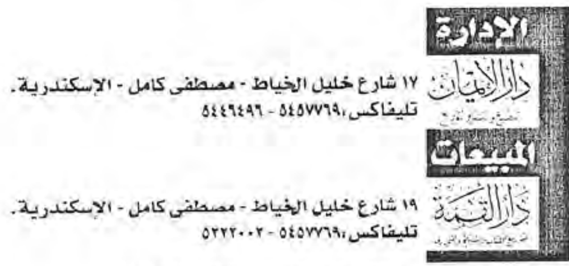


جفاف المشاعر
أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي
دار الإيمان

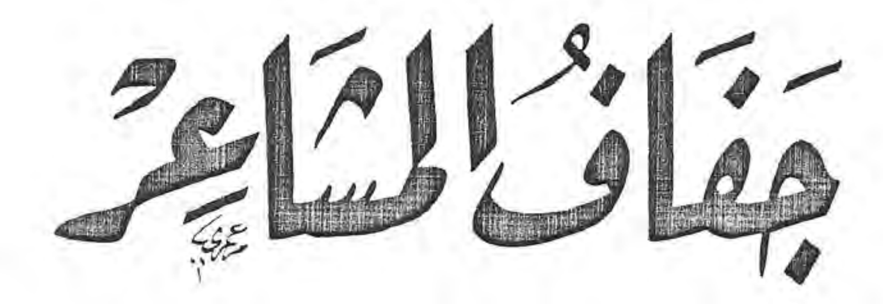
بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: (جفاف المشاعر)
المؤلف فضيلة الشيخ: فيصل الحاشدي
رقم الإيداع: ٢٠١١/٧٨٦٢
نوع الطباعة: لون واحد
عدد الصفحات: ١٦٠
القياس: ١٧×٢٤
تجهيزات فنية
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
تصميم الغلاف الاستاذ/ يسري حسن

٢٠١٣



E.mail: dar_aleman@hotmail.com



كتبه

أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه






بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تصدير

إنَّ الحمدَ لله، نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالنا، مَن يَهدهِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدهُ ورسولُه.

أمَّا بَعدُ، عِشْتُ صِبَايَ ومَطْلَعَ حياتي في قَرْيةٍ حالمةٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، تَفْتِنُ النَّظَرَ بجمالِها وعَظَمَتِها، وتعاريجِها وارتفاعِها، وخُضْرَتِها واشتباكِ أَشْجَارِها، في أعاليها يتعانقُ السَّحابُ، وبينهما نَهَرٌ يتدفَّقُ عَبْرَ شلَّالاتٍ كأنامِلَ سارتْ على أَوْتارٍ.

ومشاعرُ أَهْلِ القَرْيةِ مُتَدَفِّقةٌ تَدَفُّقَ المياهِ، جميلةٌ جَمالَ الطَّبيعةِ، بل هي أجملُ؛ إنها على الفِطْرةِ، لم تُدَنِّسْها رُوحُ المَدنِيَّةِ.

عواطِفُهُم نبيلةٌ، مروءتهم أصيلةٌ، مشاعِرُهم فيَّاضةٌ، الوالدُ مُطاعٌ كأجمل ما تكون الطاعة، والجارُ محفوظٌ مَنِيعٌ مِنَ الضَّيم[1]، والعالمُ مُبجَّلٌ، والغريبُ حَبيبٌ، والضَّيفُ ربُّ المَنْزِلِ، وعاقلُ القرية أَبٌ للجميع، إن كان ثَمَّ سرورٌ في بيتٍ فكل البيوت في حبورٍ، وإن حزن ففي كُلِّ بيتٍ مثله، ولا يزال هذا حالُ كثيرٍ مِنَ القُرى.

ولَمَّا طاب لي المُقام في المدينة، وجدت فيها كُلَّ شيءٍ من مرافق الحياة إلَّا المشاعرَ الدافئةَ، فهي مِلْحُ الحياةِ بدُونِها تُصبحُ الحياةُ بلا طَعْمٍ، وجدتُ الحياةَ في المدينةِ كما قيل:

---

(١) الضَّيم: الظُّلم، وبابه: باع.

مـا أكثـرَ النَّـاسَ لا بَلْ مـا أقلَّهُـم! ... اللهُ يعلـــمُ أنِّي لم أَقُـــلْ فَنَـــدا[1]
إنِّي لأفـتحُ عَيْنـي حِـيْنَ أَفْتَحُهــا ... عـلى كثـيرٍ، ولكـنْ لا أرى أَحَـدا

والحال يتكرر، فالعرب أهل البادية كانت لغاتهم على الفِطْرة، فلمَّا اختلطوا بغيرهم من العجم، تسرَّبتِ العُجْمةُ إليها، فسارعوا إلى حفظها بتقعيدها وتأصيلها، فكان لهم ذلك ونحن بحاجة إلى حفظِ لغةِ المشاعر من الجفافِ والتصحُّرِ.

وهذا الذي أروم إيضاحَهُ، وأقصدُ علاجَهُ، وعلاجه سهل يسير على من يَسَّرَهُ اللهُ عليه، فإذا كان العربُ قد حافظوا على لغاتهم بحفظ القرآن الكريم، فحفظ لغة المشاعر بالعمل به، والتخلُّق بأخلاقه، والاهتداءُ بهَدْيِ محمَّدٍ ﷺ، جعلنا اللهُ مِمَّن يوفَّقُ لفعل الخير، والعملِ به.

وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

محبُّكم في الله

أبي عبدالله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

---

(١) الفَنَد ـ بفتحتين ـ : الكذب.

جفاف المشاعر مع الوالدين

من الأولاد من لا يراعي مشاعرَ والديه، ولا يراعي حقوقَهُما، وهذا لا يليق بأولي الألبابِ، ولا يصدر من ذوي المروءةِ الحقَّةِ، والنفوسِ الأَبيَّةِ، والأعراقِ الطَّيِّبةِ، والإيمانِ الكاملِ.

حقوق الوالدين :

إنَّ حقَّ الوالدَيْنِ مِنْ أَعْظَمِ الحُقُوقِ، وكيف لا يكونُ كذلك وقد جعل اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ برَّهما قَرِينَ التوحيدِ، وشُكْرَهما مقرونًا بشُكْرِهِ؟!.

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (النساء : ٣٦)، وقَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (الأنعام : ١٥١)، وقَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (البقرة : ٨٣)، وقَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء : ٢٣ - ٢٤)، وقَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (لقمان: ١٤)، وأثنى اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ على الأنبياء، ومن ضِمْنِ هذا الثناءِ برُّهم بوالديهم، قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ في شأن يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ (مريم : ١٤)، وقَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ حاكيًا عن عيسى وهو يتكلم في المَهْدِ: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (مريم : ٣٠ - ٣٢).

وأخبر - ﷺ - أنَّ عقوقَ الوالدين من أكبرِ الكبائرِ؛ فعن أبي بَكْرةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكبائرِ**؟». قلنا: بَلَى، يا رسولَ اللهِ. قال: - ثلاثًا -: «**الإشراكُ باللهِ، وعقوقُ الوالدين**»، وكان مُتَّكِئًا فجلس فقال: «**أَلَا وقولُ الزُّورِ، وشَهَادةُ الزُّورِ، أَلَا وقولُ الزُّورِ، وشَهَادةُ الزُّورِ**». فما زال يقولُها حتَّى قُلْتُ: لا يَسْكُتُ[1].

فانظر - أخي - كيف أمر ربُّنا - سبحانه وتعالى - بالتوحيد، ونهى عن العقوق، وفي آيةٍ أخرى أمر بالتوحيد، وقرن ذلك بالإحسان إلى الوالدين، وجاءتِ السُّنَّةُ وقرنت بين الشِّرْكِ والعُقُوقِ، وأنهما من أكبر الكبائر، فأيُّ وصيَّةٍ بالوالدين أعظمُ من هذا؟!.

وها هو النَّبيُّ - ﷺ - يبيِّنُ لنا منزلةَ برِّ الوالدين من بَيْنِ سائرِ الأعمالِ، فعن عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: سألتُ النَّبيَّ - ﷺ -: أيُّ العَمَلِ أحبُّ إلى اللهِ - عزَّ وجلَّ - ؟ قال: «**الصَّلاةُ على وَقْتِها**». قال: ثُمَّ أَيٌّ؟. قال: «**ثُمَّ بِرُّ الوالدَيْنِ**»[2]. قال: ثُمَّ أيٌّ؟. قال: «**الجِهادُ في سبيلِ اللهِ**»[3].

وعن أبي الدَّرْداءِ أَنَّ رجلًا أتاه فقال: إنَّ لي امرأةً، وإنَّ أُمِّي تأمُرُني بطلاقِها[4]، قال أبو الدَّرداءِ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: «**الوالِدُ أَوْسَطُ أَبْوابِ الجنَّةِ، فإنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذلك البابَ أَوِ احْفَظْهُ**»[5].

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

(٢) برُّ الوالدين مُقدَّم على الجهاد إذا كان فرضَ كِفايةٍ، فإذا تعيَّن فلا إِذْنَ، وهذا قولُ جمهورِ أَهْلِ العلم، انظر: «فتح الباري» (٦/ ١٤٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥).

(٤) الذي عليه أهل العلم كأحمدَ وغيرِه أنَّ أحد الوالدين إذا أمر ولدهما بطلاق الزوجة أن ينظر في السبب؛ فلعلَّها تكون صالحةً أو مظلومةً.

(٥) «صَحيحٌ»: أخرجه الترمذيُّ (١٩٠٠)، وابنُ ماجَهْ (٢٠٨٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧١٤٥).

ولا أحدَ منَّا يستطيعُ أَنْ يَجْزِيَ الوالدين، مهما عَمِلنا لهما؛ فعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لا يَجْزِي وَلَدٌ والدًا، إلَّا أنْ يَجِدَهُ مملوكًا، فيشتريَهُ فيُعتقَهُ»[١].

وعن سعيدِ بن أبي بُرْدَةَ قال: «سمعتُ أبي يُحَدِّثُ: أنَّه شَهِدَ ابْنُ عُمَرَ رجلًا يطوفُ بالبيت، حَمَلَ أُمَّهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ يقولُ:

إنِّي لهـــا بعيرُهـــا المُـــذَلَّلْ ... إنْ أُذعِــرَتْ رِكابُهـــا[٢] لَمْ أُذْعَــرْ

ثُمَّ قال: يا ابْنَ عُمَرَ، أَتُراني جَزَيْتُها؟. قال: لا، ولا بزَفْرةٍ واحدةٍ[٣]»[٤].

إلى غير ذلك من الأدلَّةِ التي تملأُ الصَّدْرَ والنَّحْرَ.

فإلى الله نشكو جفافَ مشاعرِنا تُجاهَ الوالدين، فكأنَّنا في غَفْلةٍ[٥]، حتَّى إذا رَحَلُوا عنَّا انتبهنا[٦]، ولاتَ حِينَ مناصٍ.

صور من جفاف المشاعر مع الوالدين:

١ ـ التأفُّف منهما وإظهارُ التَّضجُّرِ والتَّبرُّمِ من أوامرِهما:

وهذا مما نهى الله عنه في كتابه الكريم، قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ (الإسراء: ٢٣).

---

(١) رواه مسلم (١٥١٠).

(٢) ركابها: أي بعيرها.

(٣) ولا بزفرة واحدة: الزفير هو ترديد النفس حتى تختلف الأضلاع، وهذا يَعْرِضُ للمرأة عند الوضع.

(٤) «صَحيحٌ»: أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (١١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الأدب المفرد» (ص١٧).

(٥) لا يجمُلُ بالمسلم الغفلةُ عمَّا يكون سببًا في دخول الجنة، ففي صحيح مسلم (٢٥٥١) من حديث أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ». قيل: مَنْ يا رسولَ الله؟. قال: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الكِبَرِ أَحَدَهما أَوْ كِلَيْهما، فلم يدخلُ الجَنَّةَ».

(٦) من مات والديه وهو غافل، فالبرُّ يكونَ بَعْدَ موتهما بالدُّعاء لهما، والصدقةِ عنهما، وإكرامِ مَنْ له تعلُّقٌ بهما، وصِلَةِ الرَّحِمِ الَّتي لا صِلةَ له إلا بهما، وسيأتي بيان ذلك.

قال ابن كثيرٍ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «أي: لا تُسْمِعْهُما قولًا سيئًا، حتى ولا التَّأفيفَ الَّذي هو أدنى مراتبِ القول السَّيِّئ»(١).

٢ ـ نهرهما وزجرهما:

ويكون ذلك برفع الصوت عليهما، أو الإغلاظ عليهما، أو الكلام معهما بكلامٍ خشنٍ، وهذا ـ أيضًا ـ ممَّا نهى اللهُ عنه.

قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٣ - ٢٤).

قال ابن سَعْديٍّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، أي: تَزْجُرْهما وتتكلَّمْ لهما كلامًا خَشِنًا، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظٍ يُحبَّانِه، وتأدَّبْ وتلَطَّفْ بكلامٍ ليِّنٍ حسنٍ يَلَذُّ على قلوبهما، وتطمئنُّ به نفوسُهما، وذلك يختلف باختلافِ الأحوالِ والعوائدِ والأزمان.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، أي: تواضع لهما ذلًّا لهما ورحمةً، واحتسابًا للأجر، لا لأجلِ الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونَحْوِ ذلك من المقاصد التي لا يُؤْجَرُ عليها العبدُ. ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، أي: ادعُ لهما بالرحمةِ ـ أحياءً وأمواتًا ـ جزاءً على تربيتهما إيَّاك صغيرًا، وفُهِمَ من هذا أنَّه كلَّما ازدادتِ التَّربيةُ ازداد الحقُّ، وكذلك مَنْ تولَّى تربيةَ الإنسانِ في دينِهِ ودُنْياهُ تربيةً صالحةً غَيْرَ الأَبَوَيْنِ، فإنَّ له على مَنْ رَبَّاهُ حَقَّ التَّربيةِ»(٢).

وقد يكون للولد والدانِ كافرانِ، فلا يمنعْهُ ذلك من برِّهما، والشَّفقةِ عليهما، والإنفاقِ عليهما، ومُصاحبتِهما بالمعروفِ.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤١).

(٢) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (ص٤٥٦).

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان: ١٥).

وعن أسماءَ بنتِ أبي بَكْرٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: قَدِمَتْ عليَّ أُمِّي، وهي مُشْرِكةٌ في عَهْدِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فاستفتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قُلتُ: إنَّ أمِّي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ[(١)]، أَفَأَصِلُ أميِّ؟. قال: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ»[(٢)].

وقد يكونُ لبعضِ النَّاسِ والدٌ عِنْدَهُ بَعْضُ المخالفاتِ الشَّرْعِيَّةِ: كأنْ يكونَ مُخالفًا للسُّنَّةِ على طريقةٍ غَيْرِ طريقةِ الوَلَدِ؛ فعلى الولدِ أَنْ يَرْفُقَ به، ويُحْسِنَ إليه، ولعلَّ البِرَّ بالأبِ الكاشحِ[(٣)] يحتاجُ إلى مزيدٍ من الصَّبْرِ والتَّجمُّلِ، ونِسْيانِ أَيِّ أَذِيَّةٍ تلحقُ بولده منه ابتغاءَ ما عند الله، وَلْيَجْعَلْ هَمَّهُ هو بَذْلَ النُّصْحِ له، والشفقةَ عليه، والبرَّ به، والقيامَ بخدمته، وخَفْضَ الجُناحِ له، وَلْيَعْلَمِ الوَلَدُ أَنَّ حِرْصَهُ على هِدايةِ والِدَيْهِ من أعظمِ البِرِّ بهما، فإنْ هداهما اللهُ على يَدَيْهِ، فقد أَدَّى ما عليه من واجبِ النُّصْحِ لهما، وبَقِيَ عليه أَنْ يُعلِّمَهما أمورَ دينِهما؛ فإنَّ العِلْمَ ثباتٌ، ويتخوَّلَهما بالمواعظِ، فإنَّ الوَعْظَ فيه حياةُ القلوبِ، فأنْ ماتا وَجَبَ عليه أن يستغفرَ لهما حياتَه[(٤)]، وإنْ أحبَّ أن يستغفرَ له أولادُهُ مِنْ بَعْدِهِ فَلْيستغفرْ هُوَ لهما مع والديهما؛ فإنَّ الجزاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، ولا يكونُ المَرْءُ شفيقًا مع والدَيْهِ بدُونِ ذلك.

---

(١) راغبة: أي طالبة برَّ ابنتها لها، خائفة من ردِّها إيَّاها خائبةً. «الفتح» (٥/ ٢٣٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣)، واللَّفظ للبخاريِّ.

(٣) الكاشح: المضمر للعداوة، وبابه قطع.

(٤) لا يقتصرُ الاستغفارُ للوالدين بعد موتها فَقَطُ، وإن كانَ هو المهمَّ، فالاستغفار لهما في حياتهما وبعد مماتهما هو المطلوب، لقول الله سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾، أي: ادعُ لهما بالرحمة أحياءً وأمواتًا.

٣ـ النظر إلى الوالدين شَزَرًا:

كأَنْ يُحِدَّ النظرَ إليهما، أو يَرْمُقَهما بحَنَقٍ أو ازدراءٍ أو احتقارٍ، وهذا من سوء الأدب مع الوالدين، ومن العقوق، وكيف لا يكون كذلك وربُّنا ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ يقولُ: ﴿ **وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ** ﴾ (الإسراء: ٢٤)؟!.

عن عُروةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «﴿ **وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ** ﴾، قال: لا تمتنع من شيءٍ أحبَّاهُ»[(١)].

وقال ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «ما برَّ والدَهُ مَنْ شَدَّ الطَّرْفَ إليه»[(٢)].

وقال **القُرطُبيُّ** ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «﴿ **وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ** ﴾، هذه استعارة في الشفقةِ والرَّحمةِ بهما، والتذلُّل لهما تذلُّل الرَّعيَّةِ للأميرِ، والعبيدِ للسَّادةِ؛ كما أشار إليه سعيدُ بْنُ المُسيَّبِ، وضَرَبَ خَفْضَ الجَناحِ ونَصْبَهُ مَثَلًا بجَناحِ الطَّائرِ حِينَ ينتصبُ بجَناحِهِ لولدِهِ، والذُّلُّ هو اللِّينُ»[(٣)].

والنَّظرُ إلى الوالدين شَزَرًا ـ أيضًا ـ منافٍ لتوقيرِهما وتقديرِهما؛ عن المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ ومَرْوَانَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ... فذكرا الحديثَ، وفيه: «وإذا تكلَّموا ـ أَيِ: الصحابةُ ـ خَفَضُوا أصواتَهُم عِنْدَهُ ـ أَيْ: عندَ رسولِ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، وما يُحِدُّونَ إليه النَّظَرَ تعظيمًا له»[(٤)].

(١) «صَحيحٌ»: أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٩)، قال الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» صحيح.
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٣٣).
(٣) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٣٤ - ٢٤٤).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٧٣١).

٤ ـ رَفْعُ الصَّوتِ عليهما:

ورفع الصوت من غيرِ حاجةٍ قبيحٌ، وهو مع الوالدين أقبحُ؛ فهو منافٍ للإجلال والتقدير.

وقد تقدَّم حديثُ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ ومَرْوَانَ قريبًا.

وقَدْ كان بَعْضُ السَّلَفِ يُبالغون في خَفْضِ أصواتِهم بحَضْرةِ والديهم، فعن بعض آلِ سِيرينَ قال: «ما رأيتُ محمَّدَ بْنَ سِيرينَ يكلِّمُ أُمَّهُ قَطُّ إلَّا وهو يتضرَّعُ».

وعن عَوْنٍ: «أَنَّ محمَّدًا كان إذا كان عند أُمِّهِ لو رآه رجل، ظَنَّ أن به مرضًا من خَفْضِ كلامِهِ عندها»[١].

وعَنِ ابْنِ عَوْنٍ قال: «دخل رجل على محمَّدِ بْنِ سِيرينَ وهو عند أمِّهِ، فقال: ما شَأْنُ مُحمَّدٍ؟، أيشتكي شيئًا؟، قالوا: لا، ولكن هكذا يكونُ عند أُمِّهِ»[٢].

وعن ابن عَوْنٍ المُزَنِّي: «أَنَّ أُمَّهُ نادتْهُ، فأجابها فعلا صوتُهُ صوتَها؛ فأعتق رقبتين»[٣].

٥ ـ التَّخلِّي عن خدمتهما عِنْدَ الكِبَرِ:

إنَّ تَرْكَ الأولادِ خِدْمَةَ الوالدين عند الكِبَرِ لغيرِهِمْ لَيدلُّ على جفافِ المشاعرِ ونُضُوبِها، وهو ـ أيضًا ـ من الخَلَلِ الفادحِ، والتقصيرِ الكبيرِ.

فإنَّ مرحلةَ الكِبَرِ هي مرحلةُ الضَّعْفِ، ومرحلةُ الضَّعْفِ تستلزم مزيدًا من الإحسانِ، وليس من البرِّ تَرْكُ خدمةِ الوالدين لغيرِ الأولادِ، مهما كانت أعمالُهم وشواغلُهم، فإنَّ الوالدين يجدانِ الراحةَ إذا تولَّى خدمتَهُما أَحَدُ أولادِهما.

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٧٣).

(٢) «السِّير» (٦/ ١٢٨).

(٣) «السِّير» (٦/ ٢٦٦).

وجميلٌ أن يتناوبَ الأولادَ على الخدمةِ والزِّيارةِ، وتفقُّدِ حال الوالدين من حالٍ إلى حالٍ.

ومن الخَطَإِ أن يقومَ بالخدمةِ أحدُهم، بينما بقيَّةُ الأولادِ يكونون قريبًا من الوالدين مكتوفي الأيدي بحجَّةِ أنَّ أَحَدَهم قد قام بالواجبِ، وذلك أنَّ خِدْمَةَ الوالدين أحقُّ ما تنافس فيها المتنافسون؛ لأنَّها قُرُباتٌ يُتقرَّبُ بها إلى الله، وبابُ القُرُباتِ لا يُؤْثَرُ فيها الغَيْرُ.

وقد كان السَّلَفُ يقومون بخدمة والديهم بأنفسهم، وبَعْضُهم لهم بناتٌ وأولادٌ بالقرب منهم، فلم يرض أَحَدُهم أن ينافِسَهم أو يُزاحِمَهُم في هذا الخيرِ أَحَدٌ مهما كان.

فعن ابن عُمَرَ - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - عن رسولِ الله - ﷺ - قال: «**بَيْنَما ثلاثةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ المَطَرُ، فَأَوَوْا إلى غارٍ في جَبَلٍ، فانحطَّتْ على فَمِ غارِهِمْ صَخْرةٌ مِنَ الجَبَلِ، فانطبقت عليهم، فقال بعضُهُم لبعضٍ: انظروا أعمالًا عَمِلْتُموها صالحةً لله، فادعُوا الله - تعالى - بها: لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُها عَنْكُم، فقال أحدُهم: اللَّهُمَّ، إنَّهُ كان لي والدانِ شَيْخَانِ كبيرانِ، وامرأتي، ولي صِبْيةٌ صِغارٌ أرعى عليهم، فإذا أَرَحْتُ عليهم[1] حَلَبْتُ، فبدأتُ بوالديَّ، فَسَقَيْتُهما قَبْلَ بَنِيَّ، وإنَّهُ نَأَى بي[2] ذاتَ يوم الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حتَّى أَمْسَيْتُ فوجدْتُهُما قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كما كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بالحِلَابِ[3]، فقمتُ عِنْدَ رءوسِهما، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُما من نَوْمِهما، وأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبيةَ قَبْلَهما، والصِّبيةُ يَتضاغَوْنَ[4] عِنْدَ قَدَمَيَّ، فلم يَزَلْ ذلك دَأْبِي[5] ودَأْبَهُم حتَّى طلع الفَجَرُ، فإنْ كُنْتَ**

---

(١) أرحت عليهم: أي رددت الماشيةَ من المراعي إليهم.

(٢) نأى بي: أي ابتعد عني.

(٣) الحلاب: أي الإناء الذي يُحلب فيه.

(٤) يتضاغون: يصيحون من الجوع.

(٥) دَأْبي: أي حالي اللَّازمة.

تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِكَ، فافْرُجْ لنا منها فُرْجَةً نرى منها السَّماءَ، ففَرَجَ اللهُ منها فُرْجةً، فَرَأَوْا منها السَّماءَ»[١].

فهذا الرجلُ توسَّل إلى الله بإحسانه إلى أبويه عند الشيخوخةِ والكبرِ، فأجاب اللهُ دعاءه، وليس مَنْ تَرَكَ خدمةَ والديه لبناتِهِ وأولادِهِ كمن خدمهم بنفسِهِ، مهما كان جاهه[٢]، بل الخدمةُ بالنفس تُلينُ القلبَ القاسيَ، وتُدِرُّ الدُّموعَ المُحتبسةَ في العيون، فإذا كنتَ ممَّن أدركَ أحد أبويه أو كليهما عند الكِبَرِ، فأنت بين طريقين هما: طريق الجنة، وطريق النار، فاختر أيَّهما شئتَ، والمُوَفَّقُ مَنْ وفَّقه اللهُ.

فعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **«رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ»**. قيل: مَنْ يا رسولَ الله؟. قَال: **«مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الكِبَرِ أَحَدَهما أَوْ كِلَيْهِما، فلم يدخلُ الجَنَّةَ»**[٣].

وعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنَّ النَّبيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ صَعِدَ المِنْبَرَ، فقال: «آمينَ آمينَ»، قيل: يا رسولَ الله، إنَّك حِيْنَ صَعِدتَ المِنْبَرَ قُلْتَ: آمينَ آمينَ؟!، قال: **«إنَّ جِبْرِيلَ أتاني فقال: مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ، ولم يُغْفَرْ له، فدخل النَّارَ، فأبعدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فقلتُ: آمِينَ، ومَنْ أَدْرَكَ أبوَيْهِ أو أحدَهُما عِنْدَ الكِبَرِ، فلم يَبرَّهما، فمات فدخل النَّارَ، فأبعدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فقلتُ: آمِينَ، ومَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ، فلم يُصَلِّ عليك، فمات فدخل النَّارَ، فأبعدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فقلتُ: آمِينَ»**[٤].

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٢) ليس من أناب عنه في خدمة والديه يكون عاقًا لوالديه، كلّا ما هذا أردنا، وإنَّما أردنا طلب الأكمل، واقتداءً بالسلف، والتماس الأجر العظيم، وحصولًا على دعاء الوالدين لا يجدانِ الراحةَ النفسيَّةَ إلَّا إذا خدمهما من كانا له في الصِّغَرِ.

(٣) رواه مسلم (٢٥٥١).

(٤) حسن: أخرجه البخاريَّ في «الأدب المفرد» (٦٤٦)، وقال الألبانيُّ في «التعليق على فضل الصلاة» (٩/ ١٨): حسن صحيح.

٦ ـ سبُّ الوالدين أو جلبُ السَّبِّ لهما:

من الكبائرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والدَيْه، أو يَجْلُبَ لهما السِّبابَ، كأنْ يَشْتِمَ الإبنُ أبا أَحَدٍ من الناس أو أُمَّهُ، فيردّ عليه بشَتْمِ أبيه أو أُمِّهِ.

فعن عبدِ الله بْنِ عَمْرٍو ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكبائرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والديه**». قيل: يا رسولَ الله، وكيف يَلْعَنُ الرَّجُلُ والديهِ؟! قال: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أباهُ، ويَسُبُّ أُمَّهُ، فيسُبُّ أُمَّهُ**»[(١)].

وليس من الأدب إذا سَبَّ الوالدُ وَلَدَهُ أو ضَرَبَهُ أَنْ يَرُدَّ الإبْنُ على الأَبِ بمثلِ الَّذي صنع، بل إنَّ ذلك من العقوقِ فَيَحْرُمُ.

فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أبي بَكْرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ: أَنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ كانوا ناسًا فُقَراءَ، وإنَّ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال مرَّةً: «**مَنْ كان عِنْدَهُ طعامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بثلاثةٍ، ومَنْ كان عِنْدَهُ طعامُ أَربعةٍ فَلْيَذْهَبْ بخامسٍ، بسادسٍ**». أو كما قال، وإنَّ أبا بَكْرٍ جاء بثلاثةٍ، وانطلق نبيُّ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعَشَرةٍ، وأبو بَكْرٍ بثلاثةٍ، قال: فهو وأنا وأبِي وأُمِّي ـ ولا أدري هل قال: وامرأتي وخادمٌ بَيْنَ بَيْتِنا وبَيْتِ أبي بَكْرٍ ـ قال: وإنَّ أبا بَكْرٍ تعشَّى عِنْدَ النَّبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثُمَّ لَبِثَ حتَّى صُلِّيَتِ العِشَاءُ، ثُمَّ رَجَعَ فَلَبِثَ حتَّى نَعَسَ رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء اللهُ، قالتْ له امرأتُهُ: ما حَبَسَكَ عَنْ أَضْيافِكَ ـ أو قالتْ: ضَيْفِكَ ـ قال: أَوَ مَا عَشَّيْتِهِمْ؟. قالتْ: أَبَوْا حتَّى تَجِيءَ، قَدْ عَرَضُوا عليهم فَغَلَبُوهم. قال: فذهبتُ أنا فاختبأتُ، وقال: يا غُنْثَرُ[(٢)]، فَجَدَّعَ[(٣)] وسَبَّ، وقال: كُلُوا، لا هنيئًا، وقال: والله، لا أطعمُهُ أَبَدًا[(٤)].

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).

(٢) **الغُنْثُرُ** ـ بضمِّ الغين وفتح الثَّاءِ وضمِّها، بينهما نون ساكنة ـ: الثَّقيل الوَخِم، وقيل: الجاهل، وقيل: السَّفيه.

(٣) **فجدَّع**: أي دعا بالجَدْع، وهو قَطْعُ الأنفِ وغيرِهِ من الأعضاء.

(٤) أخرجه البخاريُّ (٦١٤٠)، ومسلم (٢٠٥٧) واللَّفظُ له.

وعَنْ سالمِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ: أنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «**لا تمنعوا نساءَكُمُ المساجدَ إذا استأذَنَّكم إليها**».

قال: فقال بلالُ بْنُ عَبْدِ الله[1]: والله، لَنَمْنَعُهُنَّ. قال: فأقبل عليه عبدُ الله فسبَّهُ سبًّا سيِّئًا، ما سَمِعْتُهُ سبَّه مِثْلَهُ قَطُّ، وقال: أُخْبِرُكَ عَنْ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، وتقولُ: والله، لَنَمْنَعُهُنَّ[2].

٧ ـ عدمُ الشَّفقةِ على الوالدين:

من جفاف المشاعر عدم الشفقة على الوالدين، والحرصِ على هدايتهما، وبَذْلِ النُّصحِ لهما.

فحريٌّ بالرَّجلِ النبيلِ أن يَنْأى بنفسه عن هذه الطِّباعِ، فله في إبراهيم الخليل ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ أسوة حسنة؛ فقد كان شفيقًا على والده، يتعاهده بالنصح، ويستخدم معه الأسلوب الرقيق.

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٤١ - ٤٥).

فانظر إلى شفقةِ إبراهيمَ الخليلِ ـ عليه السلام ـ ورحمتِهِ بوالدِهِ رَغْمَ ما ناله منه، بَلِ انظرْ إلى أَدَبِهِ وأُسْلُوبِهِ مَعَ والدِهِ الدَّالِّ على توقيرِهِ رَغْمَ كُفْرِهِ بالله العظيم!.

قال ابن القيِّم ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ معلِّقًا على هذِهِ الآياتِ: «فابتدأ خِطابَهُ بذِكْرِ أُبُوَّتِهِ الدَّالَّةِ على توقيرِهِ، ولَمْ يُسمِّهِ باسمِهِ، ثُمَّ أخرج الكلام مَخْرَجَ السُّؤالِ، فقال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ

---

(١) هو بلال بن عبد الله بن عُمَرَ.

(٢) رواه مسلم (٤٤٢).

مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾. ولم يقل: لا تعبدْ، ثمَّ قال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾، فلم يقل: إنَّك جاهل، لا عِلْمَ عندك.

بل عَدَلَ عن هذِهِ العبارةِ إلى ألطفِ عبارةٍ تدلُّ على هذا المعنى، فقال: ﴿ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾، ثمَّ قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾، فنسب الخوف إلى نفسه دُونَ أبيه، كما يفعلُ الشَّفيقُ الخائفُ على من يُشفقُ عليه، وقال: ﴿ يَمَسَّكَ ﴾، فذكر لفظ المسِّ الَّذي هو ألطفُ من غيره، ثم نكَّر العذابَ، ثمَّ ذكر الرحمنَ، ولم يَذْكُرِ الجبَّارَ ولا القهَّارَ، فأيُّ خطابٍ ألطفُ وألينُ من هذا؟!»[1].

ولشدَّة شفقةِ إبراهيمَ الخليلِ على والدِهِ؛ لم يَكَلْ ولم يَمَلْ من النُّصح له حياتَهُ، حتَّى إنَّه يطلب له المغفرةَ بعد مماتِهِ إلى أَنْ نُهِيَ عن ذلك.

قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٤).

وهذا أبو هريرةَ ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ يرجو من رسولِ الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ الدُّعاءَ لأمِّهِ المُشركةِ بالهدايةِ.

فعن أبي هريرة ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ قال: كنتُ أدعو أمِّي إلى الإسلامِ وهي مشركةٌ، فدعوتُها يومًا، فأسمعَتْني في رسولِ الله ما أَكْرَهُ، فأتيتُ رسولَ الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وأنا أبكي، قلتُ: يا رسولَ الله، إنِّي كنتُ أدعو أمِّي إلى الإسلام، فتأبَى عليَّ، فدعوتُها اليومَ، فأسمعَتْني فيك ما أكرهُ، فادعُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أبي هُرَيْرَةَ، فقال رسولُ الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**اللَّهُمَّ، اهْدِ أُمَّ أبي هُرَيْرَةَ**».

---

(١) «بدائع الفوائد» للعلَّامة ابن القيِّم (٣/ ١٣٣).

فخرجتُ مستبشرًا بدعوةِ نبيِّ الله ـ ﷺ ـ، فلمَّا جئتُ فَصِرْتُ إلى البابِ، فإذا هو مُجَافٌ[1]، فسمعتْ أمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ[2]، فقالتْ: مكانَكَ يا أبا هُريرةَ، وسمعتُ خَضْخَضَةَ الماءِ[3]، قال: فاغتسلتْ ولَبِسَتْ دِرْعَها، وعَجِلَتْ عن خِمارِها، ففتحتِ البابَ، ثُمَّ قالتْ: يا أبا هُريرةَ، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، قال: فرجَعْتُ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأتيتُهُ وأنا أبكي من الفَرَحِ، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أبشرْ قَدِ استجاب اللهُ دعوتَكَ، وهَدَى أمَّ أبي هُريرةَ، فَحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، وقال خيرًا، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، ادعُ اللهَ أن يُحبِّبَني وأُمِّي إلى عبادِهِ المؤمنين، ويُحبِّبَهُمْ إلينا، قال: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**اللَّهُمَّ، حبِّبْ عُبَيْدَكَ هذا ـ يعني أبا هُريرةَ ـ وأُمَّهُ إلى عبادِكَ المؤمنين، وحَبِّبْ إليهمُ المؤمنين**». فما خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي ولا يَراني إلَّا أحبَّني[4].

٨ ـ الاقتصارُ على برِّهما في حياتهما:

من جفاف المشاعر الاقتصار على برِّ الوالدين في حياتهما، وهذا من التقصير الكبير، والبَرَرَةُ الأوفياءُ الكِرامُ الأتقياءُ هُمْ مَنْ يَبرُّون آباءهم في حياتهم وبَعْدَ موتهم، بل ويعرفون أنَّ حاجةَ الوالدَيْنِ إلى البرِّ بهما بَعْدَ موتِهما أشدُّ من حاجتهما إليه في حياتهما، وما يعقله إلَّا العالمون، وسوف أذكر بعض أعمال البرِّ الَّتي يَصِلُ ثوابُها إلى الوالدَيْنِ ـ بإذنِ الله ـ:

---

(١) مجاف: مغلق.

(٢) خشف قدمَيَّ: أي صوتها في الأرض.

(٣) خَضْخضة الماء: أي صوت تحريكه.

(٤) رواه مسلم (٢٤٩١).

أعمالُ البرِّ الَّتي يَصِلُ ثوابُها إلى الوالدينِ بَعْدَ موتِهما:

١ - الاستغفار لهما:

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٤)، وعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : **«إنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ للعَبْدِ الصَّالحِ في الجنَّةِ، فيقولُ: يا ربِّ، أنَّى لي هذا؟! فيقولُ: باستغفارِ وَلَدِكَ لك»**[١].

وعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **«إذا مات ابْنُ آدَمَ، انقطع عَمَلُهُ إلا مِنْ ثلاثةٍ: إلَّا مِنْ صدقةٍ جاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يَدْعُو له»**[٢].

٢ - أداءُ الدَّيْنِ عنهما:

من البرِّ بالوالدين الإسراعُ في أداءِ الدَّيْنِ عنهما، ويجبُ أَلَّا تُقْسَمَ له تَرِكَةٌ إلَّا بَعْدَ استخراجِ الدَّيْنِ من أَصْلِ التَّرِكةِ؛ لقولِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ (النساء: ١٢).

فإذا لم يكن للوالدين تَرِكةٌ، أو لا تفي بالدَّيْنِ، فمن البرِّ بهما الإسراعُ في أداءِ الدَّيْنِ عنهما، وطلبِ السَّماحِ لهما.

فعن ابْنِ عبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جاءتْ إلى النَّبيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقالتْ: إنَّ أمِّي نَذَرَتْ أنْ تَحُجَّ، فلم تَحُجَّ حتَّى ماتَتْ، أَفَأَحُجُّ عنها؟. قال: **«نَعَمْ، حُجِّي عنها، أرأيتِ لو كان على أمِّكِ دَيْنٌ أَكُنتِ قاضِيَتَهُ؟ اقْضُوا اللهَ؛ فاللهُ أَحَقُّ بالوَفاءِ»**[٣].

---

(١) «حسن»: أخرجه أحمدُ (٢/ ٥٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٨٥٢).

٣ ـ الصدقة الجارية:

الصدقة عن الميِّت يصلُ ثوابُها، وينفعُ ذلك المُتصدِّقَ ـ أيضًا ـ، فلا تقعدْ عنها؛ فإنَّها تُكفِّرُ عن ميِّتِكَ من سَيِّئاتِهِ.

وقد نقل النَّوويُّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ الإجماعَ على أنَّ الصدقةَ عنِ الميِّتِ يَصِلُ ثوابُها، وينتفعُ بها[١].

فعن ابن عبَّاسٍ ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ: أنَّ رجلًا قال لرسولِ الله ـ ﷺ ـ: إنَّ أُمَّهُ تُوُفِّيتْ، أَيَنْفَعُها إنْ تَصَدَّقتُ عنها؟. قال: «**نَعَمْ**». قال: فإنَّ لي مِخْرافًا[٢]، فأنا أُشْهِدُكَ أنِّي تصدَّقْتُ به عنها[٣].

٤ ـ الصَّومُ عَنِ الوالدَيْنِ:

عن ابن عبَّاسٍ ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: جاءتِ امرأةٌ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فقالتْ: يا رسولَ الله، إنَّ أمِّي ماتتْ وعليها صَوْمُ نَذْرٍ، أفأصومُ عنها؟. قال: «**أرأيتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ فقضيتِيْهِ، أكان يُؤَدِّي ذلك عنها؟**». قالتْ: نَعَمْ. قال: «**فَصُومي عَنْ أمِّكِ**»[٤][٥].

---

(١) شرح النوويِّ على مسلم (٤/ ١٦٧).

(٢) المخراف ـ بالكسر ـ: المكان المُثمر، سُمِّي بذلك؛ لما يُخْرَفُ منه من الثَّمرة (أي: يُجْنَى).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٧٧٠).

(٤) رواه البخاريُّ (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨).

(٥) لم أذكر قراءة القرآن، ووهب ثوابها للميت؛ لأنه لا دليلَ عليه، قال شيخُ الإسلام في «مجموع الفتاوي» (٢٤/ ٢٤٥): «من قال: إن الميت ينتفع بسماع القرآن، ويُؤْجَرُ على ذلك ـ فقد غلط». وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (٤/ ٢٥٨): «استنبط الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومَنِ اتَّبعه أنَّ القراءةَ لا يَصِلُ إهداءُ ثوابِها إلى الموتى؛ لأنَّه ليس من عملهم ولا كَسْبِهم؛ ولهذا لم يَنْدُبْ إليه رسولُ الله ﷺ أمَّتَهُ، ولا حثَّهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنصٍّ ولا إيماءةٍ».

٥ ـ الحجُّ عن الوالدين:

يُستحبُّ الحَجُّ عن الوالدينِ إذا ماتا، أو كانا كبيرين لا يستطيعانِ الحَجَّ، ولا بُدَّ أَنْ تَحُجَّ عن نفسِكَ أوَّلًا، فعن ابن عبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: كان الفَضْلُ بْنُ عبَّاسٍ رَدِيفَ[1] رسولِ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، فجاءَتْهُ امرأةٌ مِنْ خَثْعَمَ تَسْتَفْتِيهِ، فجعل الفَضْلُ ينظرُ إليها وتنظرُ إليه، فجعل رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَصْرِفُ وَجْهَ الفَضْلِ إلى الشِّقِّ الآخَرِ، فقالتْ: يا رسولَ الله، إنَّ فريضةَ الله على عبادِهِ في الحَجِّ أدركتْ أبي شَيْخًا كبيرًا، أفأحُجُّ عنه. قال: «نَعَمْ». وذلك في حَجَّةِ الوَداعِ[2].

٦ ـ العُمرةُ عنهما:

عن أبي رَزِينٍ أنَّه قال: يا رسولَ الله، إنَّ أبي شيخٌ كبيرٌ؛ لا يستطيعُ الحَجَّ، ولا العُمْرَةَ، ولا الظَّعْنَ[3]. قال: «**حُجَّ عَنْ أبيك واعْتَمِرْ**»[4].

٧ ـ قضاءُ النَّذْرِ عَنِ الوالدَيْنِ:

عن عبدِ الله بْنِ عبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: أنَّ سَعْدَ بْنَ عُبادةَ الأنصاريَّ استفتى النَّبيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ في نَذْرٍ كان على أُمِّهِ، فتُوُفِّيتْ أُمُّهُ قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَهُ، فأفتاه أَنْ يقضِيَهُ عنها، فكانتْ سُنَّةً بَعْدُ[5].

---

(١) **الرَّديف**: الَّذي يركب خلف الرَّاكب.

(٢) رواه البخاريُّ (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤).

(٣) **الظَّعن**: السَّير والارتحال، وبابه منع، وظَعَنًا ـ أيضًا بالتَّحريك ـ.

(٤) «**صَحِيحٌ**»: أخرجه أحمدُ (٤/ ١٠)، وأبو داوُدَ (١٨١٠)، والتِّرْمذيُّ (٩٣٠)، وابْنُ ماجَهْ (٢٩٠٦)، والنَّسائيُّ (٥/ ١١٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣١٢٧).

(٥) رواه البخاريُّ (٦٦٩٨)، ومسلم (١٦٣٨).

٨ ـ صِلَةُ الرَّحِمِ الَّتي لا صِلَةَ لك إلاَّ بهما:

كصلة العمِّ والعمَّةِ[١]، والخالِ والخالةِ[٢]، فالله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ يَأْجُرُ والديك على تلك السُّنَّةِ الحسنةِ الَّتي سنَّها لك[٣].

٩ ـ استخلاف والديك في تربية إخوانك وأخواتك:

فعن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ في حديثٍ طويلٍ، وفيه: أنَّ النَّبيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ سألني: «**هل تزوَّجتَ بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟**». فقلت: تزوَّجتُ ثيِّبًا. قال: «**فهلَّا تزوَّجتَ بِكْرًا؛ تُلاعِبُها وتُلاعِبُكَ**». قلتُ: يا رسولَ الله، تُوفِّي والدي ـ أَوِ استُشْهِدَ ـ ولي أخواتٌ صِغارٌ؛ فَكَرِهْتُ أَنْ أتزوَّجَ مِثْلَهُنَّ، فلا تُؤَدِّبُهُنَّ، ولا تقومُ عليهِنَّ، فتزوَّجتُ ثيِّبًا؛ لتقومَ عليهِنَّ وتُؤَدِّبُهُنَّ[٤].

١٠ ـ صلة أصدقاء الوالدين:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أبيه بَعْدَ أَنْ يُولِّيَ**»[٥].

---

(١) العمُّ بمقام الوالد، فقد أخرج الطَّبرانيُّ في «الكبير» (٣/ ٨٤) بسندٍ صحيحٍ صحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٠٤١)، و«الإرواء» (٢١٩٠) بشواهده من حديث عبدِ الله الورَّاقِ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**العمُّ والدٌ**». وبناءً على ذلك فالعمَّة لها حُكْمُ العمِّ؛ إذ هي أختُ الأبِ.

(٢) أخرج ابنُ سَعْدٍ في «الطبقات» بسندٍ صحيحٍ لشواهده (٤/ ٤٥) من حديث محمد بن عليٍّ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الخالةُ والدةٌ**».

(٣) انظر: «ما ينفع الوالدين» للعَدَويِّ.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٩٦٧)، ومسلم في الرَّضاع (٥٤/ ٧١٥).

(٥) رواه مسلم (٢٥٥٢).

جفاف المشاعر في التعامل مع الأولاد

لجفافِ مشاعرِ الوالدَيْنِ تُجاهَ الأولادِ مفاسدُ عظيمةٌ، ومخاطرُ جسيمةٌ، ويزدادُ الأمرُ خُطورةً إذا كان هذا الجفافُ في مَرْحَلَتَي الطُّفولةِ والبُلوغِ، فالأولاد من أجلِّ النِّعمِ، وهم بحاجةٍ إلى دِفْءِ المشاعرِ الَّذي يُريحهم نفسيًّا، ويُشبعُ عواطِفَهُم، فحاجتُهم إليه كحاجةِ الظَّمآنِ إلى باردِ الشَّرابِ، والأرضِ المُجْدِبةِ إلى ماءِ المَطَرِ، ولعلَّ البناتِ أشدُّ حاجة إلى دفء المشاعر من الأبناء؛ فإذا حرموا من دِفْءِ المشاعرِ داخلَ البَيْتِ، فأصدقاءُ السوءِ في انتظارهم؛ ليسدُّوا ذلك الفراغَ، ورُبَّما قادهم ذلك الجفافُ إلى العُقُوقِ والتَّمرُّدِ داخلَ البيتِ، وممَّا يُسْفِرُ عنه جفافُ المشاعرِ تُجاهَ الأولادِ ما يأتي:

صور من جفاف المشاعر مع الأولاد:

١ ـ عدم استشعار المسئوليَّة:

الأولادُ أمانةٌ في أعناقِنا، وسوف يسألُنا اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ عَنْ هذِهِ الأمانةِ، قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ (التحريم: ٦).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسئول عن رعيَّتِهِ، فالرجلُ راعٍ في بَيْتِهِ، وهو مسئولٌ عن رعيَّتِهِ، والمرأةُ راعيةٌ في بَيْتِ زَوْجِها، وهي مسئولة عن رعيَّتها**»[1].

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩).

٢ ـ عدم تقبيل الأولاد والرَّحمةِ بهم والعَطْفِ عليهم:

إنَّ تقبيلَ الأولادِ والشَّفقةَ عليهم يُعطيهم جُرُعاتٍ من الدِّفْءِ العاطفيِّ والنَّفْسيِّ يُشبعُ حاجتَهُم، ويربطهم بوالديهم، وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ أرحمَ الناسِ بالأولاد، وهَدْيُهُ خيرُ الهَدْيِ وأكملُهُ.

فَعَنِ ابْنِ مسعودٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: كان رسولُ الله يُصلِّي، فإذا سجد وَثَبَ الحَسَنُ والحُسينُ على ظهرِهِ، فإذا أرادوا أن يمنعوهما أشارَ إليهم: أن دَعُوهما، فإذا قضى الصلاة وضعهما في حِجْرِهِ، وقال: «**مَنْ أحبَّني فليُحِبَّ هذَيْنِ**»[(١)].

وعن أبي قَتَادةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يُصلِّي، وهو حاملٌ أُمامةَ بِنْتَ زينبَ بِنْتِ رسولِ اللهِ ـ ﷺ ـ ، ولأبي العاصِ بْنِ ربيعةَ، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[(٢)].

وهذا من شفقتِهِ على الصِّغار ورحمتِهِ بهم، وعن أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: أنَّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ قال: «**إنِّي لأدخلُ في الصَّلاةِ، وأنا أُريدُ إطالتَها، فأسمعُ بُكاءَ الصَّبيِّ؛ فأتجوَّزُ في صلاتي؛ ممَّا أعلمُ مِنْ شِدَّةِ وُجد**[(٣)] **أُمِّهِ مِنْ بُكائِهِ**»[(٤)].

وكان النَّبيُّ ـ ﷺ ـ يُداعبُ الأطفالُ ويُمازِحُهم، فعن أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: إنْ كان النَّبيُّ ـ ﷺ ـ لَيُخالِطُنا، حتَّى يقولَ لأخٍ لي صغيرٍ: «**يا أبا عُمَيرٍ، ما فعل النُّغَيْرُ**[(٥)]»[(٦)].

---

(١) «حسن»: رواه أبو يعلى في مسنده (٨/ ٤٣٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣).

(٣) وَجَدَ يَجِدُ وَجْدًا ـ بالسُّكون والتَّحريك ـ: أي حَزِنَ.

(٤) رواه البخاريُّ (٧٠٩)، ومسلم (٤٧٠).

(٥) النُّغير: طائر صغير.

(٦) رواه البخاريُّ (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

وعن أمِّ خالدٍ بنتِ خالدٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: أُتِيَ النَّبيُّ بثيابٍ، فيها خَمِيصةٌ (١) سوداءُ صغيرةٌ، فقال: «**مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هذه**». فسكت القومُ، فقال: «**ائْتُوني بأُمِّ خالدٍ**». فأُتِيَ بها تُحْمَلُ، فأخذ الخَمِيصةَ بيدِهِ فألبسها، وقال: «**أَبْلي وأَخْلِقي**(٢)». وكان فيها عَلَمٌ أخضرُ أو أصفرُ، فقال: «**يا أُمَّ خالدٍ، هذا سَنَاهُ**». وسَنَاهْ بالحَبَشِيَّةِ: حَسَنٌ(٣).

وعن محمودِ بْنِ الرَّبيعِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «عَقَلْتُ مِنَ النَّبيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مَجَّةً مَجَّها في وَجْهي، وأنا ابْنُ خَمْسِ سنين مِنْ دَلْوٍ»(٤).

وعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: خرج النَّبيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ في طائفةٍ مِنَ النَّهارِ، لا يُكلِّمُني ولا أُكلِّمُهُ، حتَّى أَتَى سُوقَ بني قَيْنُقَاعَ، فجلس بِفِنَاءِ(٥) بَيْتِ فاطمةَ، فقال: «**أَثَمَّ(٦) لُكَعُ(٧) أَثَمَّ لُكَعُ**». فحبستْهُ شيئًا، فظننتُ أنَّها تُلْبِسُهُ سِخابًا(٨) أو تُغَسِّلُهُ، فجاء يشتدُّ(٩) حتَّى عانقه وقبَّلهُ(١٠)، وقال: «**اللَّهُمَّ، أَحِبَّهُ وأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ**»(١١).

---

(١) **الخميصة**: ثوب من صوفٍ أو حريرٍ مُعلَّم.

(٢) **أَبْلي وأَخْلقي**: أي عيشي طويلًا حتَّى تَخْرِقي ثيابَكِ وتَرْقَعِيها.

(٣) رواه البخاريُّ (٥٨٢٣).

(٤) رواه البخاريُّ (٧٧).

(٥) **الفناء** ـ بالكسر ـ: ما اتَّسع من أمام الدَّارِ، والجمع أَفْنيةٌ وفُنِيٌّ.

(٦) **ثَمَّ** ـ بالفتح مَبْنِيَّة على الفتح ـ: اسم إشارةٍ للمكان البعيد بمعنى: هُناك.

(٧) **لُكَعُ** ـ بزِنَةِ عُمَرَ، لا يُصْرَفُ في المعرفة؛ لأنَّه معدولٌ من أَلْكَعَ ـ: الصَّغير الَّذي لا يهتدي لمنطقٍ ولا غَيْرِه.

(٨) **السِّخاب** ـ بزنة الكتاب ـ: قلادة تُتَّخذ من طِيبٍ، ليس فيها ذهب ولا فضَّة، والجمع سُخُبٌ.

(٩) **يشتدُّ**: أي يُسرع في المشي.

(١٠) قال ابن بطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «فتح الباري» (١٠/ ٤٢٧): «يجوزُ تقبيلُ الولدِ الصغير في كُلِّ عُضْوٍ منه، وكذا الكبيرُ عند أكثرِ العُلماءِ ما لم يكن عَوْرةً».

(١١) رواه البخاريُّ (٢١٢٢)، ومسلم (٢٤٢١).

وعن عائشةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: «ما رأيتُ أَحَدًا كان أَشْبَهَ سَمْتًا[١] وهَدْيًا، ودَلًّا[٢] برسولِ اللهِ ـ ﷺ ـ من فاطمةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ ، كانتْ إذا دخلتْ عليه قام إليها، فأخذ بيدِها وقَبَّلَها، وأجلسها في مَجْلِسِهِ، وكان إذا دخل عليها قامتْ إليه، فأخذتْ بيدِهِ، فقبَّلَتْهُ وأجلستْهُ في مَجْلِسِها»[٣].

وعن البراءِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في قِصَّةِ الهِجْرةِ، قال: «فدخلتُ مع أبي بَكْرٍ على أَهْلِهِ، فإذا عائشةُ ابنتُهُ مُضْطَجِعةٌ، قَدْ أصابتْها حُمَّى، فرأيتُ أباها يُقبِّلُ خَدَّها[٤]، وقال: كيف أَنْتِ يا بُنَيَّةُ؟»[٥].

وعن أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «دخلنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ على أبي سَيْفٍ القَيْنِ[٦] وكان ظِئْرًا[٧] لإبراهيمَ، فأخذ رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ إبراهيمَ، فقبَّله وشَمَّهُ»[٨].

٣ ـ عدم تعاهدِ الأولادِ بالتربية:

إنَّ عَدَمَ تعاهُدِ الأولادِ بالتَّربيةِ مِنَ الصِّغر لَيدلُّ على جفافِ المشاعرِ الَّذي منه عَدَمُ المُبالاة بالعواقب.

فحريٌّ بالوالدين أن يستدركا عليهما أمرَهما، قبلَ أَنْ ينفتقَ ما لا يُرْتَقُ؛ فإنَّ العِلْمَ في الصِّغَرِ كالنَّقْشِ في الحَجَرِ.

---

(١) **السَّمْت** ـ بالفتح ـ : حُسْن المَذْهَبِ دينًا ودُنْيا.

(٢) **الدَّلّ** ـ بالفتح ـ : السكينة والوقار وحُسْن المنظر.

(٣) «صحيح»: أخرجه التِّرْمذيُّ (٥٢١٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التِّرْمذيِّ» (٤٣٤٧).

(٤) قال بعض أهل العلم: إنَّ ذلك كان قَبْلَ الحِجابِ، وكان البراءُ دُونَ البُلُوغِ.

(٥) رواه البخاري (٣٩١٨).

(٦) **القين** ـ بالفتح ـ : الحدَّاد، والجمع أقيان وقُيُون.

(٧) **الظِّئْر** ـ بالكسر ـ : المُرضعة لغير ولدها، وأطلق ذلك على زوجها؛ لأنَّه يشاركها في تربيته غالبًا.

(٨) رواه البخاريُّ (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

قال سابقٌ البَرْبَرِيُّ:

قَدْ يَنْفَعُ الأَدَبُ الأَحْدَاثَ[1] في مَهَلٍ ... ولَـيْسَ يَنْفَـعُ بَعْـدَ الكَـبْرَةِ الأَدَبُ

إنَّ الغُـصُونَ إذا قَوَّمْتَهـا اعْتَـدَلَتْ ... ولَـنْ تَـلِيـنَ ـ إذا قَـوَّمْتَها ـ الخَشَبُ

وقد كان النَّبيُّ ـ ﷺ ـ يُربِّي الأبناءَ على التَّوجُّهِ إلى الله، والتَّعرُّفِ عليه في الرَّخاءِ والشِّدَّةِ، ويُوَجِّهُهُم إلى ما فيه صلاحُهم، ويُراقبُ تصرُّفاتِهم وسُلُوكَ بَعْضِهِمْ مع بَعْضٍ؛ ليُصْلِحَها لهم.

فعنِ ابْنِ عبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: كنتُ خَلْفَ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ يومًا، فقال: **«يا غُلامُ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كلماتٍ: احفظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجتمعتْ على أنْ ينفعوكَ بشيءٍ، لم يَنْفَعُوكَ إلَّا بشيءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وإنْ اجتمعوا على أَنْ يَضُرُّوكَ بشيءٍ، لَمْ يَضُرُّوك إلَّا بشيءٍ قدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ»**[2].

وعن حُذَيْفَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: كُنَّا إذا حَضَرْنا مَعَ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ طعامًا لم نَضَعْ أَيْدِيَنا، حتَّى يَبْدَأَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيضعَ يَدَهُ، وإنَّا حَضَرْنا مَعَهُ مرَّةً طعامًا، فجاءتْ جاريةٌ كأنَّها تُدْفَعُ[3]، فذهبَتْ لتضعَ يَدَها في الطَّعامِ، فأخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيدِها، ثُمَّ جاء أعرابيٌّ كأنَّما يُدْفَعُ، فأخذ بِيَدِهِ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: **«إنَّ الشَّيطانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعامَ أَلَّا يُذْكَرَ اسْمُ الله عليه، وإنَّهُ جاء بهذِهِ الجاريةِ؛ ليستحلَّ**

(١) الأحداث: صغار السِّنِّ، واحدهم حَدَث ـ بالتَّحريك ـ.

(٢) «صحيح»: أخرجه التِّرْمذيُّ (٢٥١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التِّرْمذيِّ» (٢٠٤٣).

(٣) تُدْفَعُ: يَعْني لشدَّةِ سُرعتها.

بها، فأخذتُ بيدِها، فجاء بهذا الأعرابيِّ؛ ليستحلَّ به، فأخذتُ بيدِهِ والَّذي نفسي بيَدِهِ، إنَّ يَدَهُ في يَدِي مَعَ يَدِها[١]»[٢].

وعَنْ عُمَرَ بن أبي سَلَمَةَ قال: كنتُ غلامًا في حَجْرِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، وكانتْ يَدِي تَطِيشُ[٣] في الصَّحْفَةِ، فقال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: **«يا غُلامُ، سَمِّ اللهَ، وكُلْ بيمينِكَ، وكُلْ ممَّا يَلِيكَ»[٤].**

ويحثُّ على تعليمِ الأولادِ الصَّلاةَ، ومَنِ امتنع عنها ـ وهو ابْنُ عَشْرِ سنين ـ فحقُّهُ الضَّرْبُ بالعصا؛ فعن عَمْرِو بْنِ العاصِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: **«مُرُوا أولادَكُم بالصَّلاةِ وهُمْ أبناءُ سَبْعِ سنينَ، واضربوهم عليها[٥] وهم أبناءُ عَشْرِ سنين، وفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ في المَضَاجِعِ[٦]»[٧].**

---

(١) وفي بعض الرواية: «يدهما»، والتثنية تعودُ إلى الجارية والأعرابيِّ.

(٢) رواه مسلم (٢٠١٧).

(٣) **تطيش**: أي تتحرَّك وتمتدُّ إلى نواحي الصَّحفة، ولا تقتصرُ على موضعٍ واحدٍ.

(٤) رواه البخاريُّ (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٥) استدلَّ أهلُ العلم بهذا الحديثِ وغَيْرِهِ على جَوازِ ضَرْبِ الأطفالِ بقَصْدِ تأديبِهِمْ، ومَعَ أَنَّ الأَصْلَ هو الرِّفْقُ، إلَّا أنَّ بَعْضَ الأطفالِ منهم مَنْ ينفعُ معه الإعراضُ، ومنهم من ينفعُ معه الكلمةُ الطَّيِّبَةُ، ومنهم من لا يُصلِحُهُ إلَّا الضَّرْبُ، ولا تنفعُ معه إلَّا الشِّدَّةُ؛ فحينئذٍ يُضْرَبُ بقَدْرِ المصلحةِ المُتحقِّقةِ، ولا يقتصرُ الضَّرْبُ على الصَّلاةِ فَقَطْ، بل على أيِّ خَطَإٍ يستدعي الضَّرْبَ؛ فقد أخرج البُخاريُّ في «صحيحه» (٥٥١٤) من حديث ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : أنه دخل على يَحْيَى بْنِ سعيدٍ وغلامٌ من بني يحيى رابطٌ دجاجةً يرميها، فمشى إليها ابْنُ عُمَرَ، حتَّى حلَّها، ثمَّ أقبل بها وبالغلام معه، فقال: ازجروا غلامَكم عن أن يَصْبِرَ هذا الطَّيرَ للقَتْلِ؛ فإنِّي سَمِعْتُ النَّبيَّ - ﷺ - نهى أَنْ تُصْبَرَ ـ أي: تُحْبَسَ لتُرْمَى حتَّى الموتِ ـ بهيمةٌ أو غيرُها للقَتْلِ.
وعلى الوالدين أن يتَّقيا ضرب الأولاد على وُجُوهِهِمْ؛ فقد نهى النَّبيُّ عن ذلك، ففي صحيح مسلم (٢٦١٢) من حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «إذا ضرب أحدُكم أخاه فَلْيَجْتَنِبِ الوَجْهَ».

(٦) قال المناوي كما في «عون المعبود» (٢/ ١٦٢): «أَيْ: فرِّقوا بَيْنَ أولادِكُم في مضاجِعِهِمُ الَّتي ينامون فيها، إذا بلغوا عَشْرًا حذارًا من غوائل الشهوة، وإنْ كُنَّ أَخَواتٍ!» ا. هـ.

(٧) «حسن»: أخرجه أبو داوُدَ (٤٩٥)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ».

فهذا نبيُّ الله نوحٌ لَبِثَ في قومِهِ أَلْفَ سنةٍ إلَّا خمسين عامًا، فكم آمن معه؟ وكَمِ استجاب لدعوته؟، يأتيك الجوابُ من ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (هُود: ٤٠)، فنوحٌ ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ لَبِثَ في قومِهِ ما لَبِثَ، يدعوهم إلى الله، لكنَّهم لا ينتفعون بنصحِهِ ودعوتِهِ؛ لأنَّ الهادِيَ هُوَ اللهُ.

قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ حاكيًا عن نوحٍ إذْ قال لقومِهِ: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (هُود: ٣٤).

بل إنَّ نوحًا ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ يُلِحُّ على ولدِهِ أَنْ يَتُوبَ إلى رُشْدِهِ، ويَقْبَلَ هُدَى الله، ويَرْكَبَ معه في السفينةِ، فما رَضِيَ وما أناب، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ما كتب لَهُ الهدايةَ، قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ (هُود: ٤٢ - ٤٣).

وها هُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرانَ ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ لم تضرَّهُ تربيةُ فِرْعَونَ اللَّعينِ له، كما لم تَنْفَعْ مُوْسَى السَّامِرِيَّ تربيةُ جِبْريلَ الأمينِ له!.

إذا المَرْءُ لم يُخْلَقْ سعيدًا مِنَ الأَزَلِ ... فَقَدْ خاب مَنْ رَبَّى، وخَابَ المُؤَمِّلُ

فموسَى الَّذي ربَّاهُ جِبْرِيلُ كافرٌ ... ومُوسَى الَّذي ربَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

وقد ذكر الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ والدَيْنِ صالحَيْنِ، وهما يجتهدانِ في دَعْوةِ ولَدِهِما أَنْ يَقْبَلَ هُدَى الله، فما قَبِلَ وما رَضِيَ، بل قابلهما بأقبحِ مقابلةٍ، فقال لهما: ﴿ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾، حتَّى إنَّ الوالدَيْنِ يستغيثانِ اللهَ به استغاثةَ الغَريقِ، ويتوجَّعانِ له، ويجتهدانِ في بيانِ الحقِّ له، ويقولانِ: إنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ، فلا يزدادُ إلَّا نُفُورًا

وعلى الوالدين - أيضًا - أن يحرصا على أَنْ يُجالسَ أولادُهما الصالحين[1]، كما عليهما أَنْ يُحذِّرا أولادهما من جُلساءِ السوءِ: كأهلِ البِدَعِ، وغَيْرِهم من الفاسقين، ويُعَلِّماهم أَدَبَ السَّلامِ، والكلامِ، والعُطاسِ، والتثاؤبِ، ونَحْوِ ذلك.

وعليهما - أيضًا - أَنْ يَبْذُلا جُهْدَهُما وطاقتهما في الأَخْذِ بأسبابِ الهدايةِ، والقيام بما أوجبه اللهُ عليهما في تربيةِ أولادِهما، والهدايةُ بيدِ الله، يهدي مَنْ يشاءُ، ويُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ.

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٨).

فالهدايةُ بيدِ الله وَحْدَهُ، والإنسانُ لا يَمْلِكُ الهدايةَ لنفسِهِ، فكيف يهدي غيره؟!

---

(١) مجالسةُ الصالحين لها أثرٌ عظيمٌ في صلاحِ الأولادِ؛ فهذِهِ أمُّ سُلَيْم أَتَتْ بولدِها أَنَسٍ يَخْدُمُ رسولَ الله - ﷺ - كما في «صحيح البخاريِّ» (١٩٨٢)، واللفظ له، ومسلم (٢٤٨١) مِنْ حديثِ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وفيه: فقالتْ أمِّي: يا رسولَ الله، إنَّ لي خُوَيْصَةً، قال: «ما هي؟». قالتْ: خادِمُكَ أَنَسٌ، فما تَرَكَ خَيْرَ آخرةٍ ولا دُنْيا إلَّا دعا لي به.

فقدْ حَرَصَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ على أَنْ يَخْدُمَ أَنَسٌ رسولَ الله - ﷺ -، وقدِ استفاد أنسٌ من رسولِ الله - ﷺ - خيرًا كثيرًا، وحمل عنه علمًا غزيرًا، وهذِهِ أمُّ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - تنالُ مِنْ حُذَيْفة؛ لأنَّه لم يجالسِ النَّبيَّ - ﷺ -.

- ففي سُننِ التِّرْمِذيِّ (٣٧٨١) بسندٍ صحيحٍ، صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التِّرْمذيِّ» (٢٩٧٥) من حديث حُذَيفةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: سألَتْني أمِّي مَتَى عَهْدُكَ؟ (تَعْني بالنَّبيِّ - ﷺ -). فقلتُ: ما لي بِهِ عَهْدٌ مُنْذُ كذا وكذا، فنالتْ منِّي، فقلتُ لها: دعيني آتي النَّبيَّ - ﷺ - فأُصلِّي مَعَهُ المَغْرِبَ، وأسألُهُ أن يستغفرَ لي ولكِ. فأتيتُ النَّبيَّ - ﷺ - فصلَّيتُ معه المَغْرِبَ، فصلَّى حتَّى صلَّى العِشاءَ، ثُمَّ انفتل فتبعتُهُ، فسمع صوتي، فقال: «مَنْ هذا؟ حُذيفةُ». قلتُ: نَعَمْ، قال: «ما حَاجَتُكَ؟ غَفَرَ اللهُ لَكَ ولأُمِّكَ». قال: «إنَّ هذا مَلَكٌ لم يَنْزِلِ الأَرْضَ - قَطُّ - قَبْلَ هذِهِ اللَّيلةِ، استأذن رَبَّهُ أن يُسَلِّمَ عليَّ، ويُبَشِّرَنِي بأَنَّ فاطمةَ سَيِّدةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وأَنَّ الحَسَنَ والحُسَينَ سَيِّدا شَبَابِ أهلِ الجنةِ».

فهذا نبيُّ الله نوحٌ لَبِثَ في قومِهِ أَلْفَ سنةٍ إلَّا خمسين عامًا، فكم آمن معه؟ وكَمِ استجاب لدعوته؟، يأتيك الجوابُ من ٱللَّهُ - سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (هُود : ٤٠)، فنوحٌ - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - لَبِثَ في قومِهِ ما لَبِثَ، يدعوهم إلى الله، لكنَّهم لا ينتفعون بنصحِهِ ودعوتِهِ؛ لأنَّ الهادِيَ هُوَ اللهُ.

قَالَ ٱللَّهُ - سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ - حاكيًا عن نوحٍ إذْ قال لقومِهِ: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (هُود : ٣٤).

بل إنَّ نوحًا - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - يُلِحُّ على ولدِهِ أَنْ يَئُوبَ إلى رُشْدِهِ، ويَقْبَلَ هُدَى الله، ويَرْكَبَ معه في السفينةِ، فما رَضِيَ وما أناب، فالله - سبحانه وتعالى - ما كتب لَهُ الهدايةَ، قَالَ ٱللَّهُ - سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ (هُود : ٤٢ - ٤٣).

وها هُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرانَ - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - لم تضرَّهُ تربيةُ فِرْعَونَ اللَّعينِ له، كما لم تَنْفَعْ مُوْسَى السَّامِرِيَّ تربيةُ جِبْريلَ الأمينِ له!.

إذا المَرْءُ لم يُخْلَقْ سعيدًا مِنَ الأَزَل ... فَقَدْ خاب مَنْ رَبَّى، وخَابَ المُؤَمِّلُ
فموسَى الَّذي ربَّاهُ جِبْرِيلُ كافرٌ ... ومُوسَى الَّذي ربَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

وقد ذكر الله - سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ - والدَيْنِ صالحَيْنِ، وهما يجتهدانِ في دَعْوةِ ولَدِهِما أَنْ يَقْبَلَ هُدَى الله، فما قَبِلَ وما رَضِيَ، بل قابلهما بأقبحِ مقابلةٍ، فقال لهما: ﴿ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾، حتَّى إنَّ الوالدَيْنِ يستغيثانِ اللهَ به استغاثةَ الغَريقِ، ويتوجَّعانِ له، ويجتهدانِ في بيانِ الحقِّ له، ويقولانِ: إنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ، فلا يزدادُ إلَّا نُفُورًا

واستكبارًا، قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ (الأحقاف : ١٧، ١٨).

فهذانِ الوالدانِ قد بذلا جهدَهما وطاقَتَهما في النُّصْحِ والتَّوجيهِ والدُّعاءِ، وقَدِ استخدما مَعَهُ الرِّفْقَ والشِّدَّةَ، والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، فما استجاب لهما، فما علينا إلَّا البلاغُ المُبينُ، والتَّربيةُ الحقَّةُ، والمُتابعةُ المُستمرَّةُ ابتغاءَ ما عِنْدَ الله، فَمَنِ استجاب لنا فإنَّ اللهَ هو الَّذي أراد له ذلك، ومن لم يستجبْ نتابعه، حتَّى تُفارِقَ أرواحُنا أجسادَنا، فإنْ متنا أوصينا بهم أهلَ الصَّلاحِ مِنْ إخوانِنا، فإنَّ هذِهِ الأُمَّةَ كالغَيْثِ، لا ندري أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ، ولعلَّ اللهَ يجعلُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسرًا، وكم مِنْ وَلَدٍ تاب وأناب بَعْدَ مَوْتِ والدَيْهِ، فلا يَأْسَ مَعَ الأَمَلِ، ولا أَمَلَ مَعَ اليَأْسِ.

ورُبَّ رجلٍ يعملُ بعملِ أَهْلِ الجنَّةِ، حتَّى ما يكونُ بَيْنَهُ وبَيْنَها إلَّا ذِراعٌ، فيسبِقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعملِ أهلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها، ورُبَّ رجلٍ يعملُ بعملِ أَهْلِ النَّارِ، حتَّى ما يكونُ بَيْنَهُ وبَيْنَها إلَّا ذِراعٌ، فيسبقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعملِ أَهْلِ الجنَّةِ فيدخُلُها[1].

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديثِ عَبْدِ الله بْنِ مسعودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: حدَّثنا رسولُ الله - ﷺ - وهو الصادقُ المَصْدُوقُ: «إنَّ أَحَدَكُم يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يومًا نُطْفَةً، ثُمَّ يكونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَكونُ مُضْغةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يُرسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، ويُؤْمَرُ بِأَرْبعِ كلماتٍ: بكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وعَمَلِهِ، وشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فواللهِ الَّذي لا إلهَ غيرُهُ، إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها، وإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بيْنَهُ وبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ، فيسبِقُ عليهِ الكِتَابُ، فيعملُ بعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فيَدْخُلُها».

فلا ينبغي لنا أَنْ نَقْطَعَ بأنَّ فلانًا شقيًّا، وفُلانًا سعيدًا، بل نُربِّي ونُوجِّهُ وننصحُ، حتَّى يَبْلُغَ الكتابُ أَجَلَهُ مَعَ الرِّفْقِ، فإنَّ اللهَ يُعْطي على الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي على سِوَاهُ[1]، ولا تنسَ ـ أيضًا ـ الدُّعاءَ بصلاحِ الذُّرِّيَّةِ.

٤ ـ الإكثارُ مِنَ العِتَابِ:

من جفافِ المشاعرِ الإكثارُ مِنَ العِتَابِ بلا مُسَوِّغٍ، فرُبَّما دَفَعَ الأولادَ إلى الكَذِبِ والخداعِ، ورُبَّما صار ذلك لهم عادةً لا ينفكُّون عنها غالبًا؛ فعلى الوالدين أَنْ يُعْرِضَا عن بَعْضِ الأمورِ؛ فإنَّ للأطفالِ قُدراتٍ عَقْلِيَّةً يَجِبُ أَنْ تُراعى، كما للمرأةِ قُدْرتُها العَقْلِيَّةُ.

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ (التحريم: ٣)، فالمرأة إذا أَخْطَأَتْ في ثلاثٍ، فَلْتُؤَاخَذْ في بَعْضِها، ويتغافل عن بَعْضٍ، والأطفالُ كذلك، فالعتابُ مُرُّ المذاقِ، فالتغافلُ عَنْ بَعْضِهِ يحفظُ للمُربِّي هَيْبَتَهُ.

وقد يحسُنُ بالمربِّي اطِّراحُ العتابِ، إذا كانتْ له هَيْبَةٌ وكلمةٌ مسموعةٌ، تستدعي حُسْنَ أَدَبٍ من الأطفالِ.

فعن أنس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «خدمتُ رسولَ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَشْرَ سِنينَ، واللهِ، ما قال لي: أُفٍّ قطُّ، ولا قال لي لشيءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كذا؟، وهَلَّا فَعَلْتَ كذا»[2].

٥ ـ التَّقْتيرُ على الأولادِ:

من جفافِ مشاعرِ الوالدَيْنِ البُخْلُ على الأَوْلادِ، وعَدَمُ إعطائهم كفايتَهُم، فرُبَّما قادهم ذلك إلى السَّرقةِ، أَوِ التَّسوُّلِ، أو إذلالِ أَنْفُسِهِمْ، فعلى الوالدِ الإنفاق

---

(١) جاء في «صحيح مسلم» (٢٥٩٤) من حديثِ عائشةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : «إنَّ الرِّفْقَ لا يكونُ في شيءٍ إلَّا زانَهُ، وما يُنْزَعُ مِنْ شيءٍ إلَّا شانَهُ».

(٢) رواه البخاريُّ (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

على أولادِهِ بالمعروف، وإنَّ للإنفاقِ - وإن رآهُ الأولادُ والأَهْلُ حقًا واجبًا لهم - لَأَجْرًا عظيمًا.

فعن المقدامِ بْنِ مَعْدِ يْكَرِبَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**ما أطعمتَ نَفْسَكَ فهو لك صدقةٌ وما أطعمتَ وَلَدَكَ فهو لك صَدَقةٌ، وما أطعمتَ زَوْجَكَ فهو لك صدقةٌ، وما أطعمتَ خادِمَكَ فهو لك صدقةٌ**»(١).

وعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**دينارٌ أنفقتَهُ في سبيلِ الله، ودينارٌ أنفقتَهُ في رَقَبَةٍ، ودينارٌ تصدَّقْتَ بِهِ على مسكينٍ، ودينارٌ أنفقتَهُ على أَهْلِكَ أعظَمُها أَجْرًا الَّذي أنفقتَهُ على أَهْلِكَ**»(٢).

وعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**واليَدُ العُلْيا خيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وابدأْ بِمَنْ تَعُولُ**»(٣).

٦ - إهمالُ نظافةِ الأولاد:

من جفافِ مشاعرِ الوالدَيْنِ تِجاهَ الأولادِ عَدَمُ الاهتمامِ بنظافةِ ثيابِهم وأبدانِهم، وهذا من الخَلَلِ الفادحِ، والتقصيرِ الكبيرِ؛ فالنظافةُ أمرٌ مشروعٌ ومُرَغَّبٌ فيه.

قالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿ **يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ (الأعراف: ٣١)، وقالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴿٤﴾ ﴾ (المدثر: ٤).

وعَنِ ابْنِ مسعودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**إنَّ اللهَ جميلٌ، يُحِبُّ الجمالَ**»(٤).

---

(١) «صحيح»: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٣١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٥٣٥).
(٢) رواه مسلم (٩٩٥).
(٣) رواه البخاريُّ (٥٣٥٥).
(٤) أخرجه مسلم (٩١).

وعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: خرج النَّبيُّ - ﷺ - في طائفةٍ مِنَ النَّهارِ، لا يُكلِّمُني ولا أكلِّمُهُ، حتَّى أتَى سُوقَ بني قَيْنُقَاعَ، فجلس بفِناءِ بَيْتِ فاطمةَ، فقال: «**أَثَمَّ لُكَعُ أَثَمَّ لُكَعُ**». فحبستْهُ شيئًا، فظننتُ أنَّها تُلْبِسُهُ سِخابًا أو تُغَسِّلُهُ، فجاء يشتدُّ حتَّى عانقه وقبَّلَهُ، وقال: «**اللَّهُمَّ، أَحِبَّهُ وأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ**»(١).

وعن عائشةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالتْ: أراد النَّبيُّ - ﷺ - أَنْ يُنَحِّيَ مُخاطَ أُسامةَ، قالتْ عائشةُ: دَعْني حَتَّى أكونَ أنا الَّذي أفعلُ، قال: «**يا عائشةُ، أَحِبِّيهِ؛ فإنِّي أُحِبُّهُ**»(٢).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أيضًا - قالت: عَثَرَ أُسامةُ بعَتَبةِ البابِ، فَشُجَّ في وَجْهِهِ، فقال لي رسولُ الله - ﷺ -: «**أَمِيطي عنه الأذى**». فَقَذِرْتُهُ فجعل يَمُصُّ الدَّمَ، ويَمُجُّهُ عَنْ وَجْهِهِ، ويقول: «**لو كان أسامةُ جاريةً، لكسوتُهُ وحلَّيتُهُ حتَّى أنفقَهُ**»(٣).

وما مِنْ شَكٍّ أَنَّ منظرَ الأولادِ يدلُّ على والديهِ، إنْ حَسَنًا فَحَسَنٌ، وإنْ قَبيحًا فقبيحٌ؛ فلا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ تَرْكُ الأولادِ مُتَّسخي الثِّيابِ، على وُجُوهِهِمُ الوَسَخُ، وعلى رُءُوسِهِمُ القَمْلُ، وعلى أجسادِهِمُ الذُّبابُ، قد سال على أفواهِهِمُ المُخاطُ، قد علا على أظفارِهِمُ الوَسَخُ بسببِ عَدَمِ تعاهُدِها بالقَصِّ، فإنَّ ذلك يدلُّ على جَفافِ المشاعرِ، وعلى ضِعَةِ الشَّأْنِ، فحريٌّ بالوالدين السُّمُوُّ بنفوسهما، وحَمْلُها على الخير حملًا؛ فإنَّ النَّفْسَ إذا ما عُوِّدَتْ تعتادُ.

٧ - الدُّعاءُ على الأَوْلادِ:

لعلَّ مِنْ أَخْطَرِ الأمورِ الَّتي تنتجُ عَنْ جفافِ مشاعرِ الوالدَيْنِ الدُّعاءَ على أولادهما، والدُّعاءُ على الأولادِ ظاهرةٌ منتشرةٌ عِنْدَ كثيرٍ من النَّاسِ، وكم شَقِيَ منهم

---

(١) رواه البخاريُّ (٢١٢٢)، ومسلم (٢٤٢١).

(٢) «حسن»: أخرجه التِّرْمِذيُّ (٣٨١٨).

(٣) «صحيح لغيره»: أخرجه أحمد (٦/ ١٣٩)، وابن أبي شَيْبَةَ في «المصنف» (١٢٣٥٦).

بأولادهم بسببِ دُعائِهِ عليهم في ساعةِ غَضَبٍ، فعن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «**لا تدعوا على أَنْفُسِكُم، ولا تَدْعُوا على أولادِكُم، ولا تَدْعُوا على أموالِكم؛ لا تُوافقوا مِنَ الله ساعةً يُسْأَلُ فيها عَطَاءٌ، فيستجيبُ لكم**»[1].

ودعاءُ الوالدَيْنِ على وَلَدِهم يُستجابُ، ما مِنْ ذلك بُدٌّ؛ فعن أبي هُريرةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عن النَّبيِّ - ﷺ - قال: «**ثلاثُ دعواتٍ مُسْتَجاباتٍ، لا شَكَّ فيهِنَّ: دعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المُسافرِ، ودعوةُ الوالدِ على وَلَدِهِ**»[2].

وعن أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أنه قال: «كان جُرَيْجٌ يتعبَّدُ في صَوْمَعَةٍ، فجاءتْ أُمُّهُ، قال حُمَيْدٌ: فوصف لنا أبو رافعٍ صِفَةَ أبي هُرَيْرَةَ لصفةِ رسولِ الله - ﷺ - أُمَّهُ حِينَ دَعَتْهُ، كيف جَعَلَتْ كفَّها فوقَ حاجِبها، ثُمَّ رفعتْ رَأْسَها إليه تَدْعُوهُ. فقالتْ: يا جُرَيْجُ، أنا أُمُّكَ كَلِّمْني، فَصَادَفَتْهُ يُصَلِّي، فقال: اللَّهُمَّ، أُمِّي وصلاتي، فاختار صلاتَهُ، فرجَعَتْ ثُمَّ عادتْ في الثَّانيةِ، فقالت: يا جُرَيْجُ، أنا أُمُّكَ فكَلِّمْني، فَصَادَفَتْهُ يُصَلِّي، فقال: اللَّهُمَّ، أُمِّي وصلاتي، فاختار صلاتَهُ، فقالتِ: اللَّهُمَّ، إن هذا جُرَيْجُ، وهو ابني، وإِنِّي كلَّمْتُهُ، فأبى أن يكلِّمَني، اللَّهُمَّ، فلا تُمِتْهُ حتَّى تُرِيَهُ المُومِسَاتِ[3]. قال: ولو دَعَتْ عليهِ أَنْ يُفْتَنَ لَفُتِنَ، قال: وكان راعي ضَأْنٍ، يَأْوي إلى دَيْرِهِ[4]، قال: فخرجتِ امرأةٌ مِنَ القريةِ، فَوَقَعَ عليها الرَّاعي، فحملتْ فولَدَتْ غلامًا، فقيل لها: ما هذا؟. قالتْ: مِنْ صاحبِ هذا الدَّيْرِ، قال: فجاءُوا بفئُوسِهِمْ ومساحِيهِمْ، فنادَوْهُ فصادَفُوهُ يُصَلِّي، فَلَمْ يُكلِّمْهُمْ، قال: فأَخَذُوا يَهْدِمُونَ دَيْرَهُ، فَلَمَّا رأى ذلك نزل إليهم،

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٩).

(٢) «صحيح»: أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٤٨١)، وأبو داوُدَ (١٥٣٥)، والتِّرْمذيُّ (١٩٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٣٧٢).

(٣) المومسات: هن الزَّواني البغايا المُتجاهرات بذلك.

(٤) الدير: هو الصَّومعة الَّتي يتعبَّدُ فيها رُهْبانُ النَّصارى.

فقالوا له: سَلْ هذِهِ، قال: فتبسَّم ثُمَّ مسح رأسَ الصَّبيِّ، فقال: مَنْ أَبُوكَ؟. قال: أبي راعي الضَّأْنِ، فَلَمَّا سَمِعُوا ذلك مِنْهُ، قالوا: نَبْني ما هَدَمْنا مِنْ دَيْرِكَ بالذَّهَبِ والفِضَّةِ، قال: لا، ولَكِنْ أَعِيدُوهُ ترابًا كما كان، ثُمَّ علاه»[١].

قال النَّوويُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «قال العُلماءُ: هذا دليلٌ على أنَّه كان الصَّوابُ في حقِّه إجابتَها؛ لأنَّه كان في صلاةِ نَفْلٍ، والاستمرارُ فيها تطوُّعٌ لا واجبٌ، وإجابةُ الأُمِّ وبِرُّها واجبٌ، وعُقُوقُها حَرامٌ، وكان يُمْكِنُهُ أَنْ يُخَفِّفَ الصَّلاةَ ويُجِيبَها، ثُمَّ يَعُودَ لصلاتِهِ، فلعلَّه خَشِيَ أَنَّها تَدْعُوه إلى مفارقةِ صَوْمَعَتِهِ، والعَوْدِ إلى الدُّنيا ومُتعلَّقاتِها وحُظُوظِها، وتُضْعِفُ عَزْمَهُ فيما نواهُ وعاهَدَ عليه»[٢].

٨ ـ عَدَمُ العَدْلِ بَيْنَ الأولادِ:

دِفْءُ المشاعرِ والعَدْلُ أَخَوانِ مُؤْتَلِفانِ، أينما وُجِدَ أَحَدُهما وُجِدَ الآخَرُ، والجَوْرُ[٣] وجَفافُ المشاعرِ صِنْوَانِ[٤] لا يَفْترقانِ إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ.

وعَدَمُ العَدْلِ بَيْنَ الأولادِ سبيلٌ إلى كُلِّ بليَّةٍ وشَرٍّ، فهو طريقٌ إلى العَدَاوةِ والخِصامِ، فالجَوْرُ مقرونٌ بالعَطَبِ، فكأنَّ الوالدين بفعلِهما إنَّما يزرعانِ الحِقْدَ في نُفُوسِ أولادِهما مِنَ الصِّغَرِ، والحِقْدُ يتولَّدُ منه الحَسَدُ، والحَسَدُ تتولَّدُ منه العداوةُ، ما مِنْ ذلك بُدٌّ.

فلا بُدَّ مِنَ العَدْلِ بَيْنَ الأولادِ في الهِباتِ، فَعَنِ النُّعمانِ بْنِ بَشيرٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: أعطاني أبي عَطِيَّةً، فقالت عَمْرةُ بِنْتُ رَوَاحةَ: لا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رسولَ الله

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٠).

(٢) «شرح النَّوويِّ على مسلم» عند شرحه لحديث (٢٥٥٠).

(٣) الجور: الظُّلم، وبابُهُ قال.

(٤) الصِّنْو ـ بالكسر وقد يُضَمُّ ـ : الأخ والمِثْل، والجمع أصناءٌ، وصِنْوانٌ ـ برفع النون ـ .

- ﷺ - ، فأتى رسولَ الله - ﷺ - فقال: إنِّي أَعْطَيْتُ ابْني مِنْ عَمْرةَ بِنْتِ رَواحةَ عَطِيَّةً، فأَمَرَتْني أَنْ أُشْهِدَكَ يا رسولَ الله. قال: «**أعطيتَ سائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هذا؟**». قال: لا، قال: «**فاتَّقُوا اللهَ، واعدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ**»[1].

وكما يكونُ العَدْلُ بَيْنَ الأولادِ في الهِباتِ، فالعَدْلُ في المُعاملةِ، حتَّى في الابتسامةِ، فإذا حَمَلْتَ أَحَدَ أولادِكَ فاحملِ الآخَرَ، وإذا قَبَّلْتَ أَحَدَهما فقبِّلِ الآخَرَ، وإذا أجلستَ أَحَدَهما بَيْنَ كَتِفَيْكَ فَأَجْلِسِ الآخَرَ على الكتفِ الأُخْرَى، خاصَّةً إذا كان الثاني موجودًا؛ مِنْ أَجْلِ أنَّ ذلك يُحْزِنُهُ، ويُوغِرُ صَدْرَهُ، وهكذا يكون التعاملُ مع سائرِ الأولادِ، وإذا قُمْتَ بِرِحْلَةٍ مَعَ أَحَدِهم فَمِنَ العَدْلِ أَنْ تَقُومَ بِرِحْلَةٍ مَعَ سائرِ أولادِك؛ فإذا كان يسرُّك أن يكونوا إليك في البرِّ سواءً، فاسلُكْ معهم مَسْلَكَ العَدْلِ والإنصافِ، فمِنَ الأولادِ من ينمو الحِقْدُ في قَلْبِهِ على إخوانِهِ بسببِ الجَوْرِ، وإنْ كان شيئًا عابرًا لا يَلْتَفِتُ إليه الوالدانِ، بل إنَّ مِنَ الآباء من يتفطَّنُ لذلك، وإنَّه لَيحاولُ إثارتَهُ نِكايةً به، إمَّا لتقصيرِهِ، أو لسوءِ تصرُّفاتِهِ، وما هكذا تكونُ التَّربيةُ.

وإذا كان الأبُ أو الأُمُّ قد رُزِقَا محبَّةَ أَحَدِ الأولادِ لأخلاقِهِ وبرِّهِ، وحُسْنِ أَدَبِهِ[2]. فلا يَجْمُلُ بأحدِهما أو كليهما أَنْ يُظْهِرا ذلك أمامَ إخوانِهِ، إلَّا إذا أظهرا لهم مِثْلَهُ؛ حتَّى لا يُطْمِعَ فيهمُ الشَّيطانَ، فيكيدَ لهم، فَيُوقِعَ بَيْنَهُمُ العداوةَ والبَغْضاءَ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

(٢) العدلُ في المحبَّةِ القَلْبيَّةِ غَيْرُ مُستطاعٍ، فالَّذي يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ هو اللهُ الَّذي بيدِهِ قُلُوبُ العِبادِ، قالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في شَأْنِ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ (طه: ٣٩).

وقَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء: ١٢٩)، قال جمهورُ العلماءِ في تَفْسِيرِها: «إنَّ العَدْلَ الَّذي ذكر اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هنا أنَّه لا يُستطاع هُوَ العَدْلُ في المحبَّةِ والمَيْلِ الطَّبيعيِّ، وأضافوا - أيضًا - إلى العَدْلِ الَّذي لا يُسْتطَاعُ (الجماعَ)؛ لأنَّهُ ليس تَحْتَ قُدْرةِ البَشَرِ، بخلافِ العَدْلِ في الحُقُوقِ الشَّرْعيَّةِ فإنَّه مُستطاعٌ». انظر «فقه تربية الأبناء» للعدويِّ (ص٧). =

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ (يُوسُف: ٧ - ٩).

فيعقوبُ أحبَّ يُوسُفَ، ورُزِقَ حُبَّهُ، ومع ذلك فإخوةُ يوسفَ نالوا مِنْ أبيهم، ووصفوهُ بالضَّلالِ: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يُوسُف: ٨)، بل إنَّهم تآمروا على يُوسُفَ، وأرادوا قَتْلَهُ، وما ذاك إلَّا رغبةٌ في إقبالِ أبيهم عليهم، وخُلُوِّ وَجْهِهِ لهم.

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حاكيًا عنهم: ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ (يُوسُف: ٩).

على أَنَّ العَدْلَ في غَيْرِ الهِباتِ[1] ليس على الوُجُوبِ، وإنَّما على الاستحبابِ حِفاظًا على القُلُوبِ مِنَ الأَذَى، كما قيل:

= وقَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ (الأنفال: ٢٤)، وقَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (مريم: ٩٦).

وأخرج البخاريُّ (٢٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧)، واللَّفظُ له من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عَبْدًا، دعا جِبْرِيلَ، فقال: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأَحِبَّهُ، قال: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادي في السَّماءِ، فيقولُ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فأَحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماءِ، قال: ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرضِ، وإذا أَبْغَضَ عَبْدًا، دعا جِبْرِيلَ، فيقولُ: إنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضْهُ، قال: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادي في أَهْلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلانًا فأبغِضُوهُ، قال: فيبغضونه، ثُمَّ تُوضَعُ له البَغْضَاءُ في الأرضِ».

وأخرج الإمامُ مسلم في صحيحه (٢٤٣٥) من حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: وكان رسولُ الله ﷺ إذا ذَبَحَ الشَّاةَ، فيقولُ: «أَرْسِلُوا بها إلى أصدقاءِ خَدِيجةَ». قالتْ: فأغضبتُهُ يَوْمًا، فقلتُ: خَدِيجةَ؟!. فقال رسولُ الله ﷺ: «إنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّها». إلى غَيْرِ ذلك من الأدلَّةِ الَّتي تدلُّ على أَنَّ المحبَّةَ القَلْبِيَّةَ شَيْءٌ جِبِلِّيٌّ مِنْ عِنْدِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - .

(١) الجمهورُ على أنَّ العَدْلَ في الهِباتِ على الاستحبابِ، وذهب جماعةٌ مِنَ العُلماءِ إلى الوُجُوبِ، وهم: طاوُسٌ، والثَّوْريُّ، وأحمدُ، وإسحاقُ، كما عَزَاهُ إليهمُ الحافظُ في «الفتح» (٥/ ٢١٤)، وهو قول البُخاريِّ، وابْنِ حَزْمٍ، وغَيْرِهم.

=

واحْرِصْ على حِفْظِ القُلُوبِ مِنَ الأَذَى ... فَرُجُوعُهـا بَعْـدَ التَّنـافُرِ يَـصْعُبُ
إنَّ القُلُـوبَ إذا تنـافرَ وُدُّهـا ... شِبْهُ الزُّجاجـةِ كَسْرُها لا يُـشْعَبُ

ومن حقِّ الوالدَيْنِ إجلالُ وتقديرُ الوَلَدِ الصَّالحِ المُطيعِ لهما، الَّذي يُنْفِقُ عليهما، ويُحْسِنُ إليهما، لكن إذا كان في إظهارِ الحُبِّ مفسدةٌ فالإسرارُ أفضلُ، وإن كان في إظهارِ الحُبِّ مصلحةٌ: كأنْ يَقْتَدِيَ به إخوانُهُ، ويتنافسوا على حُبِّ الوالدين لهم، ويتسابقوا إلى طاعتِهما والإحسانِ إليهما ـ فإظهارُ الحبِّ أفضلُ، ويرجع ذلك إلى حكمةِ الوالدين، ومعرفتهما بنَفْسِيَّاتِ أولادِهما.

= قال ابن حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح» (٥/ ٢١٤) عند شرحه لحديث النُّعمان بن بشير المُتقدِّم: «وقد تمسَّكَ به من أوجب التَّويةَ في عَطِيَّةِ الأولادِ، وبه صرَّحَ البُخاريُّ، وهو قولُ طاوُسٍ، والثَّوْريِّ، وأحمدَ، وإسحاقَ، وقال به بعضُ المالكيَّةِ، ثُمَّ المشهورُ عند هؤلاءِ أنَّها باطلةٌ، وعَنْ أحمدَ تصحُّ، ويجبُ أن تُرْجَعَ، وعنه يجوزُ التفضيل إن كان له سببٌ: كأن يحتاجَ الولدُ لزمانتِهِ (أي: لمرضِهِ الدَّائمِ المُلازِم له)، ودينِهِ (كأن يطلبَ العِلْمَ ويتفرَّغَ له، أو لنشره بَيْنَ النَّاسِ)، أو نَحْوِ ذلك دُونَ الباقين. وقال: أبو يُوسُفَ: تجبُ التَّسويةُ إنْ قَصَدَ بالتَّفضيلِ الإضرارَ، وذهب الجمهورُ إلى أنَّ التَّسويةَ مُستحبَّةٌ، فإنْ فَضَّلَ بَعْضًا صَحَّ وكُرِهَ، واسْتُحِبَّتِ المُبادرةُ إلى التَّسويةِ أو الرجوعِ، فحملوا الأمرَ على النَّدْبِ، والنَّهْيَ على التَّنزيهِ، ومن حُجَّةِ مَنْ أوجبه أنَّه مقدمةُ الواجبِ؛ لأنَّ قَطْعَ الرَّحِمِ والعُقُوقَ مُحَرَّمانِ، فما يُؤَدِّي إليهما يكون محرَّمًا، والتفضيلُ ممَّا يُؤدِّي إليهما» ا.هـ .

قلتُ: إذا كانتِ الهِباتُ تُؤَدِّي إلى قطيعةِ الرَّحِمِ والعُقُوقِ، فكيف بالوصيَّةِ؟!، وهي مُحَرَّمةٌ بإجماعِ العُلَماءِ، كما نقل ذلك القُرْطُبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لا شكَّ أنها تُؤدِّي إلى ما هو شرٌّ من ذلك، إنَّها تُؤَدِّي إلى جَلْبِ قطيعةِ الرَّحِمِ والعُقُوقِ والعداوةِ والبغضاءِ، وإيجادِ الضَّغائنِ بَيْنَ الأقاربِ، وممَّا يدلُّ على تحريمِ الوصيَّةِ ما أخرجه أبو داوُدَ (٢٨٧٠)، والتِّرْمِذيُّ (٢١٢٠) بسندٍ حسنٍ صحيحٍ، قاله الألبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٢٤٩٤) من حديث أبي أُمامةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ أَعْطَى كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فلا وَصِيَّةَ لوارثٍ**».

٩ ـ تجاهلُ البناتِ:

البناتُ بحاجةٍ إلى دِفْءِ المشاعرِ أكثرَ من الأبناءِ؛ فهُنَّ يَأْخُذْنَ لِيُعْطِينَ، ومن طبيعةِ الأُنوثةِ العاطفةُ واللِّينُ، ومن طبيعةِ الذُّكورةِ الشِّدَّةُ والقَسْوَةُ، ومِنْ هنا كانتِ البِنْتُ أَلْيَنَ عَرِيكةً[1]، وأَرَقَّ قَلْبًا، وأَسْلَسَ قِيادةً.

وهي ـ أيضًا ـ أشدُّ عَطْفًا وحُنُوًا على أُمِّها وأبيها، وأكثرُ رَأْفةً ورحمةً بإخوانِها، وأرحمُ قَلْبًا للنَّاسِ، فمتى حُرِمَتْ مِنْ دِفْءِ المشاعرِ داخِلَ البَيْتِ أَثَّرَ ذلك على طَبْعِها وأخلاقِها أَيَّما تأثيرٍ، ورُبَّما أَثَّر ذلك على حياتِها الزَّوجيَّةِ، فَطَبْعُها غَلِيظٌ، وأخلاقُها جافَّةٌ، تثورُ لأَتْفَهِ الأسبابِ، ورُبَّما أَثَّر ذلك على أولادِها؛ لأنَّ فاقدَ الشَّيءِ لا يُعْطِيهِ.

فعلى الوالدين أَنْ يتَّقيا اللهَ، وأن يُحاولا إشباعَ البناتِ عاطفيًا ونَفْسيًّا بالحُبِّ والحنانِ، والرَّحمةِ والصَّبْرِ الجميلِ، فإنَّ البناتِ حَسَناتٌ، كما أنَّ الأولادَ نِعَمٌ، واللهُ ـ سُبْحَانَهُ وتعالى ـ يُجازي على الحَسَناتِ، ويُحاسبُ على النِّعَمِ.

١٠ ـ التسخُّط مِنَ البناتِ:

ولا ينبغي للرَّجلِ أَنْ يتسخَّطَ من البناتِ؛ فإنَّ ذلك من أخلاقِ أَهْلِ الجاهليَّةِ، قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ـ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

(النحل: ٥٨، ٥٩).

وعلينا ـ أيضًا ـ الرِّضا برزْقِ الله القائلِ: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ (الشورى: ٤٩).

---

(١) العريكة: الطَّبيعة.

والإنسانُ لا يَدْري أين يكونُ الخيرُ، فلعلَّ الخَيْرَ كُلَّ الخَيْرِ في البناتِ؛ قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ (النساء: ١١)، وقَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٦).

ورُبَّما كانتِ البِنْتُ سببًا لسعادةِ والديها وأقارِبها في الدُّنيا والآخرةِ، ورُبَّما كان الوَلَدُ سببًا في تَعاسةِ آبائِهِ وشقاوتِهم، والعِياذُ بالله[1]، قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ (الكهف: ٨٠)، فهذا الغلام لو عاش لأرهق أبويه طُغْيانًا وكفرًا.

وعن عائشةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: جاءتْني مسكينةٌ تحملُ ابنتينِ لها، فأطعمتُها ثلاثَ تَمَراتٍ، فأعطتْ كُلَّ واحدةٍ مِنْهُما تَمْرةً، ورفعتْ إلى فِيها تَمْرةً لتأكُلَها، فاستطعمَتْها ابنتاها، فشقَّتِ التَّمْرةَ الَّتي كانتْ تُرِيدُ أَنْ تأْكُلَها بَيْنَهُما، فأعجبني شَأْنُها، فذكرتُ الَّذي صَنَعَتْ لرسولِ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فقال: **«إنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ لها بها الجَنَّةَ، أو أعتقَها بها مِنَ النَّارِ»**[2].

وعن أنسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : **«مَنْ عالَ[3] جاريتَيْنِ حتَّى تَبْلُغا جاء يَوْمَ القيامةِ أنا وَهُوَ»**. وضَمَّ أصابِعَهُ[4].

---

(١) انظر «فقه تربية الأولاد» للعدويِّ (ص٣٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٥٩٩٥)، ومسلم (٢٦٣٠)، واللَّفظُ له.

(٣) عَالَ: أي قام عليهما بالنَّفقةِ والتَّربيةِ والصبر ونَحْوِ ذلك.

(٤) رواه مسلم (٢٦٣١).

وعن عُقْبَةَ بْنِ عامرٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**مَنْ كان لَهُ ثلاثُ بناتٍ، فصبر عليهِنَّ، فأطعمهُنَّ وسقاهُنَّ وكساهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ ـ كُنَّ له حِجابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ القيامةِ**»(١).

وعن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**مَنْ كان لَهُ ثلاثُ بناتٍ، يُؤَوِّيهِنَّ ويَكْفِيهِنَّ ويَرْحَمُهُنَّ ـ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ البَتَّةَ**». فقال رجلٌ مِنَ القَوْمِ: واثنتَيْنِ يا رسولَ الله؟. قال: «**واثْنَتَيْنِ**»(٢).

فهذِهِ بَعْضُ فضائلِ تربيةِ البناتِ، هل تجدُ مِثْلَها للأبناء؟!، فإذا لم تجدْ فاعلمْ أَنَّ في البناتِ قد يكونُ صلاحُ دِينِكَ، فارضَ بما قَسَمَ اللهُ لك، وارضَ برِزْقِ اللهِ؛ فلعلَّ البناتِ أقربُ لك نَفْعًا في الدُّنيا والآخرةِ.

قال منصورٌ الفقيهُ:

أُحِــبُّ البنــاتِ، وحُــبُّ البَنَــا ... تِ فَرْضٌ عـلى كُـلِّ نَفْـسٍ كَرِيمَـةْ
لأنَّ شُــعَيْبًا مِــنْ أَجْــلِ البَنَــا ... تِ أَخْدَمَــهُ اللهُ مُوســى كَلِيمَــهْ

وقَدْ جُبِلَ النَّبيُّ على الحُنُوِّ والشَّفَقةِ على البناتِ، وقد تقدَّم كيف كان النَّبيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يُرَحِّبُ بابنتِهِ فاطمةَ، ويُقَبِّلُها ويُجْلِسُها في مكانِهِ، وحَمْلُهُ لأُمامةَ بِنْتِ ابنتِهِ في الصَّلاةِ، ومُلاطفتُهُ لأُمِّ خالدِ بنتِ خالدٍ.

وعَنْ عائشةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: أقبلتْ فاطمةُ تمشي، كأنَّ مِشْيَتَها مَشْيُ النَّبيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، فقال النَّبيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**مَرْحبًا بابْنَتي**». ثُمَّ أجلسها عن يَمِينِهِ ـ أو عَنْ

---

(١) «**صحيح**»: أخرجه أحمدُ (٤/ ١٥٤)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧٦)، وابْنُ ماجَهْ (٣٦٦٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٩٤).

(٢) «حسن»: أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧٨)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٠٢٦).

شِمالِهِ -، ثُمَّ أَسَرَّ إليها حديثًا فَبَكَتْ، فقلتُ لها: لِمَ تَبْكِينَ؟، ثُمَّ أسرَّ لها حديثًا فَضَحِكَتْ: فقلتُ: ما رأيتُ كاليوم فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فسألتُها عمَّا قال، فقالتْ: ما كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رسولِ الله - ﷺ - حتَّى قُبِضَ النَّبيُّ - ﷺ - فسألتُها، فقالتْ: أَسَرَّ إليَّ: «إنَّ جِبْرِيلَ كان يُعارِضُني[1] القُرآنَ كُلَّ سنةٍ مَرَّةً، وإنَّه عارَضَني العَامَ مرَّتَيْنِ، ولا أُرَاهُ إلَّا حَضَرَ أَجَلي، وإنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتي لَحَاقًا بي». فبكيتُ، فقال: «أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُوني سَيِّدةَ نِسَاءِ أَهْلِ الجنَّةِ، أو نِسَاءِ المُؤْمنينَ». فَضَحِكْتُ لذلك[2].

وأمَّا عَطْفُ البناتِ على أُمِّهِنَّ وأبيهِنَّ وأَهْلِ بيتِهِنَّ فصفحاتُ التَّاريخ تُؤَيِّدُ ما أَوْدَعَ اللهُ فيهِنَّ من عاطفةٍ نبيلةٍ، وإليك طَرَفًا مِنْ ذلك:

دخل عَمْرُو بْنُ العاصِ على مُعاويةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وعِنْدَهُ ابنتُهُ عائشةُ، فقال: مَنْ هذِهِ يا أميرَ المُؤْمنين؟. قال: تُفَّاحةُ القَلْبِ. قال: انْبِذْها[3] عنك؟. قال: ولِمَ؟. قال: لأنَّهُنَّ يَلِدْنَ الأعداءَ، ويُقَرِّبْنَ البُعَدَاءَ، ويُورِثْنَ الضَّغائِنَ[4]. فقال: لا تَقُلْ ذلك يا عَمْرُو، فوالله، ما مَرَّضَ المَرْضَى، ولا نَدَبَ المَوْتَى[5]، ولا أَعَانَ على الأَحْزَانِ مِثْلُهُنَّ، وإنَّك لواجِدٌ خالًا قد نفعه بنو أُخْتِهِ. فقال له عَمْرٌو: ما أَعْلَمُكَ إلَّا حبَّبْتَهُنَّ لي[6].

ومن طريفِ ما يُذْكَرُ: أَنَّ مُعاويةَ بْنِ أبي سُفْيانَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أراد قَتْلَ أَحَدِ الخارجين عليه، فانتهى الخَبَرُ إلى ابنةٍ له صغيرةٍ، فجاءتْ حتَّى قامتْ بَيْنَ يَدَيْ مُعاويةَ، وأَنْشَأَتْ تقولُ:

---

(١) المعارضة: المقابلة، وهي مفاعلة من الجانبين، جبريلُ يقرأ والنَّبيُّ - ﷺ - يستمع، ثُمَّ يقرأ النَّبيُّ - ﷺ - وجبريل يستمع.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٦٢٣ - ٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٣) انْبِذْها: أَيْ أَلْقِها، وبابُهُ ضَرَبَ.

(٤) الضغائن: الأحقاد، واحدُها ضغينة.

(٥) نَدَبَ الميِّتَ: بكى عليه، وعدَّد محاسنَهُ، وبابُهُ نَصَرَ.

(٦) «عيون الأخبار» (١/ ٧٣).

مُعَاوِيَ[١]، لا تقتُلْ أبًا كان مُشْفِقًا ... علينا، فَنَبْقَى ـ إنْ فَقَدْنَاهُ ـ شُرَّدا
وتُؤَتِّم أولادًا صغارًا بقَتْلِهِ ... وإنْ تَعْفُ عَنْهُ كُنْتَ بالعَفْوِ أَسْعَدا
مُعَاوِيَ، هَبْهُ اليَوْمَ لله وَحْدَهُ ... وللباكياتِ الصَّارخاتِ تَلَدُّدا[٢]
مُعَاوِيَ، مِنْكَ العِلْمُ والحِلْمُ والتُّقَى ... وكُنْتَ قَدِيمًا ـ يابْنَ حَرْبٍ ـ مُسَدَّدا

فعجب مُعاويةُ وأصحابُهُ منها، ودَمَعَتْ عَيْنَاهُ، ووهبه لها[٣].

وعاش يَزِيدُ بْنُ زَبِيبَةَ الشَّيبانيُّ دَهْرًا طويلًا، حتَّى لَحِقَ زَمَنَ الحَجَّاجِ، وسعى مَعَ ابْنِ الأَشْعَثِ، فَظَفِرَ به الحجَّاجُ، وورد عليه كتابُ عَبْدِ الملكِ بْنِ مَرْوَانَ يأْمُرُهُ بقتلِهِ، فلمَّا دعا به قال: أيُّها الأميرُ، اتَّقِ اللهَ بسَبْعَ عَشْرَةَ نِسْوَةً ـ أو تِسْعَ عَشْرَةَ نِسْوَةً ـ ليس لهُنَّ قَيِّمٌ غَيْرِي.

فأمر الحجَّاجُ بإحضارِهنَّ، فلمَّا حَضَرْنَ، سَأَلَهُنَّ الحجَّاجُ عَنْ شَأْنِهِنَّ، فما مِنْهُنَّ امرأةٌ إلَّا وهي تقولُ: اقتُلْني ودَعْهُ.

فقامتْ بُنَيَّةٌ له صغيرةٌ، فبكَتْ بُكاءً حارًّا، مُوْجِعًا مُحْرِقًا، وأَنْشَأَتْ تقولُ:

أَحَجَّاجُ، إمَّا أَنْ تَجُودَ بِنِعْمَةٍ ... علينا، وإمَّا أَنْ تَقْتُلَنَا مَعَا
أَحَجَّاجُ، كَمْ تَفْجَعُ به إنْ قَتَلْتَهُ ... ثلاثًا وعَشْرًا واثْنَتَيْنِ وأَرْبَعَا
فَمَنْ رَجُلٌ دانٍ يَقُومُ مَقَامَهُ ... علينا، فهلَّا لا تَزِدْنا تَضَعْضُعا[٤]

فرحمه الحجَّاجُ، وكتب إلى عَبْدِ المَلِكِ يَسْأَلُهُ العَفْوَ عنه، فأجابه إلى ذلك وأطلقه[٥].

---

(١) معاوي: مُرَخَّم مُعاوية.
(٢) التَّلَدُّد: التلفُّت يمينًا وشمالًا.
(٣) «المحاسن والمساوئ» (ص٥٦١).
(٤) التَّضعضع: الذُّلُّ والافتقار.
(٥) «المحاسن والمساوئ» (ص٥٦١).

جفافُ المشاعر في الحياةِ الزَّوْجيَّة

الحياةُ الزَّوجيَّةُ مِنْ أجلِّ النِّعَمِ وأعظمِها؛ فعلينا أَنْ نَحُوطَها بسِياجٍ مِنَ الرِّعايةِ، والمودَّةِ والرَّحمةِ وحُسْنِ المُعاشرةِ، ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (النِّسَاء: ١٩).

قال ابن كثيرٍ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: طيِّبوا أقوالَكم لَهُنَّ، وحَسِّنوا أفعالَكُم وهَيْئَتكم بحَسْبِ قُدْرَتِكم، كما تُحِبُّ ذلك منها، فافعل أنت بها مِثْلَهُ، كما قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البَقَرَة: ٢٢٨)».

وعن عائشةَ ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**خَيْرُكُم خَيْرُكم لأَهْلِهِ، وأنا خَيْرُكم لأَهْلي**»[1].

وكما أَنَّ البُيُوتَ تقومُ على المودَّةِ والرحمةِ ـ وذلك فَضْلٌ من الله، يتفضَّلُ به على عبادِهِ، قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الرُّوم: ٢١) ـ فإنَّ دمارَ البيوتِ يَبْدَأُ مِنْ جفافِ المشاعرِ نتيجةَ الذُّنوبِ والمعاصي، وضَعْفِ الإيمانِ، قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشُّورَىٰ: ٣٠)، ولجفاف المشاعر في الحياةِ الزَّوجيَّةِ صورٌ كثيرةٌ، فمن جِهَةِ الزَّوْجِ:

صورٌ مِنْ جفافِ مشاعر الزَّوج مَعَ زوجتِهِ:

١ ـ قِلَّةُ الصَّبْرِ على الزَّوجةِ وغضِّ الطَّرْفِ عَنْ زَلَّاتِها:

من الناس من جفَّتْ مشاعرُهُ، فيعاملُ زوجتَهُ مُعاملةَ الرِّجالِ، متناسيًا أَنَّ الضَّعْفَ مُلازِمٌ للمرأةِ؛ فهي مخلوقٌ ضَعيفٌ، وجِنْسٌ لَطِيفٌ تُحِبُّهُ النُّفوسُ، وتتعلَّقُ

(١) «صحيح»: أخرجه التِّرْمذيُّ (٤١٦٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٨٥).

به، وتأْنَسُ إليه، وهذا المخلوقُ العجيبُ يَحمِلُ مِنَ المشاعِرِ الدَّافقةِ، والعواطفِ الكامنةِ، والأحاسيسِ الدَّافئةِ، والحنانِ المُتجدِّدِ ممَّا يجعلُ الحياةَ جميلةً بوجودِهِ.

فمن أَجْلِ هذا وغَيْرِهِ أُمِرَ الرِّجالُ بالوصيَّةِ بالنِّساءِ والصَّبْرِ عليهِنَّ، فعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: «**استوصوا بالنساءِ خَيْرًا؛ فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وإنَّ أَعْوَجَ ما في الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فاستوصُوا بالنِّساءِ**»(١).

والمعنى: أنَّ المرأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وهو إشارةٌ إلى خَلْقِ حَوَّاءَ كان مِنْ ضِلَعِ آدَمَ، وقولُهُ: «**وإنَّ أَعْوَجَ ما في الضِّلَعِ أَعْلاهُ**»، أي: أنَّ أَعْوَجَ ما في المَرْأَةِ لِسانُها، وفائدةُ هذِهِ المقدِّمة: أنَّ المرأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ أَعْوَجَ؛ فلا يُنْكَرُ اعْوِجَاجُها، أو الإشارةُ إلى أنَّها لا تقبلُ التقويمَ كما أنَّ الضِّلَعَ لا يَقْبَلُهُ(٢).

وقولُهُ: «**فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ**»، أَيْ: إنْ أَصْرَرْتَ على تقويمِ أَخْلاقِها، فإنَّ ذلك لن يستقيمَ لك بحالٍ، وإصرارُكَ يُفْضِي إلى كَسْرِها، وهو طلاقُها، ويُؤَيِّدُهُ ما جاء في روايةِ مسلمٍ: «**إنَّ المرأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لك على طريقةٍ، فإنِ استمتعتَ بها استمتعتَ بها وبها عِوَجٌ، وإنْ ذَهَبْتَ تُقيمُها كَسَرْتَها، وكَسْرُها طَلاقُها**»(٣).

قال **النَّوويُّ** - رَحِمَهُ اللهُ - : «وفي هذا الحديثِ مُلاطفةُ النِّساءِ، والإحسانُ إليهِنَّ، والصَّبْرُ على عِوَجِ أخلاقِهِنَّ، واحتمالُ ضَعْفِ عُقُولِهِنَّ، وكراهةُ طلاقِهِنَّ بلا سَبَبٍ، وأنَّهُ لا يُطْمَعُ باستقامتِها، واللهُ أَعْلَمُ»(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).
(٢) «فتح الباري» (٧/ ١٢).
(٣) رواه مسلم (١٤٦٨).
(٤) «شرح النَّوويِّ على مسلم» عند شرحه للحديث (٤٦٨).

ولْتَنْظُرْ إلى صَبْرِ الأُسْوَةِ الحَسَنةِ والرَّحمةِ المُهداةِ ـ ﷺ ـ على نسائِهِ، فعن أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: كان النَّبيُّ ـ ﷺ ـ عِنْدَ بَعْضِ نسائِهِ، فأَرْسَلَتْ إحْدَى أُمَّهاتِ المُؤْمنين بصَحْفَةٍ فيها طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ الَّتي النَّبيُّ ـ ﷺ ـ في بَيْتِها يَدَ الخادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ، فانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فيها الطَّعامَ الَّذي كانَ في الصَّحْفةِ، ويَقُولُ: «**غارَتْ أُمُّكُمْ**». ثُمَّ حَبَسَ الخادِمَ، حَتَّى أَتَى بصَحْفةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتي هُوَ في بَيْتِها، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ إلى الَّتي كُسِرَتْ صَحْفَتُها، وأَمْسَكَ المَكْسُورةَ في بَيْتِ الَّتي كَسَرَتْ[١].

هكذا عالج النَّبيُّ ـ ﷺ ـ الموقفَ بحِكْمةٍ وهُدُوءٍ، فإذا رَأَى أَحَدُنا مِنْ زَوْجِهِ بَعْضَ ما لا يُرْضِيهِ ممَّا لا يَمَسُّ العِرْضَ والشَّرَفَ، فعليه أَنْ يَذْكُرَ إلى جانبِ ذلك صفاتٍ أُخْرَى تُعْجِبُهُ منها.

وإلى هـذا أَرْشَـدَنا النَّبـيُّ ـ ﷺ ـ فـعـن أبـي هُـرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قـال: قـال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «**لا يَفْرَكْ[٢] مُؤْمِنٌ مُؤْمِنةً؛ إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا، رَضِيَ مِنْها خُلُقًا آخَرَ**»[٣].

قال **النَّوويُّ** ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ : «**ينبغي أَلَّا يبْغِضها؛ لأنَّه إنْ وَجَدَ فيها خُلُقًا يُكْرَهُ، وَجَدَ فيها خُلُقًا مَرْضِيًّا، بأَنْ تكُونَ شَرِسةَ الخُلُقِ، لكنَّها دَيِّنةٌ، أو جميلةٌ، أو عَفِيفةٌ، أو رفيقةٌ به، أو نَحْوُ ذلك**»[٤].

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٢٢٥).

(٢) لا يَفْرَكْ: أي لا يُبْغِضْ.

(٣) رواه مسلم (١٤٦٩).

(٤) «شرح النَّوويِّ» للحديث (١٤٦٩).

للصَّبرِ حُدُودٌ: إنَّه لا يَعْني الصَّبرُ على المرأةِ أَنْ نَتْرُكَ لها الحَبْلَ على الغارِبِ عِنْدَما يصدرُ منها خطأٌ لا يُمْكِنُ السُّكُوتُ عنه، لكن تُوَجَّهُ بالَّتي هي أَحْسَنُ للَّتي هِي أَقْوَمُ[1].

فعن عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قالتْ: حَكَيْتُ للنَّبيِّ - ﷺ - رَجُلًا[2]، فقال: «**ما يَسُرُّني أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا وأَنَّ لي كَذَا وكَذَا**». قالَ: فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّ صَفِيَّةَ امرأةٌ وقالتْ بيدِها هكذا (كأَنَّها تَعْني قَصِيرةً)، فقال: «**لقَدْ مَزَجْتِ بكَلِمَةٍ لو مُزِجَ بها ماءُ البَحْرِ لَمُزِجَ**»[3].

وعن حديثِ عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قالتْ: أَتَيْتُ النَّبيَّ - ﷺ - بخَزِيرةٍ[4] قَدْ طبختُها له، فَقُلْتُ لسَوْدَةَ - والنَّبيُّ - ﷺ - بَيْني وبَيْنَها -: كُلي، فأَبَتْ، فَقُلْتُ: لَتَأْكُلِنَّ أَوْ لأُلَطِّخَنَّ وَجْهَكِ، فأَبَتْ فوضعتُ يدي في الخَزِيرةِ، فطَلَيْتُ وَجْهَهَا، فَضَحِكَ النَّبيُّ - ﷺ -، فَوَضَعَ بيدِهِ لها، وقال لها: «**لطِّخي وَجْهَها**». فَضَحِكَ النَّبيُّ - ﷺ - فَمَرَّ عُمَرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، فقال: يا عَبْدَ الله، يا عَبْدَ الله، فظنَّ أَنَّه سيدخلُ، فقال: «**قُوما فاغْسِلا وُجُوهَكما**». فقالتْ عائشةُ: فما زِلْتُ أَهَابُ عُمَرَ لهَيْبَةِ رَسُولِ الله - ﷺ -[5].

---

(١) يجبُ بَذْلُ النَّصيحةِ للمرأةِ مَعَ اجتنابِ النَّصيحةِ وَقْتَ غَضَبِ أَيٍّ منهما، فإذا كانتِ المرأةُ غَضْبَى فالنَّصيحةُ قَدْ لا تُؤْتي أُكُلَها، وقد لا تجدُ طريقَها إلى قَلْبِها، ورُبَّما خالتِ النَّصيحةَ تَسْفيهًا لها، وما يقالُ للرَّجُلِ يُقالُ للمرأةِ، والأَصْلُ في ذلك ما جاء في «صحيح البخاريِّ» (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧) من حديثِ أبي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا يَقْضِيَنَّ القاضي بَيْنَ اثْنَيْنِ وهُوَ غَضْبَانُ**».
وما ذاك إلَّا لأنَّ الغَضَبَ يُحْدِثُ نَوْعًا مِنَ الإغلاقِ على العَقْلِ، وانظرْ إلى تصرُّفِ النَّبيِّ ﷺ مع إحدى نسائِهِ الَّتي كَسَرَتِ الصَّحْفَةَ وهي غَضْبَى، فلم ينصحْ لها وقتَ غَضَبِها؛ لكنَّه قد نصح لها بَعْدَ ذلك، كما في روايةٍ أُخرى، وانظر - أيضًا - إلى الحديثِ الآتي بَعْدَ هذا، حيثُ نصح عائشةَ بتَرْكِ الغِيْبَةِ، ولم تكن حينئذٍ في حالةِ غَضَبٍ، كما يُفْهَمُ ذلك مِنْ سِياقِ الحديثِ.

(٢) أي: فعلتُ مِثْلَ حركتِهِ التي يكرهُها.

(٣) «صحيح»: أخرجه التِّرْمذيُّ (٢٦٣٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التِّرْمذيِّ» (٢٠٣٤).

(٤) الخزيرة: مَرَقة من بُلالةِ النُّخالةِ.

(٥) «حسن»: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٤٤٩).

٢ ـ الإكثارُ من عتابِ الزَّوجةِ:

عتابُ الزَّوجةِ في كُلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ دليلٌ على نُضُوبِ المشاعرِ، كما أنَّ التَّغاضي والتغافل دليلٌ على سُمُوِّ النَّفْسِ وأَرْيَحِيَّتِها.

فحريٌّ بالرَّجُلِ النَّبيلِ تجنُّبُ العِتابِ؛ فَرُبَّ شَرٍّ هاج أَوَّلُهُ العِتابُ، وإنْ كان لا بُدَّ فَلْيَكُنِ العِتابُ رَقِيقًا، دُونَ أَنْ يُكَرَّرَ ذلك على مَسْمَعِ الزَّوجةِ، وليكن ـ أيضًا ـ في بَعْضِ الأمورِ الَّتي تستحقُّ العِتابَ دُونَ بَعْضٍ.

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ (التحريم: ٣).

فالرَّسولُ ـ ﷺ ـ حدَّثَ بَعْضَ أزواجِهِ بحديثٍ، وأوصاها أَلَّا تُخْبِرَ به أحدًا، فذهبتْ وأخبرتْ به، فأطلع اللهُ نبيَّهُ ـ ﷺ ـ على ما كان مِنْ أَمْرِها، فلمَّا جاء العِتَابُ، ما عاتبها رسولُ الله ـ ﷺ ـ، بل كما قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾.

وهذا من كَرَمِهِ وحِلْمِهِ وعَفْوِهِ، وحُسْنِ مُعاشَرتِهِ لأَهْلِهِ، وَلِيَقْتَدِيَ به النَّاسُ من بَعْدِهِ ـ ﷺ ـ.

مِنَ اليَوْمِ تَصالَحْنا، ونَطْوي ما جَرَى مِنَّا

فلا كان ولا صار، ولا قُلْتُمْ ولا قُلْنا

فَقَدْ قيل لنا عَنْكُم كما قِيلَ لَكُم عَنَّا

فإنْ كان لا بُدَّ مِنَ العِتابِ فَبِالْحُسْنَى

٣ ـ ضَعْفُ الغَيْرةِ على الزَّوجةِ:

الغَيْرةُ مُشتقَّةٌ مِنْ تغيُّرِ القَلْبِ وهَيَجانِ الغَضَبِ بسببِ المُشاركةِ فيما به الاختصاصُ، وأشدُّ ما يكونُ ذلك بيْنَ الزَّوْجَيْنِ[١].

وهي عاطفةٌ ساميةٌ، وخُلُقٌ حَميدٌ، ومَظْهَرٌ من مظاهرِ الرُّجولةِ، ودليلٌ على تدفُّقِ المشاعرِ الزَّوجيَّةِ، وتَدُلُّ ـ أيضًا ـ على قُوَّةِ الإيمانِ ورُسُوخِهِ في القَلْبِ، فعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: **«المُؤْمِنُ يَغَارُ، واللهُ أَشَدُّ غَيْرًا»**[٢].

وعَنِ المُغِيرةِ بْنِ شُعْبةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ: لَوْ رأيتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي، لضربتُهُ بالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ[٣]. فبلغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: **«أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟! واللهِ، لأنا أغيرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيرُ منِّي، ومِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ، ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ»**[٤].

وقد تكونُ الغَيْرةُ في النِّساءِ أَشَدَّ؛ فعن عائشةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ خَرَجَ مِنْ عِنْدِها لَيْلًا، قالتْ: فَغِرْتُ عليه، فجاء فَرَأَى ما أَصْنَعُ، فقال: **«ما لَكِ يا عائشةُ؟! أَغِرْتِ؟»**. فقلتُ: وما لي لا يَغَارُ مِثْلي على مِثْلِكَ؟![٥].

وعنها ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: افتقدتُ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ[٦] ذاتَ ليلةٍ، فظننتُ أنَّه ذهب إلى بَعْضِ نسائِهِ، فَتَحَسَّسْتُ[٧] ثُمَّ رَجَعْتُ، فإذا هو راكعٌ أو ساجدٌ يقولُ:

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٣٢٠)، و «التعريفات» للجُرْجانيِّ (ص١٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٧٦١).

(٣) أي: غَيْرَ ضاربٍ بصُفْحِ السَّيْفِ بل بحَدِّهِ، وصُفْحُ السَّيفِ ـ بالضَّمِّ ـ: عُرْضُهُ.

(٤) رواه البخاريُّ (٧٤١٦)، واللَّفظُ له، ومسلم (١٤٩٩).

(٥) رواه مسلم (٢٨١٥).

(٦) افتقدت: أي لم أَجِدْهُ.

(٧) فتحسستُ: أي تطلبته.

«سُبْحَانَكَ وبحَمْدِكَ، لا إلهَ إلَّا أنت». فقلتُ: بأبي أَنْتَ وأمِّي، إنِّي لفي شَأْنٍ[١]، وإنَّك لفي آخَرَ[٢] [٣].

وعنها ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: اسْتَأْذَنَتْ هالةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فعرف استئذانَ خَدِيجَةَ[٤]، فارتاح لذلك[٥]، فقال: «اللّهُمَّ، هالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ». فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: وما تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عجائزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ[٦]، هَلَكَتْ في الدَّهْرِ، فأبدلك اللهُ خيرًا منها[٧].

وعن عائشةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا خَرَجَ أَقرَعَ بَيْنَ نسائِهِ، فطارتِ القُرْعَةُ على عائشةَ وحَفْصَةَ، فَخَرَجَتَا مَعَهُ جَمِيعًا، وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا كان باللَّيل، سار مَعَ عائشةَ يتحدَّثُ معها، فقالتْ حَفْصَةُ لعائشةَ: أَلَا تَرْكَبِينَ اللَّيلةَ بَعِيري، وأركب بَعِيرَك، فتنظرين وأنظُرُ؟. قالتْ: بَلَى.

فركبتْ عائشةُ على بَعِيرِ حَفْصَةَ، ورَكِبَتْ حَفْصَةُ على بَعِيرِ عائشةَ، فجاء رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى جَمَلِ عائشةَ، وعليه حَفْصَةُ، فسَلَّمَ ثُمَّ سار مَعَها، حتَّى نزلوا،

---

(١) إنِّي لفي شَأْنٍ: تَعْني أَمْرَ الغَيْرةِ.

(٢) وإنَّك لفي آخَرَ: تعني من نَبْذِ مُتعةِ الدُّنيا، والإقبالِ على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

(٣) رواه مسلم (٤٨٥).

(٤) فعرف استئذان خديجة: لشبه صوتها بصوت أختها، فتذكَّر خديجةَ بذلك.

(٥) فارتاح لذلك: أي هَشَّ لمجيئها وسُرَّ بها؛ لتذكُّرِهِ بها خديجةَ وأيَّامَها، وفي هذا دليلٌ لحسنِ العَهْدِ، وحِفْظِ الوُدِّ، ورعايةُ حُرْمةِ الصاحبِ والعشيرِ في حياتِهِ ووفاتِهِ، وإكرامُ أَهْلِ ذلِكَ الصاحبِ.

(٦) الشِّدْق ـ بالكسر ويفتح ـ: جانب الفم من باطن الخدِّ، والجمع أشداق، وشدوق. وقولها: «حمراء الشِّدْقَيْنِ»: كناية عن سقوطِ أسنانها من الكِبَرِ، حتَّى لا يبقى داخلَ فمها إلَّا اللَّحْمُ الأحمرُ من اللِّثةِ وغَيْرِها.

(٧) رواه البخاريُّ (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧)، واللَّفظُ له.

فافتقدتْهُ عائشةُ فَغارَتْ، فلمَّا نزلوا، جَعَلَتْ تجعلُ رِجْلَهَا بَيْنَ الإذْخِرِ[١]، وتقولُ: يا ربِّ، سَلِّطْ عليَّ عَقْرَبًا أو حَيَّةً تَلْدَغُنِي، رَسُولُكَ، ولا أستطيعُ أَنْ أَقُولَ له شيئًا[٢].

وعنها - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قالتْ: كنتُ أغارُ اللَّاتي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لرسولِ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأقولُ: وَتَهَبُ المرأةُ نَفْسَها؟، فَلَمَّا أنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ **تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ** ﴾ (الأحزاب: ٥١)، قالتْ: قُلْتُ: واللهِ، ما أَرَى رَبَّكَ إلَّا يُسارِعُ لك في هَواكَ[٣][٤].

والغَيْرَةُ أساسُ بقاءِ المشاعرِ حَيَّةً مُتَدَفِّقةً؛ وتنقسمُ إلى قسمين:

١- **محمودة**: وهي إذا كانتْ في محلِّها.

٢- مذمومة: وهي الَّتي تكونُ في غَيْرِ مَحَلِّها.

ودليلُ ذلك حديثُ جابرِ بْنِ عَتِيكٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**مِنَ الغَيْرَةِ ما يُحِبُّ اللهُ، ومنها ما يُبْغِضُ اللهُ؛ فأمَّا الَّتي يُحِبُّها اللهُ فالغَيْرَةُ في الرِّيبةِ، وأمَّا الَّتي يُبْغِضُها اللهُ فالغَيْرَةُ في غَيْرِ رِيبةٍ**»[٥].

وقَدْ تتدفَّقُ مشاعرُ الرَّجلِ نَحْوَ زَوْجَتِهِ؛ فيغارُ حتَّى مِنْ ذِكْرِ اسْمِها، فَيَكْنِي عنها بالبيتِ، أو الأهلِ، أو بَعْضِ النَّاسِ، حتَّى لا يُعَرِّضَها لألسنةِ السوءِ، وهذا لا يُلامُ عليه.

---

(١) الإذخر: نبات معروف، توجدُ فيها الهَوامُّ غالبًا في البَرِيَّة.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٢١١)، ومسلم (٢٤٤٥)، واللَّفظُ له.

(٣) ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك: معناهُ يُخَفِّفُ عنك، ويُوسِّع في الأمورِ، ولهذا خيَّرك.

(٤) رواه البخاريُّ (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤)، واللَّفظُ له.

(٥) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٢٦٥٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٩٠٥).

وأُنَــزِّهُ اسْــمَكِ أَنْ تَمُــرَّ حُرُوفُــهُ ... مِــنْ غَــيْرَتي بمَــسامِعِ الجُــلَّاسِ[1]
فـأقولُ: بَعْضُ النَّـاسِ عَنْكِ كِنايـةً ... خَوْفَ الوُشَاةِ[2]، وأَنْتِ كُـلُّ النَّاسِ

٤ ـ البُخْلُ على الزَّوجةِ:

لجفافِ المشاعرِ والتَّقتيرِ على الأَهْلِ والأولادِ نَسَبٌ، فأينما وُجِدَ أَحَدُهما وُجِدَ الآخَرُ، فعلى المَرْءِ أَنْ يُنْفِقَ على أَهْلِهِ بحُدُودِ الطَّاقةِ وبقَدْرِ الاستطاعةِ؛ فإنَّ البُخْلَ من شَرِّ خِصالِ الرِّجالِ، فما مِنْ بُخْلٍ إلَّا وَرَاءَهُ حَقٌّ مُضَيَّعٌ.

وَلْيَعْلَمِ الزَّوْجُ أنَّ المالَ الَّذي رزقه اللهُ إنَّما هو رِزْقُهُ ومَنْ لَهُ عليهم وِلايةٌ، ولو شاء اللهُ لَسَلَبَهُ منه، ولجعل المِنَّةَ لهم عليه، قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ (الأحزاب : ٥٠).

وقَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ (الطلاق : ٧).

وعن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: أنَّ رسولَ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ خَطَبَ النَّاسَ، فقال: «**اتَّقُوا اللهَ في النِّساءِ، فإنَّهُنَّ عَوانٍ[3] عِنْدَكُم، أَخَذْتُمُوهُنَّ بأمانةِ اللهِ، واسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بكلمةِ اللهِ، ولهُنَّ عليكم رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمعروفِ**»[4].

بل إنَّ الإسلامَ أَذِنَ للزَّوجةِ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مالِ زَوْجِها ما يَكْفِيها وَوَلَدِها بالمعروفِ، ولا سِيَّما إذا كان الزَّوْجُ بَخِيلًا عليها؛ فعن عائشةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: قالتْ هِندُ أُمُّ مُعاويةَ لرسولِ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: إنَّ أبا سُفْيَانَ رجلٌ شَحِيحٌ[5]، فَهَلْ عليَّ جُناحٌ[6] أَنْ آخُذَ مِنْ مَالِهِ سِرًّا. قالَ: «**خُذي أَنْتِ وبَنُوكِ ما يَكْفِيكِ بالمعروفِ**»[7].

---

(١) الجُلَّاس: الجُلَساء. (٢) الوُشاة: النَّمامون، واحدهم واشٍ.
(٣) عَوَانٍ: جمع عانيةٍ، وهي الأسيرة. (٤) رواه مسلم (١٢١٨).
(٥) الشُّحُّ: البُخْل مع حِرْصٍ. (٦) جناح: أي ذنب وإثم.
(٧) رواه البخاريُّ (٢٢١١)، ومسلم (١٧١٤)، واللَّفظُ له.

فيالله ما أَقبَحَ البُخْلَ!، وما أَعْظَمَ أَثَرَهُ!، وإِنِّي لَأَسْتَحِبُّ للرَّجُلِ أَلَّا يُزَوِّجَ ابْنَتَهُ مِنْ بخيلٍ؛ فالبُخْلُ بعيدٌ عَنْ أَهْلِ الصَّلاحِ، وهُمْ بعيدون عَنْهُ.

قال حُبَيْشٌ الثَّقَفيُّ: «قَعَدْتُ مَعَ أحمدَ بْنِ حَنْبَلٍ، ويَحْيَى بْنِ مَعِينٍ، والنَّاسُ متوافرون، فأجمعوا أنَّهم لا يعرفون رَجُلًا صالحًا بَخِيلًا».

قلتُ: وأنا لا أَجِدُ امرأةً تَعِيشُ مع بَخِيلٍ في سعادةٍ، إلَّا أنْ تَكُونَ مِثْلَهُ في البُخْلِ وجَفَافِ المشاعرِ، ولله دَرُّ أُمِّ البَنِينَ أُخْتِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ - رحمهما اللهُ - حِينَ قالتْ: «أُفٍّ للبخيلِ، لَو كان البُخْلُ قَمِيصًا ما لَبِسْتُهُ، ولو كان طريقًا ما سَلَكْتُهُ».

وَلَئِنْ كان البُخْلُ بَغِيضًا على سائرِ النَّاسِ، فهو أشدُّ بُغْضًا على الأَهْلِ والأولادِ، وكيف يَبْخَلُ المَرْءُ عَنْ أَداءِ ما أوجب اللهُ عليه، إذا عُرِفَ بالشَّهامةِ؟!.

وآمِرَةٍ بـالبُخْلِ قُلْتُ لَهَـا: اقْصُري ... فَلَـيْسَ إلى مـا تَـأْمُرِينَ سَـبِيلُ
أَرَى النَّاسَ خُلَّانَ[1] الجَوادِ[2]، ولا أَرَى ... بَخِـيلًا لــه في العَـالَمِينَ خَلِيــلُ
وإنِّي رَأَيْتُ البُـخْلَ يُزْري بـأَهْلِهِ[3] ... فأَكْرَمْـتُ نَفْـسي أَنْ يُقـالَ بَخِيـلُ

٥ - قِلَّةُ التَّزَيُّنِ للزَّوجةِ:

الرَّجُلُ صاحبُ المشاعرِ الدَّافئةِ يُحِبُّ مِنْ زَوْجَتِهِ أَنْ تتزيَّنَ له، ولم يَنْسَ هُوَ الآخَرُ أَنْ يتزيَّنَ لها وَيَتَجَمَّلَ؛ فهو يعلمُ أنَّها تُحِبُّ مِنْهُ الَّذي يُحِبُّه منها.

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة : ٢٢٨).

وعن عبدِ الله بْنِ مسعودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : «إنَّ اللهَ جميلٌ، يُحِبُّ الجَمالَ»[4].

(١) خُلَّان: جمع خليل، وهو الصَّديق المُختصُّ، ويُجمع - أيضًا - على أَخِلَّاء.
(٢) الجواد: الكريم السَّخيُّ، والجمع أجوادٌ، وأجاوِدُ، وجُوُدٌ - بضمَّتين - .
(٣) أَزْرَى به: عابه وحَقَّره. (٤) رواه مسلم (٩١).

قال ابْنُ عبَّاسٍ: «إنِّي أُحِبُّ أَنْ أتزيَّنَ لامرأتي، كما أُحِبُّ أَنْ تتزيَّنَ لي»[١].

وقال يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحَنْظَلِيُّ: «أتيتُ محمَّدَ بْنَ الحَنَفِيَّةِ، فخرج إليَّ في مِلْحَفَةٍ حَمْرَاءَ، ولحيتُهُ تَقْطرُ مِنَ الغاليةِ[٢]، فقلتُ: ما هذا؟، قال: إنَّ هذِهِ المِلْحَفَةَ أَلْقَتْها عليَّ امرأتي، ودهنتني بالطِّيبِ، وإنَّهُنَّ يَشْتَهِينَ منَّا ما نشتهيهِ مِنْهُنَّ»[٣].

٦ ـ عَدَمُ إعفافِ الزَّوجةِ:

الرَّجُلُ الَّذي يسعى لإعفافِ زَوْجَتِهِ بدافعِ المشاعرِ الدَّافقةِ، والعواطفِ الكامنةِ، والأحاسيسِ الدَّافئةِ يَتمتَّعُ برجولةٍ كاملةٍ؛ لأنَّ الحُبَّ بَيْنَ الأزواجِ مِنْ شِيَمِ الكَمالِ.

وكم من مشكلةٍ تُثارُ في البُيُوتِ ـ إمَّا مِنَ الرَّجُلِ، وإمَّا مِنَ المرأةِ ـ ويكونُ وراءها امتناعُ الآخَرِ من الجماعِ[٤]، فالمرأةُ بحاجةٍ إلى الإشباعِ العاطفيِّ والنَّفْسيِّ، والرَّجلُ كذلك، فهو طفلٌ كبيرٌ كما يقالُ في المَثَلِ، فإذا تمَّ لهما ذلك سكنتِ النُّفُوسُ ـ بإذن الله ـ، وهَدَأَتِ الأعصابُ، وارتاح البالُ.

وقد حثَّ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ على الجمـاعِ، ورغَّب فيه، وبيَّن أنَّ فيه الأَجْرَ، فعن أبي ذَرٍّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ بكُلِّ تسبيحةٍ صدقةً، وكُلِّ تكبيرةٍ صدقةً، وكُلِّ تحميدةٍ صدقةً، وكُلِّ تهليلةٍ صدقةٌ، وأَمْرٌ بمعروفٍ صدقةٌ، ونَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صدقةٌ، وفي بُضْعِ[٥] أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»[٦].

---

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقُرْطُبيِّ (٥/ ٩٧).

(٢) الغالية: نوع من الطِّيبِ، مركَّب من مِسْكٍ، وعَنْبَرٍ، ووَرْدٍ، ودُهْنٍ.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٩٧).

(٤) هذا أمر معلوم لدى أهلِ العلم قديمًا وحديثًا، فالمرأةُ تأخذُها الغَيْرةُ لأتفهِ الأسباب، والرَّجلُ إذا دعا زوجتَهُ، فلم تُجِبْهُ، يجد ذلك في نفسه، فيصبح ناشزًا، فتنصرفُ المرأةُ لتكديرِ عَيْشِهِ، وينصرفُ الرجلُ لتجاهُلِها، أو الانتقام لنفسِهِ، وللشيطانِ من ذلك نصيبٌ، وما يَعْقِلُها إلَّا العالمون.

(٥) وفي بُضع أحدكم صدقة ـ بضمِّ الباء ـ: يطلق على الجماع، ويطلق على الفرج، وكلاهما تصحُّ إرادتُهُ هنا.

(٦) رواه مسلم (١٠٠٥).

وعن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: أنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قال له - وقَدْ قَدِما مِنْ سَفَرٍ -: «**أَمَا إنَّك قادمٌ، فإذا قَدِمْتَ فالكَيْسَ الكَيْسَ**[١]»[٢].

وكان رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - يطوفُ على نسائِهِ كُلِّهِنَّ في اللَّيلةِ الواحدةِ، فعن أَنَسِ بْنِ مالكٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: كان رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - يدورُ على نسائِهِ في السَّاعةِ الواحدةِ مِنَ اللَّيلِ أَوِ النَّهارِ، وهُنَّ إحدى عَشْرَةَ. قال قَتادةُ: أَوَ كان يُطِيقُهُ؟!. قال: كُنَّا نتحدَّثُ أنَّه أُعْطِيَ قُوَّةَ ثلاثينَ[٣].

وإعفافُ الزَّوجةِ حقٌّ واجبٌ لها على زَوْجِها؛ فعن عَوْنِ بْنِ أبي جُحَيْفَةَ، عن أبيه قال: آخى النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - بَيْنَ سَلْمانَ وأبي الدَّرْدَاءِ، فزار سَلْمانُ أبا الدَّرْداءِ، فرأى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتبَذِّلةً[٤]، فقال لها: ما شَأْنُكِ؟. قالتْ: أَخُوكَ أبو الدَّرْداءِ ليس له حاجةٌ في الدُّنْيا، فجاء أبو الدَّرْداءِ، فصنع له طعامًا، فقال: كُلْ، قال: فإنِّي صائم، قال: ما أنا بآكلٍ حتَّى تَأْكُلَ، قال: فأكل، فلمَّا كان اللَّيلُ ذهب أبو الدَّرْداءِ يَقُومُ، قال: نَمْ، فنام، ثمَّ ذهب يقومُ، فقال: نَمْ، فلمَّا كان في آخِرِ اللَّيلِ، قال سَلْمانُ: قُمِ الآنَ، فصلَّيا، فقال له سَلْمانُ: «إنَّ لربِّكَ عليك حَقًّا، ولنفسِكَ عليك حَقًّا، ولأَهْلِكَ عليك حَقًّا، فأَعْطِ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ». فأتى النَّبيَّ - صلى الله عليه وسلم - فذكر ذلك له، فقال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم -: «**صَدَقَ سَلْمانُ**»[٥].

وها هي امرأةٌ تشكو زوجَها إلى عُمَرَ لتقصيرِهِ في الفِراشِ، فعن قَتادةَ قال: «جاءتِ امرأةٌ إلى عُمَرَ، فقالتْ: زوجي يقومُ اللَّيلَ، ويَصُومُ النَّهارَ، قال: أفتأمريني

---

(١) الكيس - بالفتح -: الجماع، وقيل: طلب الوَلَدِ.

(٢) رواه البخاريُّ (٢٠٩٧)، ومسلم (٧١٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٦٨)، واللَّفظ له، ومسلم (٣٠٩).

(٤) مبتذِّلة: أي تاركةٌ للبس ثياب الزينة. وفي هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّ المرأةَ إذا كان زوجُها حاضرًا فعليها أَنْ تتزيَّنَ، وهذا هو المشهورُ في نساءِ الصحابةِ، دلَّ على ذلك إنكارُ سَلْمانَ على أمِّ الدَّرْداءِ تَبَذُّلَها بقوله لها: ما شَأْنُكِ؟، حيثُ رآها رَثَّةَ الهَيْئةِ.

(٥) رواه البخاريُّ (١٩٦٨).

أَنْ أمنعَهُ قِيامَ اللَّيلِ، وصِيامَ النَّهارِ؟!. فانطلقتْ، ثمَّ عاودتْهُ بَعْدَ ذلك، فقالتْ له مِثْلَ ذلك، وردَّ عليها مِثْلَ قَوْلِهِ الأوَّلِ!، فقال له كَعْبُ بْنُ سُورٍ: يا أميرَ المُؤْمنين، إنَّ لها حَقًّا، قال: وما حَقُّها؟، قال: أَحِلَّ له أربعًا، فاجعلْ لها واحدةً من الأَرْبَعِ، لها في كُلِّ أربعِ ليالٍ ليلةٌ، وفي أربعةِ أيَّام يومًا، قال: فدعا عُمَرُ زَوْجَها، وأمره أن يبيتَ مَعَها من كُلِّ أربعةِ ليالٍ ليلةً، ويُفْطِرَ في كُلِّ أربعةِ أيَّامٍ يومًا»[1].

٧ ـ قِلَّةُ التَّودُّدِ للزَّوجةِ:

بعضُ النَّاسِ قَدْ لا يتودَّدُ لزوجتِهِ إلَّا عندما يكونانِ على الفِراشِ، وهذا يدلُّ على جَفافِ المشاعرِ ونُضُوبِها.

فليس تَرْكُ التَّودُّدِ للزَّوجةِ من أخلاقِ الرجلِ النَّبيلِ، بَلِ الرَّجلُ النَّبيلُ مَنْ يَتَوَدَّدُ لزوجتِهِ في كُلِّ وَقْتٍ وحِينٍ، وكُلَّما وَجَدَ فُرْصةً لذلك؛ فالمرأةُ عاطفيَّةٌ بطَبْعِها، تحملُ من المشاعرِ الدَّافقةِ، والعواطفِ الكامنةِ، والأحاسيسِ الدَّافئةِ، والعطاءِ المُتجدِّدِ الَّذي يجعلُ الحياةَ تَشِعُّ بالجمالِ والجلالِ.

وإنَّ اللَّبيبَ ليجدُ أَنَّ دَمارَ البُيُوتِ يبدأُ من جفافِ المشاعرِ، كما أنَّ البُيُوتَ الَّتي يجدُ أَهْلُها الإشباعَ العاطفيَّ والنَّفسيَّ تقلُّ فيها المشاكلُ، وإنْ وُجِدَتْ فالدِّفْءُ العاطفيُّ والنَّفْسيُّ كفيلٌ بحلِّها بَعْدَ توفيقِ الله.

ولننظرْ إلى أخلاقِ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ مع أَهْلِهِ، وكيف كان جميلَ العِشْرةِ، دائمَ البِشْرِ، يُداعبُ أَهْلَهُ ويُلاطِفُهم، ويتودَّدُ إليهم.

فعن عائشةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قالتْ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ في بَعْضِ أَسْفَارِهِ وأَنا جاريةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ، ولَمْ أَبْدُنْ، فقال للنَّاسِ: «تقدَّمُوا». فتقدَّمُوا، ثُمَّ قال: «تعاليْ حتَّى

---

(١) «صحيح»: أخرجه عبد الرازق في «المصنف» (٧/ ١٤٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الإرواء» (٢٠١٦).

أُسَابِقَكِ». فسابَقْتُهُ فَسَبِقْتُهُ، فَسَكَتَ عنّي، حتّى إذا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وبَدُنْتُ، ثُمَّ قال: «تَعَالَيْ أُسَابِقَكِ». فسابَقْتُهُ فَسَبَقَني، فَجَعَلَ يَضْحَكُ وهُوَ يَقُولُ: «هذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ»[1].

وعن عائشةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: دَخَلَ الحَبَشَةُ المَسْجِدَ يلعبون، فقال لي: «يا حُمَيْرَاءُ[2]، أَتُحِبِّينَ أن تَنْظُري إليهم؟». فقلتُ: نَعَمْ، فقام بالبابِ وجئتُهُ، فوضعتُ ذَقَني على عاتِقِهِ، فأسندتُ وَجْهي إلى خَدِّهِ، قالتْ: ومِنْ قَوْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ: أبا القاسم طيِّبًا[3]، فقال رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «حَسْبُكِ؟!»[4]، فقلتُ: يا رسولَ الله، لا تَعْجَلْ، فقام ثُمَّ قال: «حَسْبُكِ؟!»، فقلتُ: لا تَعْجَلْ، يا رسولَ الله، قالتْ: وما لي حُبُّ النَّظَرِ إليهم، ولكنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ يَبْلُغَ النِّساءَ مقامُهُ لي، ومكاني منه[5] [6].

وكان النَّبيُّ يَحُثُّ بَعْضَ الصحابةِ على الزَّواجِ بالأبكارِ مِنْ أَجْلِ التَّوَدُّدِ والمُداعبةِ.

فعن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: أَنَّ النَّبيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قال له: «أَتَزَوَّجْتَ؟». قلتُ: نَعَمْ. قال: «أَبِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟». قال: قلت: بَلْ ثيِّبًا. قال: «فهلَّا بِكْرًا؛ تُلاعِبُها وتُلاعِبُكَ»[7].

---

(١) «صحيح»: أخرجه أحمدُ في «المسند» (٦/ ٢٦٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٠٠٧).

(٢) حُمَيراء: تصغير الحمراء، يريد البيضاء.

(٣) أي: من الأغاني التي يتغنَّوْنَ بها.

(٤) حسبك: أي هل يكفيك؟.

(٥) أي: يعرفُ النِّساءُ ـ تعني أزواجَهُ ـ منزلتي عند رسولِ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، وبمثل هذا ونَحْوِهِ يُسْتَحَبُّ؛ حتَّى تَعْرِفَ الضَّرَّةُ منزلةَ ضَرَّتِها عِنْدَ زَوْجِها؛ حتَّى تحترِمَها لاحترام زَوْجِها، ويَحْرُمُ إذا كان بغير ذلك: كأَنْ تدَّعي الضَّرَّةُ أَنَّ لها عِنْدَ زَوْجِها مِنَ الحَظْوةِ ما ليس عِنْدَها، ففي صحيح البُخاريِّ (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠) من حديثِ أسماءَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: أَنَّ امرأةً قالتْ: يا رسولَ الله، إنَّ لي ضَرَّةً، فهل عليَّ جُناحٌ إنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذي يُعْطِيني؟!. فقال رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «المُتَشَبِّعُ بما لم يُعْطَ كلابسِ ثَوْبَيْ زُورٍ».

(٦) «صحيح»: أخرجه النَّسائيُّ في «السنن الكبرى» (٨٩٥١)، وصحَّحه ابْنُ حجرٍ إسنادَ هذِهِ الرِّوايةِ، انظر «الفتح» (٢/ ٤٤٤).

(٧) أخرجه البخاريُّ (٥٢٤٧)، ومسلم (٧١٥).

وكان ـ ﷺ ـ يقولُ: «**لَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ إِلَّا ثَلاثٌ، تأديبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، ومُلاعَبَتُهُ أَهْلَهُ، ورَمْيُهُ بقَوْسِهِ ونَبْلِهِ**»[1].

بل إنَّ الإسلامَ أباح الكَذِبَ بَيْنَ الزَّوجَيْنِ الَّذي يَجْلِبُ المودَّةَ والمحبَّةَ: كأنْ يُبالغَ في وَصْفِ محبَّتِهِ لها، أو تُبالغَ في وَصْفِ محبَّتِها له، أو يبالغَ في وَصْفِ جمالِها، أو تُبالغَ في وَصْفِ رُجُولتِهِ.

فعن أسماءَ بِنْتِ يَزِيدَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**لا يَحِلُّ الكَذِبُ إلَّا في ثلاثٍ: يُحَدِّثُ الرَّجُلُ امرأتَهُ ليُرْضِيَها، والكَذِبُ في الحَرْبِ، والكَذِبُ ليُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ**»[2].

قال النَّوويُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «وأمَّا كَذِبُهُ لزوجتِهِ وكَذِبُها؛ فالمرادُ به: إظهارُ الوُدِّ والوَعْدِ ممَّا لا يَلْزَمُ، ونحو ذلك، فأمَّا المخادعةُ في مَنْعِ ما عليه أو عليها، أو أَخْذُ ما ليس له أو لها ـ فحرامٌ بإجماعِ المسلمين، واللهُ أعلم»[3].

مشاعرُ الزَّوج قَبْلَ الزَّواج وبَعْدَهُ[4]:

هذِهِ القصيدةُ تحكي مشاعرَ الزَّوْجِ قَبْلَ الزَّواجِ وبَعْدَهُ، وهي تحكي حالَ كثيرٍ من النَّاسِ اليَوْمَ:

قَبْلَ الزَّوَاجِ يَكُونُ الـمَـرْءُ مُـحْـتَرِقًا
عَلَى الَّتي بِهَوَاهَا[5] قَـلْبُهُ عَـلِـقَـا

---

(١) النبل ـ بالفتح ـ: السِّهام لا واحدَ لها من لَفْظِها، وتجمع على نِبالٍ، وأنبالٍ، ونُبْلانٍ.

(٢) «صحيح»: أخرجه التِّرْمذيُّ (٢٠٢٠)، وقال الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح التِّرْمذيِّ» (١٥٨٢): صحيح دُونَ قولِهِ: «ليرضيها»، وانظر «الصحيحة» (٥٤٥).

(٣) «شرح النَّوويِّ على مسلم» (٥/ ٤٦٦).

(٤) لأسعد رستم.

(٥) بهواها: بعِشْقِها وحُبِّها.

والصَّـبُّ[١] في قَـلْبِـهُ نَـارٌ مُـؤَجَّـجَـةٌ
وإنْ يَكُـنْ عِنْـدَ مَنْ يَهْوَاهُ قَدْ دَنَقا[٢]

لَوْ حَالَ[٣] دُونَ[٤] المُنَى[٥] طَوْدٌ[٦] لحَاوَلَ أَنْ
يكـونَ بالفـعْلِ ذَاكَ الطَّوْدَ مُـخْتَرِقَا

تَـرَاهُ يُـنْـفِقُ أمـــوالًا قـضـــى زمـنًـــا
مِنَ الـجَبِينِ عَـلَـيْهَا يَـسْكُبُ العَرَقَا

ويَهْجُرُ الأَهْلَ والأَصْحَـابَ أجْـمَـعَـهُمْ
لكي يكـونَ بهـــا فِي الحُبِّ مُلْتَصِقَا

يَـقْـضِي النَّـهَـارَ ولا شغـلٌ لَـدَيْهِ سِوَى
ذِكرَى الحَبِيبِ، وَيَقْضِي لَـيْلَهُ أَرِقا[٧]

وقَـدْ يمـوتُ، وكَــمْ صَــبٍّ صَـبَابَتُهُ[٨]
جَــنَـتْ عَـلَيْهِ، فَمَا أَبْقَتْ لَهُ رَمَقَا[٩]

لَـوْ أنَّهـــا سَــأَلَـتْــهُ حــاجــةً لـجَــرى
كالسَّيْـلِ مُـنْدَفِقًا، والسَّـهْمِ مُنْطَلِقا

وَكَــمْ تَـبَـسَّـمَ مَـسْـرُورًا بِـطَـلْـعَـتِهَا
وكَـمْ تَـنَـهَّدَ مُشْتَاقًا، وكَمْ شَهِقَا[١٠]

وَقَـدْ يَــغَـارُ علـيْهَـا إنْ هِـي التَـفَـتَـتْ
إلى سِـواهُ، فَـيُـمْـسي بـالُـهُ قَـلِـقَـا

---

(١) الصَّبُّ ـ بالفتح ـ : المُحِبُّ المُشْتَاقُ.
(٢) دَنَقَ: تَتَبَّعَ دقائق الأُمُورِ.
(٣) حَالَ: حَجَزَ.
(٤) دُونَ ـ بالضمِّ ـ : قَبْلَ.
(٥) المُنَى: الأماني والأحلام.
(٦) الطود ـ بالفتح ـ : الجَبَلُ العظيمُ.
(٧) الأَرَقُ ـ بفتحتين ـ : السَّهَرُ.
(٨) الصبَّابَةُ ـ بالفتح ـ : حرارة الشَّوْق.
(٩) الرَّمَقُ ـ بفتحتين ـ : بَقيَّة الرُّوح.
(١٠) شهق: تردَّد البُكاء في صَدْرِه.

يَشْرِي لـهـا كُـلَّ مـا تَـهْوَاهُ مِنْ تُـحَفٍ
يَشْرِي الأَسَاوِرَ، والأَطْوَاقَ[١]، والحِلَقَا
حَـتَّى إذَا وَهَـبَتْـهُ قَــلْبَهَا، فَـغَـدا[٢]
زُوْجًا لها، وعَلَى صِدْقِ الوَلَا[٣] اتَّفقا
قَـلَّـتْ مَـحَـبَّـتُـهُ للحــالِ، وانْـقَـلَـبَتْ
بُـغْـضًا، ولـم يَبْقَ من ذِكْرٍ لما سَـبَقَا
كـأنَّـهُ لَـمْ يَـنَــلْ مِــنْ دَهْــرِهِ أَرَبــًا[٤]
لأَجْلِهِ قَلْبُهُ الوَلْـهَانُ[٥] قَـدْ خَـفَقَا[٦]
كــأنَّـما لَـمْ يَـطِـبْ نَـفْـسًا بـزَوْجَتِـهِ
كَـلَّا، ولَـمْ يَقْتَرِنْ يَوْمًا ولا عَشِقَـا
فَـصَــارَ يَـشْتُمُــهَا ظُلْمًــا، ويَـلْـطِمُـهـا
ورُبَّما ـ وَقْتَ غَيْظٍ ـ رَأْسَهَا سَحَقَا[٧]
أَقَــلُّ حــادثــةٍ مِــنْــــهَــا تُـهَـيِّـجُـهُ
حتَّى إذا عــارَضَتْ قَـوْلًا لَهُ حَنِقَا[٨]
يُــرِيــدُ مِنْــهَا طعــامًا، إن تَــأَخَّرَ عَنْ
مِـيعَـادِهِ لَـحْـظَةً في وَجْهِهَـا بَصَـقَا
كأنَّمـا هِـي مِنْ بَـعْـضِ العَــبِـيدِ لَــهُ
والعَبْــدُ في هَـذِهِ الأيَّـامِ قَدْ عُتِقَا[٩]

---

(١) الأطواق: جمع طَوْقٍ ـ بالفتح ـ، وهو حُلِيٌّ للعُنُق.
(٢) غدا: صار.
(٣) الوَلا: أي الولاء، وهو الحُبُّ.
(٤) الأَرَب ـ بفتحتين ـ: الحاجة.
(٥) الوَلْهان: الحائر الحزين.
(٦) خفق القلب خَنَقَانًا: اضطَرَبَ.
(٧) سَحَقَ الشيء: دَقَّهُ.
(٨) حَنِقَ: اشْتَدَّ غَيْظُهُ، وبابُهُ فَرِحَ.
(٩) عُتِقَ: أُخْرِجَ عَنِ الرِّقِّ والعُبُوديَّة.

يَغِيبُ عَنْ بَيْتِهِ لَيْلًا فَيَتْرُكُها
وَحِيْدةً، فَتُقاسِي وَحْدَةً وَشَقَا
حتَّى إذا سَأَلَتْهُ: أَيْنَ كانَ؟ أَبى
رَدَّ الجوابِ عَلَيْهَا، والعَصَا امْتَشَقَا[1]
يَقُولُ: قُوْمِي ـ أَيَا بِنْتَ الكِلابِ ـ إذًا
وقَطِّبي[2] بَنْطَلُونًا لِي؛ فَقَدْ مُزِقَا
اجْلي[3] اطْبُخِي، كَنِّسِي، هيَّا احْمِلِي وَلَدًا
فإنَّهُ يُقْلِقُ الجِيْرَانَ إنْ زَعَقَا
وهكَذَا تَسْتَمِرُّ الحال بَيْنَهُما
ورُبَّما ـ بَعْدَ هذا كُلِّهِ ـ افْتَرَقَا
بِئْسَ الزَّوَاجُ زَواجٌ لا وِفَاقَ بِهِ[4]
ولا بَقَاءَ بلا حُبٍّ يُعِدُّ[5] بَقَا
المَرْءُ يَطْلُبُ رِزقًا لَيْسَ يَمْلِكُهُ
حتَّى إذا نَالَهُ لَمْ يَرْضَ ما رُزِقَا

وقالتِ امرأةٌ تُصارِحُ زَوْجَها بَعْدَ أَنْ رَأَتْ مِنْهُ جَفافَ المشاعرِ:

لِمَ ـ أَيُّها الغالي ـ تُخَلِّفُ بَيْتَنا
نَهْبَ الأَسَى، وتُمِيتُ رُوحَ شَبابِي؟!

---

(١) امْتَشَقَ: اخْتَلَسَ، والاختلاسُ أَخْذُ الشَّيْءِ بُسرعةٍ.
(٢) قَطِّبي: اجمعي ما تمزَّقَ منه بالمِخْيَطِ.
(٣) اجْلي: نظِّفي.
(٤) الوفاق ـ بالكسر ـ: المُوافقة.
(٥) يُعِدُّ: يُهَيِّئُ.

أَيْـنَ الـعِبـاراتُ الَّتـي زَخْـرَفْـتَـها
يَوْمَ الزِّفـاف، وأَيْنَ ليْـنُ خِطابِي؟!
أَيْـنَ ادِّعـاؤُكَ للـوفـاءِ؟، وأيْـنَ مـا
أَعْـطَـيْـتَـني مِـنْ مَـوْعِدٍ خَلَّابِ؟!
يـا عـابـثـاً بمشـاعري، يـا بـاخلاً
بسعـادتي، يـا مُـتـقـنًا إغـضـابي
لِـمَ - أيُّها الغـالي - سَـجَـنْـتَ بَـلابـلي[1]
وغَـدَوْتَ تُـسْـمِـعُني نَـعيقَ غُرابي
وتـركْـتَـنـي في دَرْبِ حُـزْنٍ يَـنْـتـهـي
بخُطـايَ سِـرْدابٌ[2] إلى سِرْدَابِ؟!
يـا وَيْـحَ أحـلامي الَّتـي طَـرَّزتَـهـا
فـي خَيْـمةٍ مَبْـتُـورةِ الأَطْـنَـابِ[3]
نُـصِـبَتْ عـلـى وَحْـلٍ؛ فـمـا طـابَـتْ
لنا سَكَنًا، ولا سَلِمَتْ مِنَ الأَوْصَابِ[4]
مـا النَّـاسُ إلَّا بالقُـلُوبِ، فـإنْ يَـمُـتْ
خَـفَقَانها، فالنَّـاسُ كالأَخْشَابِ

---

(١) البَلابل - بالفتح - : شدَّة الهمِّ والوَساوس.
(٢) السِّرداب - بالكسر - : نَفَقٌ تحت الأرض.
(٣) الأطناب: جمع طُنُب - بضمَّتين - ، وهو حبل طويل يُشَدُّ به وَتَدُ الخيمة.
(٤) الأوصاب: جمع وَصَبٍ - بالتَّحريك - ، وهو المرض.

جفافُ مشاعر الزَّوجة نَحْوَ زَوْجِها :

مِنَ الأزواجِ مَنْ تَكُونُ لديهِ زوجةٌ رائعةُ الجمالِ، لكنَّها خاويةُ المشاعِرِ، جامدةُ العواطفِ، غَلِيظةُ الكلامِ، لا تفهمُ شيئًا مِنْ لُغَةِ القُلُوبِ، ولا تَفْقَهُ أَمْرًا مِنَ المشاعِرِ الدَّافئةِ، ويَنْتِجُ عن ذلك أمورٌ كثيرةٌ فمنها:

صورٌ مِنْ جَفافِ مشاعر الزَّوجة :

١ ـ تَرْكُ التَّزيُّنِ لزَوْجِها:

مِنْ جفافِ مشاعرِ الزَّوجةِ تَرْكُ التَّزَيُّنِ لزَوْجِها، فلا تَلْبَسُ الملابسَ الجميلةَ، ولا تتعاهدُ بَدَنَها بالنَّظافةِ، ولا تراعي ما يَرُوقُهُ مِنَ الرَّوائحِ الطَّيِّبةِ.

وقَدْ كانتِ النِّساءُ يَسْتَعِرْنَ القلائدَ والثِّيابَ للتَّزيُّنِ بها للأزواجِ على عَهْدِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ، فعن عائشةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ : «أَنَّها استعارتْ من أسماءَ قِلَادَةً[1]»[2].

وعن عَبْدِ الواحِدِ بْنِ أَيْمَنَ قال: حدَّثَني أبي قال: دخلتُ على عائشةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ وعليها دِرْعُ قِطْرٍ[3]، ثَمَنُ خَمْسَةِ دَرَاهِمَ، فقالتِ: ارْفَعْ بَصَرَكَ إلى جاريتي انْظُرْ إليها، فإنَّها تُزْهَى (أي: تَأْنَفُ وتتكبَّرُ) أَنْ تَلْبَسَهُ في البَيْتِ، وقَدْ كان لي مِنْهُنَّ دِرْعٌ على عَهْدِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فما كانتِ امرأةٌ تُقَيَّنُ (أي: تُزَيَّنُ) بالمدينةِ إلَّا أرسلتْ إليَّ تستعيرُهُ.

والمرأةُ الَّتي تتزيَّنُ لزَوْجِها تسرُّهُ إذا نظر إليها، وتملأُ عَيْنَيْهِ وقَلْبَهُ بمحاسنها، فلا يتطلعُ لغَيْرِها، فكأنَّهُ لا يُوجَدُ امرأةٌ في الدُّنيا سِواها.

---

(١) القلادة: هي العِقْد، والعِقْدُ كُلُّ ما يُعْقَدُ ويُعَلَّقُ في العُنُقِ من ذَهَبٍ ونَحْوِهِ.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٣٤)، ومسلم (٣٦٧).

(٣) الثِّياب القِطْرِيَّة: ثياب تُنْسَبُ إلى قَطَرَ، فكسروا القاف للنِّسْبةِ وخَفَّفُوا.

فعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: سُئِلَ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: أيُّ النِّساءِ خَيْرٌ؟. قال: «**الَّتي تَسُرُّهُ إذا نَظَرَ، وتُطِيعُهُ إذا أَمَرَ، ولا تُخالِفُهُ فيما يَكْرَهُ في نَفْسِها ومالِهِ**»[1].

٢ ـ الامتناعُ مِنَ الزَّوجِ إذا دعاها للفِراشِ:

مِنْ مُراعاةِ مشاعِرِ الزَّوْجِ ـ بل من الحقوقِ الواجبةِ على الزوجةِ نَحْوَ زَوْجِها إذا دعاها إلى فراشِهِ أَلَّا تُظْهِرَ التَّأَوُّهَ والإعياءَ والتشاغُلَ، بُغْيَةَ صَرْفِ الزَّوْجِ نَظَرَهُ عنها، فإنَّ هذا يدلُّ على جَفافِ المشاعرِ، وبُرُودِ العاطفةِ، ويدلُّ ـ أيضًا ـ على جَهْلِ الزَّوْجَةِ، وقِلَّةِ بصيرتِها بالعواقبِ، اللهُمَّ إلَّا أن تكونَ مُـجْهَدَةً أو مريضةً، وقَدْ حَذَّرَ النَّبيُّ المرأةَ مِنَ الامتناعِ عَنْ فراشِ زَوْجِها، فعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «**إذا دَعَا الرَّجُلُ امرأَتَهُ إلى فِرَاشِهِ**[2] **فَأَبَتْ، فباتَ غَضْبانَ عليها ـ لَعَنَتْهَا الملائكةُ حَتَّى تُصْبِحَ**[3]»[4].

وفي روايةٍ: «**والَّذي نَفْسي بيدِهِ، ما مِنْ رَجُلٍ يدعو امرأَتَهُ إلى فراشِهِ، فَتَأْبَى عليه، إلَّا كان الَّذي في السَّماءِ ساخطًا عليها، حتَّى يَرْضَى عنها**»[5].

وعَنْ طَلْقِ بْنِ عليٍّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**إذا الرَّجُلُ دَعَا زوجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ، وإنْ كانتْ على التَّنُّورِ**[6]»[7].

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٦٢٨).

(٢) **الفراش**: كناية عن الجماع.

(٣) قال **ابن حجر** ـ كما في كتاب «النكاح» من الفتح ـ: «والمعنى: أنَّ وقوعَ اللَّعْنِ يَقَعُ إنْ بات غَضْبَانَ عليها، فبذلك يتحقَّقُ ثبوتُ معصيتها، بخلاف ما إذا لَمْ يغضبْ من ذلك، فإنه يكون إمَّا لأنَّه عذرها، وإمَّا لأنَّه تَرَكَ حقَّه من ذلك» ا. هـ.

(٤) رواه البخاريُّ (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦).

(٥) رواه مسلم (١٤٣٦).

(٦) **وإن كانت على التنور**: أي وإن كانت تخبز على التَّنُّور.

(٧) «**صحيح**»: أخرجه التِّرْمذيُّ (١١٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التِّرْمذيِّ» (٩٢٧).

قال الشَّوكانيُّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «فإذا كان لا يَسَعُها مُخالفةُ زَوْجِها، والامتناعُ عنه وهي على هذِهِ الحالِ، فكَيْفَ يَسَعُها مُخالفتُهُ فيما سِوَى ذلك مِنَ الأحوالِ؟!»[1].

وعن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ : أنَّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ رأى امرأةً، فأَتَى امرأتَهُ زَيْنَبَ وَهِيَ تَمْعَسُ مَنِيئَةً[2] لها، فَقَضَى حاجتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إلى أَصْحَابِهِ، فقال: «**إنَّ المَرْأَةَ تُقْبِلُ في صُورَةِ شَيْطَانٍ، وتُدْبِرُ في صُورَةِ شَيْطَانٍ**[3]، **فإذا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ امرأةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ؛ فإنَّ ذلك يَرُدُّ ما في نَفْسِهِ**»[4].

قال النَّوويُّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في شرحِ الحديثِ: «قال العُلَماءُ: إنَّما فَعَلَ هذا بيانًا لهم، وإرشادًا لما ينبغي لهم أن يفعلوه، فعلَّمهم بِفِعْلِهِ وقَوْلِهِ، وفيه: أنَّه لا بَأْسَ بطَلَبِ الرَّجُلِ امرأتَهُ إلى الوِقَاعِ في النَّهارِ وغَيْرِهِ، وإنْ كانتْ مُشْتَغِلَةً بما يُمْكِنُ تَرْكُهُ؛ لأنَّه رُبَّما غَلَبَتْ على الرَّجُلِ شَهْوةٌ يتضرَّرُ بالتَّأخيرِ في بَدَنِهِ، أو في قَلْبِهِ وبَصَرِهِ، واللهُ أَعْلَمُ»[5].

قلتُ: إنَّ امتناعَ المرأةِ من الزَّوجِ في مِثْلِ هذِهِ الحالةِ تُسَبِّبُ لَهُ الضَّرَرَ، ورُبَّما وَقَعَ في الفِتْنةِ، وما أكثرَ الفِتَنَ في زمانِنا!، ورُبَّما ذهب يبحثُ له عن زوجةٍ أُخْرَى يُعِفُّ نَفْسَهُ بها، وهذا لا يُلامُ عليه.

٣ ـ عَدَمُ شُكْرِ المَعْرُوفِ:

مِنْ جفافِ مشاعرِ الزَّوجةِ عَدَمُ شُكْرِ زَوْجِها على إحسانِهِ لها مهما قَلَّ، وهذا لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ.

---

(١) «نيل الأوطار» (٦/ ٦٣١).

(٢) تمعس منيئة: أي تَدْلُكُ الجِلْدَ تمهيدًا لدباغتِهِ.

(٣) أي: شبهها بالشيطان في الوسوسة والدعاء إلى الشر.

(٤) رواه مسلم (١٤٠٣) وفي روايةِ التِّرْمِذيِّ: «فإنَّ مَعَها (أَيِ: امرأتِهِ) مِثْلَ الَّذي مَعَها (أَيْ: فَرْجًا مِثْلَ فَرْجِها، ويَسُدُّ مَسَدَّها)» قاله المباركفوري في «شرح التِّرْمذيِّ» (٤/ ٢٢).

(٥) «شرح النووي على مسلم».

فالمرأةُ العاقلةُ - حَقًّا - هي مَنْ تشكرُ زَوْجَها على القليلِ والكثيرِ، بل وتُظْهِرُ السُّرورَ والابتهاجَ والدُّعاءَ لزَوْجِها، وتُثْني عليه بخَيْرٍ، وهي تعلمُ أَنَّ شُكْرَها لزَوْجِها إنَّما هُوَ جُزْءٌ مِنْ شُكْرِها لمولاها الَّذي أَجْرَى لها الخيرَ على يَدَيْ زَوْجِها، وتعلمُ أَنَّ مَنْ كان مِنْ طَبْعِهِ كُفْرَانُ نِعْمَةِ النَّاسِ، كان مِنْ عاداتِهِ كُفْرانُ نِعْمَةِ الله؛ دَلَّ على ذلك قولُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ: «**لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ**»[1].

وها هو إبراهيمُ الخليلُ يمتحنُ نساءَ إسماعيلَ، ثُمَّ يقولُ لِمَنْ سَأَلها عَنْ عَيْشِهِمْ وهَيْئَتِهِمْ، فقالتْ: نَحْنُ بشَرٍّ، نَحْنُ في ضِيْقٍ وشِدَّةٍ .... فَشَكَتْ إليه، قال لها: «فإذا جاء زوجُكِ، فاقرئي عليه السَّلامَ، وقُولي له يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بابِهِ». ويقولُ لِمَنْ سألها عن عَيْشِهِمْ وهَيْئَتِهِمْ، فقالتْ: نَحْنُ بخَيْرٍ وسَعَةٍ، وأَثْنَتْ على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: «فإذا جاء زوجُكِ، فاقرئي عليه السَّلامَ، ومُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بابِهِ»[2].

---

(١) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٤٨١١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٤٠٦٢).

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٣٣٦٤) من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أَوَّلَ ما اتَّخَذَ النِّساءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إسماعيلَ ... الحديث إلى أن قال: «فجاءَ إبراهيمُ بَعْدَما تزوَّج إسماعيلُ، فسأل امرأَتَهُ عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثُمَّ سألها عن عَيْشِهِمْ وهَيْئَتِهِمْ، فقالتْ: نَحْنُ بشَرٍّ، نَحْنُ في ضِيْقٍ وشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إليه، قال: فإذا جاء زوجُكِ، فاقرئي عليه السَّلامَ، وقُولي له يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بابِهِ. فلمَّا جاء إسماعيلُ كأنَّه آنَسَ شيئًا، فقال: هل جاءكم مِنْ أَحَدٍ؟. قالتْ: نَعَمْ، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرتُهُ، وسألني كيف عَيْشُنَا، فأخبرتُهُ أَنَّا في جَهْدٍ وشِدَّة. قال: فهل أَوْصَاكِ بشَيْءٍ؟. قالتْ: نَعَمْ، أَمَرَني أَنْ أَقْرَأَ عليك السَّلامَ، ويَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. قال: ذاكِ أَبِي، وقَدْ أَمَرَني أَنْ أُفارِقَكِ، الحَقِي بأَهْلِكِ. فطلَّقها وتزوَّج من أُخْرَى، فَلَبِثَ عنهم إبراهيمُ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ أتاهم بَعْدُ فلم يَجِدْهُ، فدخل على امرأتِهِ، فسألها عنه، فقالتْ: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟. وسألها عن عَيْشِهِمْ وهَيْئَتِهِمْ، فقالتْ: نَحْنُ بخَيْرٍ وسَعَةٍ، وأَثْنَتْ على الله، فقال: ما طعامُكُمْ؟ قالتِ: اللَّحْمُ. قال: ما شرابُكم؟. قالتِ: الماءُ. قال: «اللَّهُمَّ، بارِكْ لهم في اللَّحْمِ وَالماءِ». قال النَّبيُّ ﷺ: «**ولم يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه**». قال: فهما لا يخلو عليهما أَحدٌ بغَيْرِ مَكَّةَ إلَّا لَمْ يُوافِقَاهُ. قال: فإذا جاء زوجُكِ، فاقرئي عليه السَّلامَ، ومُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بابِهِ. فلمَّا جاء إسماعيلُ قال: هل أتاكم مِنْ أَحَدٍ؟. قالتْ: نَعَمْ، أتانا شيخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وأثنتْ عليه، فسألني عنك فأخبرتُهُ، فسألني: كيف عَيْشُنا؟، فأخبرتُهُ أَنَّا بخَيْرٍ. قال: فأوصاكِ بشيءٍ؟. قالتْ: نَعَمْ، هو يقرأُ عليك السَّلامَ، ويَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتْ عَتَبَةَ بابِكَ. قال: ذاكِ أبي، وأنتِ العَتَبَةُ، أَمَرني أَنْ أُمْسِكَكِ».

فإبراهيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا رَأَى مِنَ الزَّوْجَةِ الأُولى مِنَ الشَّكْوى الَّذي يَدُلُّ على كُفْرانِ النِّعَمِ، أَوْصَاها أَنْ تَقُولَ لزوجها: يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بابِهِ.

وسَمَّى المرأةَ بعتبة الباب لقيامها بحفظ البيت وصَوْنِها، ولَمَّا رَأَى مِنَ المرأةِ الثَّانيةِ التَّحَدُّثَ بنعمةِ الله ما يَدُلُّ على شُكْرِها[1]؛ أوصاها أن تقولُ لزَوْجِها: يُثْبِتُ عَتَبَةَ بابِهِ، وذلك بعد أن دعا لهمـا بالبركة.

فليس من صفاتِ الزَّوجةِ العاقلةِ كُفْرُ النِّعَمِ، بَلِ الزَّوجةُ العاقلةُ مَتَى سُئِلَتْ عَنْ زَوْجِها أَثْنَتْ على رَبِّها، وتَذَكَّرَتْ نِعَمَهُ، ورَضِيَتْ قِسْمَتَهُ، فالقناعةُ كَنْزُ الغِنى، والشُّكْرُ قَيْدُ النِّعَمِ المَوْجُودةِ، وصَيْدُ النِّعَمِ المَفْقُودةِ، فإذا لَزِمَ الإنسانُ الشُّكْرَ دَرَّتْ نِعَمُهُ وكَثُرَتْ، فمتى لم تَرَ حالَكَ مِنْ مزيدٍ، فاستقبلِ الشُّكْرَ؛ كيف وقَدْ قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ (إبراهيم: ٧)؟!.

بل يَحْسُنُ بالزَّوجةِ أَنْ تَشْكُرَ ربَّها إذا نَزَلَ بها ما تَكْرَهُهُ؛ شُكْرًا لله على ما قَدَّرَهُ، وكَظْمًا للغَيْظِ، وسَتْرًا للشَّكْوى، ورِعايةً للأَدَبِ[2].

ومن حقِّ الزَّوجِ عليها أَنْ تَعْتَرِفَ بشُكْرِهِ، فإنَّ جُحُودَ فَضْلِ الزَّوْجِ سَمَّاهُ الشَّارِعُ كُفْرًا، ورتَّب عليه الوعيدَ الشَّديدَ، وجعله سببًا لدخولِ النَّارِ.

فعن ابْنِ عبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **«رأيتُ النَّارَ، ورأيتُ أَكْثَرَ أَهْلِها النِّسَاءَ»**. قالوا: لِمَ يا رسولَ الله؟. قال: **«يكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ**

---

(١) من شُكْرِ النِّعَمِ التَّحَدُّثُ بها لقولِ الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى: ١١).

(٢) انظر «مدارج السالكين» لابن القَيِّم (٢/ ١٩٩)، وانظر أيضًا: «فقر المشاعر» للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد (ص٢٧).

الإحسانَ؛ لو أَحْسَنْتَ إلى إحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيئًا، قالتْ: ما رأيتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»[1].

وعن عبدِ الله بْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «**لا ينظرُ اللهُ إلى امرأةٍ لا تَشْكُرُ زَوْجَها، وهي لا تَسْتَغْني عنه**»[2].

وعن أسماءَ بنتِ يَزِيدِ الأنصاريَّةِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قالت: مرَّ بي رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأنا وجَوارٍ أَتْرابٌ لي[3]، فسلَّم علينا، وقال: «**إياكنَّ وكُفْرَ المُنعمين**». وكُنتُ مِنْ أَجْرَئِهنَّ على مسألتِهِ، فقلتُ: يا رسولَ الله، وما كُفْرُ المُنعمين؟. قال: «**لعلَّ إحْدَاكُنَّ تَطُولُ أَيْمَتُها مِنْ أَبَوَيْهَا، ثُمَّ يَرْزُقُها اللهُ زَوْجًا، ويَرْزُقُها وَلَدًا، فَتَغْضَبُ الغَضْبَةَ، فَتَكْفُرُ، فتقولُ: ما رأيتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ**»[4].

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٩)، ومسلم (٩٠٧).

(٢) «**صحيح**»: أخرجه النَّسائيُّ في «الكبرى» (٩١٣٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٨٩).

(٣) **أتراب**: أي متساويات السِّنِّ، واحدُتُهنَّ تِرْب ـ بالكسر ـ.

(٤) «**صحيح**»: أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (١٠٤٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٨٠٠).

جفافُ المشاعرِ مَعَ الأرْحَامِ

من الناسِ مَنْ لا يَصِلُ رَحِمَهُ إلَّا في المُناسباتِ، فلا يَصِلُهُم ببِرِّهِ، ولا يَمُدُّهُمْ بإحسانِهِ، ولا يسأَلُ عنهم، أو يتعاهدهم بالسَّلامِ وطِيبِ الكَلامِ.

وإن حصل بَيْنَهُمْ لقاءٌ، فإنَّما يكون عِنْدَ مَوْتِ قريبٍ، أو زواجِ حَبِيبٍ، وهذا من التَّقصيرِ الكبيرِ.

فَضْلُ صِلَةِ الرَّحِمِ:

إنَّ للأرحامِ حَقًّا واجبًا[1]، وإن كانوا كُفَّارًا، أو فُجَّارًا، أو مبتدعةً؛ فقد أوصانا اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ بهم خَيْرَ وصيَّةٍ، قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ (النساء: ٣٦)، وقَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (البقرة: ٨٣)، وقَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ (الأنفال: ٧٥).

فانظر ـ أخي ـ كيف قَرَنَ ربُّنا ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ بَيْنَ توحيدِهِ وصِلَةِ الرَّحِمِ؟!، وما ذاكَ إلَّا لأهمِّيَّةِ هذا الحقِّ، وفضلًا عن ذلك فإنَّ قطيعةَ الرَّحِمِ من كبائرِ الذنوبِ، والقاطعُ ملعونٌ في كتابِ اللهِ.

---

(١) قال النَّوويُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في «شرح مسلم» (٨/ ٤٨٥١): «قال القاضي عِياضٌ: لا خِلاف أنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ واجبةٌ في الجُمْلةِ، وقَطِيعَتُها معصيةٌ كبيرةٌ، والأحاديثُ في البابِ تَشْهَدُ لهذا، ولكنَّ الصِّلَةَ دَرَجاتٌ، بَعْضُها أرفعُ مِنْ بَعْضٍ، وأدناها تَرْكُ المُهاجرةِ، وصِلَتُها بالكلامِ ولَوْ بالسَّلامِ، ويختلفُ ذلك باختلافِ القُدْرةِ والحاجةِ، فمنها واجبٌ، ومنها مستحبٌّ، ولو وَصَلَ بَعْضَ الصِّلَةِ، ولم يَصِلْ غايتَها لا يُسَمَّى قاطعًا، ولو قَصَّرَ عمَّا يَقْدِرُ عليه وينبغي له، لا يُسَمَّى واصِلًا».

قالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ (محمد : ٢٢، ٢٣).

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ، حتَّى إذا فَرَغَ مِنْهُمْ، قامتِ الرَّحِمُ، فقالتْ: هذا مَقَامُ العائِذِ بك مِنَ القَطيعةِ؟، قال: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟، قالتْ: بَلَى، قال: فَذَاكِ لَكِ». ثُمَّ قال رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «اقْرَءُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد : ٢٢ - ٢٤)»[١].

وعَنْ أبي أَيُّوبَ الأنصاريِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - : أنَّ رجلًا قال للنَّبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَخبِرْني بعَمَلٍ يُدْخِلُني الجنَّةَ. قال القومُ: مَا لَهُ، مَا لَهُ؟. قال رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «أَرَبٌ مالَهُ[٢]، تَعْبُدُ اللهَ، ولا تُشْرِكُ به شيئًا، وتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتي الزَّكاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ»[٣].

وعن عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قالتْ: قال رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «الرَّحِمُ مُعلَّقَةٌ بالعَرْشِ، تَقُولُ: مَنْ وَصَلَني وَصَلَهُ اللهُ، ومَنْ قَطَعَني قَطَعَهُ اللهُ»[٤].

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «مَنْ كان يُؤْمِنُ باللهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[٥].

إلى غَيْرِ ذلك مِنَ الأَدلَّةِ على أهمِّيَّةِ صِلَةِ الرَّحِمِ وعُلُوِّ شَأْنِها.

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٥٠٢)، ومسلم (٢٥٥٤)، واللَّفْظُ له.

(٢) أَرَبٌ مالَه: أي: له حاجةٌ ما جاءتْ به، فـ (ما) زائدة.

(٣) رواه البخاريُّ (١٣٩٦)، ومسلم (١٣).

(٤) رواه البخاريُّ (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥).

(٥) رواه البخاريُّ (٦١٣٨).

صورٌ مِنْ جفافِ المشاعرِ تجاهَ الأرحامِ:

١ ـ الصِّلَةُ للمُكافئةِ:

الواصلُ الـمُكافِئُ لا يَكُونُ واصلًا لِرَحِمِهِ، وإنَّما الواصلُ الكاملُ مَنْ وَصَلَ رَحِـمَهُ ابتغاءَ وَجْهِ الله، ورَجَاءَ ثَوابِهِ، سواء وَصَلَهُ أرْحَامُهُ أو قَطَعُوهُ، وأعظمُ الصِّلَةِ صِلَةُ ذي الرَّحِمِ القاطعِ، كما أنَّ أعظمَ الصَّدَقةِ الصَّدَقَةُ على ذِي الرَّحِمِ الكاشِحِ[١].

فعن عبدِ الله بْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ عنِ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ أنَّه قال: «**لَيْسَ الواصِلُ بالُمكافِئِ[٢]، ولَكِنِ الوَاصِلَ الَّذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَها**[٣]»[٤].

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ: أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله، إنَّ لي قرابةً، أَصِلُهم ويَقْطَعُونِي، وأُحْسِنُ إليهم ويُسِيئُونَ إليَّ، وأَحْلُمُ عَنْهمُ ويَجْهَلُون[٥] عليَّ!. فقال ـ ﷺ ـ: «**لَئِنْ كُنْتَ كما قُلْتَ، فَكَأَنَّما تُسِفُّهُمُ الَمَلَّ[٦]، ولا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ الله ظَهِيرٌ عليهم[٧]، ما دُمْتَ على ذلِكَ**»[٨].

قال **النَّوويُّ** ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في شَرْحِ هذا الحديثِ: «وَهُوَ تشبيهٌ لما يَلْحَقُهم من الألَمِ بما يَلْحَقُ آكِلَ الرَّمادِ الحارِّ مِنَ الألَمِ، ولا شيءَ على هذا الُمحْسِنِ، بل ينالُهم الإثمُ العظيمُ في قطيعتِهِ، وإدخالِهِمُ الأذَى عليه.

---

(١) **الكاشح**: الُمضْمِرُ للعداوةِ.

(٢) **المكافِئ**: هو الذي يصل من وصله، ويكافِئ بقَدْرِ الصِّلَةِ، فمِثْلُ هذا لا يُسَمى واصِلًا كامِلًا.

(٣) قال **ابن حجر** ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في «الفتح» (١٢/ ٣٢): «هم ثلاثُ دَرَجَاتٍ: مواصل، ومكافِئ، وقاطع، فالواصلُ: مَنْ يتفضَّلُ ولا يُتَفَضَّلُ عليه، والُمكافِئُ: الَّذي لا يَزِيدُ في الإعطاءِ على ما يَأْخُذُ، والقاطِعُ: الَّذي يتفضَّل عليه ولا يَتَفَضَّلُ».

(٤) رواه البخاريُّ (٥٩٩١).

(٥) **الجَهْل**: الإساءة بالقول القبيح.

(٦) **المَلُّ ـ بالفتح ـ**: هو الرماد الحارُّ، ومعنى تُسِفُّهم المَلَّ أي: تُطْعِمُهمُ الرَّمادَ الحارَّ.

(٧) **الظهير**: الُمعين والنَّصير.

(٨) رواه مسلم (٢٥٥٨).

وقيل معناه: أَنَّك بالإحسانِ إليهم تُـخْزِيهم، وتُـحَقِّرُهم في أَنْفُسِهِم لكَثْرةِ إحسانِك، وقَبيحِ فِعْلِهم؛ من الخزي والحقارة عند أَنْفُسِهِم كَمَنْ يُسَفُّ الَمَلَّ.

وقيل: ذلك الذي يأكلونه من إحسانِك كالمَلِّ يُحْرِقُ أَحْشَاءَهم، واللهُ أعلمُ»[1].

ولله دَرُّ المُقَنَّعِ الكِنْديِّ حيثُ يقولُ:

فَـإِنَّ الَّـذي بَيْنـي وبَـيْنَ بنـي أبي ... وبَيْنَ بني عمِّي ـ لَـمُخْتَـلِفٌ جِـدّا

إذا قَدحُوا[2] لي نارَ حَرْبٍ بزَنْدِهِمْ[3] ... قَدَحْتُ لَهُـمْ في كُـلِّ مَكْرُمَـةٍ زَنْـدا

وإنْ أَكَلُوا لَحمي وَفَرْتُ لُحومَهُمْ، وإنْ ... هَـدَمُوا مَجْـدي بَنَيْـتُ لَهُـمْ مَجْـدا

ولا أَحْمِـلُ الحِقْـدَ القَـديمَ عَلَـيْهِمُ ... وَلَيْسَ رَئيسُ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدا

وأُعْطِيهِمْ جُلَّ[4] مالي إذا كُنْتُ واجـدًا ... وإنْ قَـلَّ مـالي لَمْ أُكَلِّفْهُـم رِفْـدا[5]

٢ ـ عَدَمُ العَطْفِ على الأرحام:

الصِّلَةُ في حَقِيقَتِها هي: العَطْفُ والرَّحْمَةُ[6]، والرَّجُلُ النَّبيلُ مَنْ يَعْطِفُ على أرحامِهِ، ويحنو عليهم.

فعَنْ عِياضِ بْنِ حِمَارٍ المُجاشعيِّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ: أنَّ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أَهْلُ الجَنَّةِ ثلاثةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيالٍ**»[7].

---

(١) «شرح النَّوويِّ على مسلم» عند شرحه لحديث رقم (٢٥٥٨).

(٢) قَدَحَ بالزَّنْدِ: طلب الإيراء به والإشعال.

(٣) العُود الَّذي يُقْدَحُ به النَّارُ، والجمع زِنادٌ، وأَزْنُدٌ، وأزنادٌ.

(٤) جُلُّ الشَّيء: معظمه.

(٥) الرِّفْد ـ بالكسر ـ: العطاء والصِّلة.

(٦) جاء في «مقاييس اللُّغة» (٢/ ٤٩٨)، و «الصِّحاح» (٥/ ١٩٢٩): «الرَّحِمُ لُغَةً: اسْمٌ مُشتقٌّ من مادَّةِ (رح م) الَّتي تدلُّ على الرِّقة والعطفِ والرَّأفة، والرَّحمُ (علاقة) القرابة، وقد سميت رَحِمُ الأُنْثى رَحِمًا مِنْ هذا؛ لأنَّ مِنْها ما يَكُونُ ما يُرْحَمُ ويُرَقُّ لَهُ مِنْ وَلَدٍ، والرَّحْمَةُ والرُّحْمُ: الرِّقَّةُ، والتعطُّفُ».

(٧) رواه مسلم (٢٨٦٥).

وعَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبيرِ قال: «ذَهَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبيرِ مَعَ أُناسٍ مِنْ بني زُهْرَةَ[1] إلى عائشةَ، وكانتْ أرَقَّ شيءٍ عليهِم لقرابتِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - »[2].

٣ - قِلَّةُ التَّعارفُ بَيْنَ الأَرْحامِ:

بَعْضُ النَّاسِ يتفرَّقون في المُدُنِ والقُرى، ويَحْصُلُ التَّناسلُ والانتشارُ بَيْنَ الأُسْرَةِ الواحدةِ، فلا يُكلِّفون أنْفُسَهمُ التَّواصلَ فيما بَيْنَهُمْ، فَضْلًا عَنِ التَّعارُفِ، ولا شَكَّ أَنَّ ذلك من التقصير في حقِّ ذوي الحقِّ، ويدلُّ على جفافِ المشاعرِ ونُضُوبِها.

وقد حَثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على تعلُّمِ الأنسابِ من أَجْلِ الصِّلَةِ؛ فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : «**تعلَّموا مِنْ أَنْسابِكُمْ ما تَصِلُونَ به أَرْحامَكُم؛ فإنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ في الأَهْلِ[3]، مَثْراةٌ[4] في المَالِ، مَنْسَأَةٌ في الأَثَرِ[5]**»[6].

قال المباركفوري - رَحِمَهُ اللهُ - : «قولُهُ: «**تعلَّموا مِنْ أَنْسابِكُمْ**» أي: من أسماءِ آبائكم، وأجدادِكم، وأعمامِكم، وأخوالِكم، وسائرِ أقاربكم، «**ما**» أي: قدر ما، «**تَصِلُونَ به أَرْحامَكُم**»، فيه دلالة على أنَّ الصِّلَةَ تتعلَّقُ بذوي الأرحام كُلِّها لا

---

(١) في هذا دليل على أنَّ القرابةَ تَشْمَلُ القبيلةَ بأَسْرِها، وسواء كان ذلك من جهةِ النَّسَبِ أوِ المُصاهرةِ، فإنَّ أُمَّ النَّبيِّ - ﷺ - كانتْ مِنْ بني زُهْرَةَ.

ويتأيَّد ذلك بقولِ رسولِ الله - ﷺ - في «صحيح مسلم» (٢٥٤٣) من حديثِ أبي ذَرٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : «**إنَّكم ستفتحون مِصْرَ، وهي أَرْضٌ يُسَمَّى فيها القِيراطُ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أَهْلِهَا؛ فإنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا - أو قال: ذِمَّةً وصِهرًا -**». فأمَّا الرَّحِمُ فلكَوْنِ هاجَرَ أُمِّ إسماعيل منهم، وأمَّ الصِّهْرُ فلكون ماريَةَ القِبْطيَّةِ منهم فهم أخوالُ إبراهيمَ وَلَدِهِ.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٥٠٣).

(٣) **محبة في الأهل**: أي مَظِنَّة للحُبِّ وسبب للوُدِّ في أَهْلِ الرَّحِمِ.

(٤) **مَثْراة**: أي مَكْثَرة.

(٥) **مَنْسَأة في الأَثَر**: أي مَأْخَرةٌ في العُمُر.

(٦) «**صحيح**»: أخرجه التِّرْمذيُّ (٢٠٦٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٧٦).

بالوالدَيْنِ فَقَطْ، كما ذهب إليه البَعْضُ، والمعنى: تعرَّفوا أقاربَكُم من ذوي الأرحامِ؛ ليُمْكِنَكُمْ صِلَةُ الرَّحِمِ، وهي التقرُّبُ لديهم، والشَّفقةُ عليهم، والإحسانُ إليهم»[1].

٤ ـ قِلَّةُ التَّنادي بَيْنَ الأَرْحَامِ بِالأسماءِ المحبوبةِ:

كما أنَّه مِنْ جفافِ المشاعرِ التَّنادي بَيْنَ الأرحامِ بالأسماءِ المُجَرَّدةِ، فإنَّ مِنْ دِفْءِ المشاعرِ التَّنادي فيما بَيْنَهُمْ بالأسماءِ المحبوبة: يا عَمِّ، يا خَالِ، يا ابن العَمِّ، يا بْنَ الخالِ، يا بْنَ الأُخْتِ ..... إلخ.

فهذِهِ الأسماءُ وأمثالُها تنزلُ رحمةً على قَلْبِ مَنْ تُنادِهِ، وتُشْعِرُهُ بالوُدِّ، وتُذَكِّرُهُ بالرَّحِمِ، وتجعلُهُ يَأْنَسُ لك ويَرْتَاحُ إليك.

والأُسرةُ مَهْمَا تباعدتْ فَهُمْ أَرْحَامٌ، والتَّنادي بهذِهِ الأسماءِ المحبوبةِ سُنَّةٌ سنَّها لنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ؛ فعن أَنَس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**وُلِدَ لِيَ اللَّيلةَ غُلامٌ، فسمَّيْتُهُ باسمِ أبي إبراهيمَ**»[2].

فانظر كيف جعل النَّبيُّ ـ ﷺ ـ إبراهيمَ الخليلَ أَبًا له، فهوه أبوه وإن علا، وكما يقال في الأب يقال في العَمِّ وابْنِ العَمِّ، وما يُقالُ في العَمِّ وابْنِ العَمِّ يُقال ـ أيضًا ـ في الخالِ وابْنِ الخَالِ.

فعن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: أقبل سَعْدٌ (أَيْ: سَعْدُ بْنُ أبي وقَّاصٍ) فقال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: «**هذا خالي، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خالَهُ**». قال **أبو عيسى التِّرْمِذيُّ** ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: وكان سَعْدٌ مِنْ بني زُهْرَةَ، وكانتْ أُمُّ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ مِنْ بني زُهْرَةَ؛ لذلك قال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: «**هذا خالي**»[3].

---

(١) «تُحفة الأحوذيِّ بشرح التِّرْمذيِّ» للمباركفوري (٥/ ٣٩٠).

(٢) رواه مسلم (٢٣١٥).

(٣) «صحيح»: أخرجه التِّرْمذيُّ (٤٠١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «المشكاة» (٦١١٨).

٥ ـ قِلَّةُ المُواساةِ:

المواساةُ بَيْنَ الأرحامِ لها عظيمُ الأثَرِ في تَوْطِيدِ العَلاقاتِ، وجَلْبِ المودَّةِ، ونَشْرِ المحبَّةِ، وللمواساةِ صُوَرٌ: فأحيانًا تكونُ المواساةُ بالمالِ، وأحيانًا تكونُ بالجاهِ والشَّفاعاتِ، وأحيانًا تكونُ بالبَدَنِ والخِدْمَةِ، وأحيانًا تكونُ بالنَّصيحةِ والإرشادِ، وأحيانًا تكونُ بالدُّعاءِ والاستغفارِ، وأحيانًا تكونُ بالتَّوجُّعِ والتَّألُّمِ، وأحيانًا تكونُ بالتَّسرِيةِ عَنْهُ، وإذهابِ الهُمومِ والأحزانِ، وإدخالِ السُّرورِ والفَرَحِ، وو ... إلخ[١].

وجميلٌ أَنْ تَقُومَ بما تستطيعُ مِنْ ذلك وما تُطِيقُ، وأنت هاشٌّ باشٌّ، فإنَّ إمساكَ المعروفِ مَعَ الانبساطِ خَيْرٌ مِنْ بَذْلِهِ مَعَ الانقباضِ، فإذا كان الانقباضُ قبيحًا مَعَ كُلِّ أَحَدٍ فهو مَعَ ذي الرَّحِمِ أشدُّ قُبْحًا، وما يَعْقِلُها إلَّا العالمون.

ومُواساةُ الأرحامِ أداءٌ لبَعْضِ الحقِّ، قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ حاثًّا على إيتاءِ الأقربين حُقُوقَهُم: ﴿ **فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴿٣٨﴾ ﴾ (الرُّوم: ٣٨).

وعن جابرٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أنَّه قال: أَعْتَقَ رَجُلٌ مِنْ بني عُذْرَةَ عَبْدًا له عَنْ دُبُرٍ[٢]، فبلغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ ، فقال: «**أَلَكَ مَالٌ غَيْرُهُ؟**». فقال: لا. فقال: «**مَنْ يَشْتَرِيهِ مِنِّي؟**». فاشتراهُ نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ الله العَدَوِيُّ بثَمَانِمِائَةِ دِرْهَمٍ، فجاء بها رسولَ الله ـ ﷺ ـ ، فَدَفَعَهَا إليه، ثُمَّ قال: «**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فتصدَّقْ عليها، فإنْ فَضَلَ شيءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شيءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فإنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شيءٌ فهكذا وهكذا**». يقولُ: فَبَيْنَ يَدَيْك، وعَنْ يَمِينِكَ، وعَنْ شِمَالِكَ[٣].

---

(١) انظر «فقه الأخلاق» للعَدَويِّ (٢/ ٢٣٣).

(٢) عن دُبُرٍ: أي عَلَّق عِتْقَهُ بموتِهِ، فقال: أنت حُرٌّ يَوْمَ أَمُوتُ.

(٣) رواه البخاريُّ (٧١٨٦) ، ومسلم (٩٩٧)، واللَّفظ له.

وعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ : أنَّ مَيْمُونَةَ بِنْتَ الحارثِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أَخْبَرَتْهُ: أنَّها أَعْتَقَتْ وَلِيدَةً[1]، ولم تستأذِنِ النَّبيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، فلمَّا كان يَوْمُهَا الَّذي يَدُورُ عليها فيه، قالتْ: أَشَعَرْتَ ـ يا رسولَ اللهِ ـ أنِّي أَعْتَقْتُ وَلِيدَتي؟. قال: «**أَوَفَعَلْتِ؟**». قالتْ: نَعَمْ. قال: «**أَمَا إِنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوالَكِ كَانَ أَعْظَمَ لأَجْرِكِ**»[2].

وعن زَيْنَبَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: قال رسولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : «**تَصَدَّقْنَ ـ يا مَعْشَرَ النِّسَاءِ ـ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ**». قالتْ: فرَجَعْتُ إلى عَبْدِ الله، فقلتُ: إِنَّك رَجُلٌ خَفِيفُ ذاتِ اليَدِ[3]، وإنَّ رسولَ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَدْ أَمَرَنا بالصَّدَقَةِ، فَأْتِهِ فاسأَلْهُ، فإِنْ كان ذلك يَجْزِي عنِّي، وإلَّا صَرَفْتُها إلى غَيْرِكُمْ، فقال عَبْدُ اللهِ: بل ائْتِيْهِ أَنْتَ. قالتْ: فانطلقتُ فإذا امرأةٌ مِنَ الأنصارِ ببابِ رسولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، حاجتي حاجتُها، قالتْ: وكان رسولُ اللهِ قَدْ أُلْقِيَتْ عليهِ المَهَابَةُ، قالتْ: فَخَرَجَ علينا بلالٌ، فَقُلْنَا لَهُ: ائْتِ رسولَ اللهِ فَأَخْبِرْهُ أنَّ امرأتَينِ بالبَابِ تَسْأَلانِكَ: أَتُجْزِئُ الصَّدَقَةُ عَنْهُمَا على أزواجِهِما، وَعَلَى أيتامٍ في حُجُورِهِمَا[4]، ولا تُخْبِرْهُ مَنْ نَحْنُ، قالتْ: فَدَخَلَ بلالٌ على رسولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فسأله، فقال له رسولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : «**مَنْ هُمَا؟**». فقال: امرأةٌ مِنَ الأَنْصَارِ وزَيْنَبُ. فقال رسولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : «**أَيُّ الزَّيَانِبِ؟**». قال: امرأةُ عَبْدِ اللهِ[5]. فقال لَهُ رسولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : «**لَهُمَا أَجْرَانِ: أَجْرُ القرابةِ، وأَجْرُ الصَّدَقَةِ**[6]»[7].

---

(١) **وليدة**: أي جارية.

(٢) رواه البخاريُّ (٢٥٩٢)، واللفظ له، ومسلم (٩٩٩).

(٣) **خفيف ذات اليد**: كناية عن الحاجةِ والفقرِ.

(٤) حجورهما: الحجور جمع حِجْرٍ ـ بالفتح وبالكسر ـ، وهو الحِضْنُ، يقال: فُلانٌ في حجرِ فُلانٍ أي: في كَنَفِهِ وحمايته.

(٥) عبد الله: هو عبد الله بن مسعودٍ، وهو ـ أيْ: عَبْدُ الله ـ متى أُطْلِقَ اسْمُهُ بَيْنَ الصَّحابةِ فابنُ مسعودٍ، وهو المقصودُ باتِّفاقِ عُلماءِ الحديثِ والسِّيَرِ، فلا يحمل هذا الاسم أحد بعده أفضلُ ولا أعلمُ منه، والله أعلم.

(٦) أي: أَجْرُ صِلَةِ الرَّحِمِ، وأَجْرُ مَنْفَعَةِ الصَّدقةِ.

(٧) رواه البخاريُّ (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠)، واللَّفْظُ له.

والحديثُ دَلَّ على أَنَّ الصَّدقةَ على القَرابةِ لها أَجْرَانِ: أَجْرُ القرابةِ، وأَجْرُ الصَّدقةِ، ويتأيَّدُ بحديثِ سَلْمَانَ بْنِ عامرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «**الصَّدَقَةُ على المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وهي على ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ، وصِلَةٌ**»(١).

وإنْ تَعْجَبْ فعجبٌ لأُناسٍ بَيْنَهُمْ قَرابةٌ، وبَيْنَهُمْ جِوَارٌ(٢)، ولسانُ حالِ القَرِيبِ المُجاوِرِ:

فياليتَكَ إذْ لَمْ تَـرْعَ حَـقَّ قَرابتِـي ... فَعَلْـتَ كَـمَا الجَـارُ المُجـاوِرِ يَفْعَـلُ

وأفضلُ الصَّدقةُ على ذِي الرَّحِمِ الكاشِحِ الَّذي يَطْوِي كَشْحَهُ على العَداوةِ، ويتباعدُ عنك؛ فعن كُلْثُومِ بِنْتِ عُقْبَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالتْ: قال رسولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ على ذِي الرَّحِمِ الكاشِحِ**(٣)»(٤).

قال **السفاريني** - رَحِمَهُ اللَّهُ - : «ينبغي للعاقلِ أَنْ يُبادِرَ إلى صِلَةِ ذي الرَّحِمِ الكاشِحِ، وأَنْ يَدْفَعَ ما عِنْدَهُ مِنَ الضِّغْنِ والبَغْضَاءِ بالإحسانِ والإغْضَاءِ، وأَنْ يَقْتُلَ شَيْطَانَ حِقْدِهِ وحَسَدِهِ بسهامِ بِرِّهِ ومُوالاتِهِ وتَفَقُّدِهِ، كما قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - :

---

(١) «صحيح»: أخرجه النَّسائيُّ (٥/ ٩٢)، والتِّرْمِذيُّ (٦٥٨)، وقال: حَسَنٌ، وابْنُ ماجَهْ (١٨٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التِّرْمِذيِّ» (٥٣١).

(٢) قال العلماء: الجيرانُ ثلاثة: جارٌ له حقٌّ واحدٌ، وجارٌ له حقَّانِ، وجارٌ له ثلاثةُ حُقُوقٍ؛ فالجارُ الَّذي له ثلاثةُ حُقُوقٍ: هو الجارُ المسلمُ ذو الرَّحِمِ، فله حقُّ الجِوارِ، وحَقُّ الإسلامِ، وحَقُّ الرَّحِمِ، وأمَّا الَّذي له حقَّانِ: فالجارُ المسلمُ، له حَقُّ الجِوارِ، وحَقُّ الإسلامِ، وأمَّا الَّذي له حَقٌّ واحدٌ: فالجارُ المُشْرِكُ.

(٣) جاء في «لسان العرب» (١٢/ ٩٩)، مادة كشح: «الكاشح: العدوُّ الَّذي يُضْمِرُ عداوتَهُ، ويَطْوِي عليها كَشْحَهُ (أي: باطِنَهُ)، والكَشْحُ: الخَصْرُ».

(٤) «صحيح»: أخرجه الحاكم (١/ ٤٠٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذَّهبيُّ، وأَقَرَّه المُنذريُّ (٢/ ٣٣)، وهو كما قال، وأخرجه ابْنُ خُزَيْمةَ في «صحيحه» (١/ ٢٤٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» (٨٩٢).

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت: ٣٤).
فكيف بالحَمِيمِ الَّذي هو قَرِيبٌ؟!».

ثُمَّ قال: «وعلى كُلِّ حالٍ الإحسانُ والمودَّةُ يَقْلِبَانِ العَدَاوَةَ صداقةً بلا مُحَالٍ»[١].

قلتُ: لله دَرُّهُ مِنْ إمامٍ!، فإنَّ النُّفُوسَ جُبِلَتْ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها.

ومِنْ طَرِيفِ ما يُذْكَرُ: أنَّه لَمَّا قَعَدَ أبو حَنِيفةَ للنَّاسِ، وكان كثيرًا ما يستعملُ القِياسَ، فضاق مُسَاوِرٌ الوَرَّاقُ بالقِياسِ ذَرْعًا، فقال:

كُنَّا مِنَ الدِّيْنِ قَبْلَ اليَوْمِ في سَعَةٍ ... حتَّى بُلِينا بِأَصْحَابِ المَقَايِيسِ
قَوْمٌ إذا اجْتَمَعُوا صاحُوا كأنَّهُمُ ... ثَعَالِبُ ضَبَحَتْ[٢] بَيْنَ النَّوَاوِيسِ[٣][٤]

فبلغ قَوْلُهُ أبا حَنِيفةَ، فبعث إليه بمالٍ، فقال مُساوِرٌ حِيْنَ قَبَضَ المالَ:

إذا ما النَّاسُ يومًا قايَسُونا ... بآيدةٍ[٥] مِنَ الفُتْيَا طَرِيفَهْ
أَتَيْنَاهُمْ بِمِقْيَاسٍ صحيحٍ ... مُعيبٍ مِنْ طِرَازِ أَبي حَنِيْفَهْ
إذا سَمِعَ الفَقِيهُ بِهَا وَعَاهَا ... وأَثْبَتَهَا بحِبْرٍ في صَحِيْفَه[٦]

وعن إسماعيلَ بْنِ أَبَانٍ قال: «بَلَغَ الحَسَنَ بْنَ عُمارةَ أَنَّ الأَعْمَشَ يَقَعُ فيه، فبعث إليه بكُسوةٍ، فلمَّا كان بَعْدَ ذلك مَدَحَهُ الأَعْمَشُ، فقيل له: كيف تَذُمُّهُ، ثُمَّ تمدَحُهُ؟!،

---

(١) «غذاء الألباب» (١/ ٢٧٦).
(٢) ضَبَحَتْ: أي صوَّتَتْ، وبابُهُ مَنَعَ، وضُباحًا ـ أيضًا بالضَّمِّ ـ.
(٣) **النواويس**: مقابر النَّصارى، واحدُها ناوُوس.
(٤) أي: لَقَدْ كُنَّا في رَحْبٍ وفُسْحَةٍ في دِيْنِ الله، إذْ أنَّه ميسور لا عُسْرَ فيه، حتَّى جاء أَهْلُ القِياسِ، فضيَّقوا واسعًا، وأفسدوا المجامِعَ.
(٥) **بآيدة**: أي بقَوِيَّةٍ.
(٦) «روضة العقلاء» لابن حبَّانَ (٣٩٦).

قال: إنَّ خيثمةَ حدَّثني عَنْ عَبْدِ الله قال: إنَّ القُلُوبَ جُبِلَتْ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها، وبُغْضِ مَنْ أساء إليها»[1] [2].

٦ - تخلِّي الرَّجُلِ عَنِ الصِّلَةِ عِنْدَما يَكُونُ مُعْسِرًا:

وهذا من الخَلَلِ الكبيرِ، وهو - أيضًا - من تلبيسِ إبْلِيسَ على الواصلِ، حتَّى إنَّ الرَّجُلَ المُعْسِرَ لَيَحْتَجِبُ عَنْ أرحامِهِ لسنواتٍ طوالٍ، كما قيل:

سأحجبُ عَنْ أُسْرَتي عِنْدَ عُسْرَتي ... وأَبْرُزُ إليهم إذا أَصَبْتُ رَخَاءَ

فَحَرِيٌّ بالمَرْءِ أَنْ يَسْتَدْرِكَ على نَفْسِهِ؛ فإنَّ الزِّيارةَ واللُّطْفَ والسَّلامَ أَقَلُّ ما تَحْصُلُ به صِلَةُ الرَّحِمِ، وإنَّما يُصابُ بالحَرَجِ والانقباضِ مَنْ لم يُخْلِصْ[3].

فعن سُوَيْدِ بْنِ عامرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**بُلُّوا أَرْحَامَكُم، ولو بالسَّلامِ**»[4]. ومعنى «**بُلُّوا**» أي: نَدُّوها بصِلَتِها، وهم يُطْلِقُونَ النَّداوةَ على الصِّلَةِ، كما يُطْلِقونَ اليَبْسَ على القَطِيعةِ[5]؛ لأنَّ النَّداوةَ مِنْ شَأْنِها تجميعُ ما يَحْصُلُ فيها وتأليفُهُ، بخلاف اليَبْسِ فمن شَأْنِهِ التفريقُ.

---

(١) ورد مرفوعًا وموقوفًا، وكلاهما لا يصحُّ، فقد رواه ابْنُ عَدِيٍّ (٨٢/ ١)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (١٦٠)، وأبو نعيمٍ في «الحلية»، والخطيب في «التاريخ» (٧/ ٣٤٦)، وفيه إسماعيلُ بْنُ أَبانٍ مُتَّهم بالوضع في الحديث.

(٢) «روضة العقلاء» (ص٣٩٧).

(٣) لا ينبغي للمسلم أن يُمَكِّنَ الشَّيطانَ من وَضْعِ الحواجزِ والعوائقِ بَيْنَهُ وبَيْنَ أرحامِهِ، سواء كان ذلك بسبب إعساره، أو لعداوة ... إلخ، بل عليه أن يتوجَّهَ إلى الله بعمله، ويَصِلَ رَحِمَهُ ولو بالسَّلامِ، عسى اللهُ أَنْ يجعلَ له مِنَ المهابةِ والقَبُولِ جزاءَ صَبْرِهِ واحتسابِهِ، ويجعلَ مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ يُسْرًا.

(٤) «**صحيح**»: أخرجه وَكِيعٌ في «الزهد» (٢/ ٧٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٧٧٧).

(٥) «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٣٨٠).

وقد ذكره العُلماءُ عِنْدَ تناولِهِمْ لحديثِ رسُولِ الله - ﷺ - : «ولَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ، سَأَبُلُّها بِبَلالِهَا»[١].

فالرَّحِمُ شُبِّهَتْ بالجِلْدِ الَّذي إذا تُرِكَ يابسًا صَعُبُ عليك، وشَقَّ عليك تحريكُهُ، أمَّا إذا بَلَّلْتَهُ بالماءِ، وتابَعْتَ ذلك، سَهُلَ عليك، وأصبح لَيِّنًا في يَدَيْكَ، وهكذا الرَّحِمُ، فإذا كنتَ تَصِلُ أقرباءك، وتُهْدِي إليهم، وتتفقَّدُ أحوالَهُم، وتسألُ عنهم، وتشارِكُهم أحزانَهُم وأفراحَهُم، فإنَّهُم - والحال هذِهِ - يستمعون إليك إذا حدَّثْتَهُمْ، ويَقْبَلُون مِنْكَ إذا نصحتهم، لعلمِهِمْ بحُنُوِّكَ عليهم، وشَفَقَتِكَ بهم، وحِرْصِك على وِصالِهِمْ.

أمَّا إذا هجرتهم وقطعتهم؛ فإنَّهم لا يَعْبَئُونَ بك ولا يُلقون لقولِكَ بالًا، ولا يُعِيرون نُصْحَكَ اهتمامًا، فبهذا يَظْهَرُ شيءٌ مِنْ فَضْلِ مَنْ وَصَلَ[٢].

وعن المَرْوَزيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أنَّه قال: «أَدخلتُ على أبي عَبْدِ الله (أحمدَ بْنِ حَنْبَلٍ) رجلًا مِنَ الثَّغْرِ، فقال: لي قرابة بالمَرَاغَةِ، تَرَى لي أَنْ أَرْجِعَ إلى الثَّغْرِ، أو تَرَى أَنْ أذهبَ فأسَلِّمَ على قرابتي؟، فقال له: استخرِ اللهَ، واذهبْ فَسَلِّمْ عليهم»[٣].

وقال مُثَنَّى: «قلتُ له (أَيْ: لأحمدَ بْنِ حَنْبَلٍ): الرجلُ يكونُ له القَرابةُ مِنَ النِّساءِ، فلا يقومون بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَيْشٍ[٤] يَجِبُ عليه مِنْ بِرِّهم؟، وفي كَمْ ينبغي أَنْ يَأْتِيَهُم؟، قال: اللُّطْفُ والسَّلامُ»[٥].

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٩٩٠) من حديثِ عَمْرِو بْنِ العاصِ.

(٢) انظر «فقه الأخلاق» للعَدَويِّ (٢/ ٢٢٣).

(٣) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٤٥٢).

(٤) فَأَيْشٍ: أصلها: أَيُّ شَيْءٍ، فاختصروها مع كَثْرة الاستعمالِ.

(٥) المرجع السابق (١/ ٤٥٢).

وقال ابْنُ جَرِيرٍ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «صِلَةُ الرَّحِمِ هي: أداءُ الواجبِ لها مِنْ حُقُوقِ الله الَّتي أوجب لها، والتلَطُّفُ عليها بما يَحِقُّ التَّعطُّفُ به عليها»[١].

٧ ـ تخلّي الرَّجُلِ عَنِ الصِّلَةِ عِنْدَما يَكُونُ مُوسِرًا:

بَعْضُ الناسِ يكونُ مُوسِرًا، يأنفُ مِنْ صِلَةِ أرحامِهِ، والتَّوَدُّدِ إليهم، ويَرَى في نَفْسِهِ أنَّه أَوْلَى أَنْ يُزارَ ولا يَزُورَ، وهذا بابٌ مِنْ أبوابِ الكِبْرِ، وأبوابُهُ الغامضةُ كَثيرةٌ.

والكِبْرُ يكسبُ صاحبَهُ المَقْتَ عِنْدَ الله والنَّاسِ، ويُوغِرُ صُدُورَ الأَرْحَامِ، فعلى مَنْ رَزَقَهُ اللهُ مالًا أنْ يَتواضعَ لله الَّذي رَزَقَهُ، ويَحْمَدَ اللهَ على توفيقِهِ له، ويجتهدَ أَنْ يَصِلَ رَحِمَهُ باللُّطْفِ والسَّلامِ والزِّيارةِ، وتعاهُدِهِمْ بالإحسانِ إليهم، وقَبُولِ أعذارِهِمْ، والصَّفْحِ عنهم، ونِسْيانِ مَعَايِبِهِمْ، ولو لم يعتذروا، والتَّواضُعِ ولِينُ الجانبِ لهم، وبَذْلِ المُستطاعِ لخدمتِهِمْ بمالِهِ وجاهِهِ، وتَرْكِ المِنَّةِ عليهم، والبُعْدِ عَنْ مُطالبتِهِمْ بالمِثْلِ، وأهمُّ من ذلك كُلِّهِ الصَّبْرُ عليهم، وسَعَةُ الصَّدْرِ لهم، واحتسابُ الأَجْرِ عِنْدَ الله، ولو لم يَنَلْ منهم شيئًا.

فإنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تَزِيدُ في الأَرْزاقِ والأعمارِ، فعن أَنَسِ بْنِ مالكٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِهِ، ويُنْسَأَ**[٢] **لَهُ في أَثَرِهِ**[٣]**، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[٤].

---

(١) «جامع البيان في تفسير القرآن» (١/ ١٤٤).

(٢) **ينسأ**: أي يُؤَخَّر ويُزَاد، وهو كناية عن البركة في العُمُرِ بسبب التَّوفيقِ إلى الطاعةِ، والصِّيانةِ عن المعصية بصلة الرَّحم، فيبقى بَعْدَهُ الذِّكْرُ الجميلُ؛ فكأنَّه لم يَمُتْ.

(٣) أثره: أي أجله، سُمِّيَ الأَجَلُ أَثَرًا؛ لأنَّه يَتْبَعُ العُمُرَ.

(٤) رواه البخاريُّ (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

جفافُ المشاعر مَعَ الجيران

لقد أوصى اللهُ - سبحانه وتعالى - بالجارِ خَيْرَ وصيَّةٍ، فقال ٱللَّهُ - سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ - :

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (النِّسَاء : ٣٦).

وعن عائشةَ - رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا - : أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: «ما زال جِبْرِيلُ يُوصِيني بالجارِ، حتَّى ظننتُ أنه سَيُوَرِّثُهُ[1]»[2]. إلى غَيْرِ ذلك من الأدلَّةِ على أهمِّيَّةِ حَقِّ الجارِ.

ولقد جَفَّتْ مشاعرُ كثيرٍ من الناس تُجاهَ الجِيرانِ بشكلٍ مُلْفِتٍ، وله صور، فمنها:

صورٌ مِنْ جفافِ المشاعرِ مَعَ الجيران :

١ - عَدَمُ الإحسانِ إلى الجارِ:

الإحسانُ إلى الجارِ مِنْ مكارِمِ الأخلاقِ، بَلْ إنَّ الجارَ الفقيرَ يتعلَّقُ بجارِهِ الغَنِيِّ يَوْمَ القِيامةِ بسَبَبِ مَنْعِهِ معروفَهُ.

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله - ﷺ - يقولُ: «كَمْ مِنْ جارٍ مُتَعَلِّقٍ بجارِهِ يَوْمَ القِيامةِ، يقولُ: يا ربِّ، هذا أَغْلَقَ بابَهُ دُوني، فمَنَعَ معروفَهُ»[3].

وعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله - ﷺ - يقولُ: «ليس المُؤْمِنُ الَّذي يَشْبَعُ وجارُهُ جائعٌ»[4].

---

(١) سيوِّرثه: أي سيبلغني من الله الأمر بتوريثه.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤).

(٣) «حسن»: أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (١١١)، وقال الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٨١): حَسَنٌ لغَيْرِه.

(٤) «صحيح»: أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (١١٢)، وقال الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٤٩): صحيحٌ.

عن أبي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال النَّبيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «**يا أبا ذَرٍّ، إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فأَكْثِرْ ماءَ المَرَقَةِ، وتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**»[1].

والكريمُ - حَقًّا - مَنْ يُكْرِمُ جارَهُ بحُدُودِ الطَّاقةِ، وبقَدْرِ المُستطاعِ، ولو بالكلمةِ الطَّيِّبةِ؛ فعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «**مَنْ كان يُؤْمِنُ باللهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ جارَهُ**»[2]، وفي روايةٍ: «**فَلْيُحْسِنْ إلى جارِهِ**»[3].

ومن جميلِ ما قيل في الإحسانِ إلى الجارِ، وتعاهُدِهِ بالطَّعامِ ما قاله حاتِمٌ الطَّائيُّ - يُخاطبُ امرأتَهُ - :

أَيَـا ابْنَـةَ عَبْـدِ الله وابْنَـةَ مالِـكٍ ... ويـا ابْنَةَ ذي الـبُرْدَيْنِ والفَـرَسِ الـوَرْدِ[4]

إذا مـا عَمِلْـتِ الـزَّادَ فالْتَمِـسي لَـهُ ... أَكِيلا، فإنِّي لَسْتُ آكِلَهُ وَحْـدِي أخـافُ

أَخًـا طارِقًـا أَوْ جـارَ بيْـتٍ، فـإنَّني ... مَـذَمَّاتِ الأحاديـثِ مِـنْ بَعْـدِي

وكيف يُسِيغُ[5] المَـرْءُ زادًا، وجَـارُهُ ... خَفِيفُ المِعَى بـادي الخَصَاصَةِ[6] والجَهْـدِ؟![7]

٢ - إيذاءُ الجارِ:

مـن النـاسِ مَـنْ عِـنْدَهُ جَـفافٌ في مشـاعرِهِ، فلا يُبالي بحُقُوقِ الجارِ، فتراه يُؤْذي جارَهُ تارةً بالسُّخْرِيَّةِ منه، وتارةً بإيذائِهِ لأولادِهِ، أوِ التَّجَسُّسِ على حَرِيمِهِ،

---

(١) «صحيح»: أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (١١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٣٦٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٣) رواه مسلم (٤٧).

(٤) الوَرْدُ من الخَيْلِ - بالفتح - : بَيْنَ الكُمَيتِ (أي: الَّذي خالط حُمْرتَهُ سَوادٌ) والأَشْقَرِ، والجمع وُرْدٌ، ووِرادٌ، وأورادٌ.

(٥) يُسيغ: أي يَهْنَأ ويَمْرَأ.

(٦) الخصاصة - بالفتح - : الفقر والحاجة.

(٧) «بهجة المجالس» (١/ ٢٩٣).

والجُلُوسِ في طريقٍ دُونَ إعطاءِ الطَّريقِ حقَّها من غَضِّ البَصَرِ ... إلى غَيْرِ ذلك مِنْ صُوَرِ الإيذاءِ.

وربُّنا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يقولُ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ (الحجرات: ١١).

وعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**والله لا يُؤْمِنُ، والله لا يُؤْمِنُ، والله لا يُؤْمِنُ**». قيل: ومَنْ يا رسولَ الله؟. قال: «**الَّذي لا يأمَنُ جارُهُ بوائقَهُ**[١]»[٢].

وعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**مَنْ كان يُؤْمِنُ بالله، واليَوْمِ الآخِرِ، فلا يُؤْذِ جارَهُ**»[٣].

والأدلَّة في تحريمِ إيذاءِ الجارِ كثيرةٌ، بل إنَّ حِفْظَ الجارِ وعَدَمَ إيذائِهِ مِنْ أسبابِ دُخُولِ الجنَّةِ، كما أنَّ إيذاءَ الجارِ مِنْ أسبابِ دُخُولِ النَّارِ.

فعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قيل للنَّبيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: يا رسولَ الله، إنَّ فُلانةَ تقومُ اللَّيلَ، وتصومُ النَّهارَ، وتَفْعَلُ وتَصَدَّقُ، وتُؤْذي جِيرانَها بلسانِها؟. فقال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**لا خيرَ فيها، هي مِنْ أهلِ النارِ**». قالوا: وفُلانَةُ تُصلِّي المكتوبةَ، وتَصَّدَّقُ بأثوارٍ[٤]، ولا تُؤْذي أَحَدًا؟. فقال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**هي مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[٥].

---

(١) بوائقه: أي شروره.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١٦).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٤) أثوار: جمع ثَوْرٍ، وهو القِطْعةُ العظيمةُ مِنَ الأَقِطِ، وهو اللَّبَنُ الجامدُ المُستحجِرُ، وهو - أيضًا - الجُبْنُ المُجَفَّفُ الَّذي يُتخذُ من مخيضِ لَبَنِ الغَنَمِ.

(٥) «صحيح»: رواه أحمدُ (٢/ ٤٤٠)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (١١٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٩٠).

فانظُرْ - أخي - إلى عاقبةِ إيذاءِ الجارِ، ولو لم يكن في عَدَمِ إيذاءِ الجارِ إلَّا حِفْظُ المروءةِ، لكان خَلِيقًا بالكريمِ أَنْ يَنْأَى بنفسِهِ عَنْ إيذاءِ جِيْرَانِهِ، فكيف وفيه السلامةُ وحَميدُ العاقبةِ؟!.

قال حسَّانُ بْنُ ثابتٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:

فمـــا أَحَــدٌ مِنَّــا بمُهْــدٍ لجــارِهِ ... أَذاةً، ولا مُـــزْرٍ بــه وَهْــوَ عائِــدُ
لِأَنَّــا نَــرَى حَــقَّ الجِــوارِ أَمَانَــةً ... ويَحْفَظُــهُ مِنَّــا الكــريمُ المُعاهِــدُ

٣ - عَدَمُ الصَّبْرِ على الجارِ:

الصَّبْرُ سيِّدُ الأخلاقِ، ورَفيقُ الدَّرْبِ، والطَّرِيقُ إلى الإمامةِ في الدِّيْنِ، وأَحَقُّ النَّاسِ بالصَّبْرِ الجميلِ الجارُ، بَلْ إنَّ الصَّبْرَ مِنْ أعظمِ حَقِّ الجارِ على جارِهِ.

روى المَرْوَزِيُّ عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قال: «لَيْسَ حُسْنُ الجِوارِ كَفَّ الأَذَى، حُسْنُ الجِوارِ الصَّبْرُ على الأَذَى»[١].

ومن الناسِ مَنْ جَفَّتْ مشاعرُهم، فتجِدُهم يَضِيْقُونَ من جارِهم لأَدْنَى هَفْوةٍ، وهذا لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ، بَلِ الجارُ حَقُّهُ الصَّبْرُ والتَّجَمُّلُ، فذلك من كمالِ المروءةِ، كما قيل: «مُرُوءةُ الرَّجُلِ صِدْقُ لِسانِهِ، واحتمالُ عَثَراتِ جِيْرَانِهِ، وبَذْلُ المعروفِ لأَهْلِ زمانِهِ، وكَفُّ الأَذَى عن أباعدِهِ وجِيْرَانِهِ».

والصَّبْرُ على أَذَى الجارِ الحديثُ عَنْهُ ذُو شُجُونٍ[٢]، وما أَجْمَلَ التَّغافُلَ عَنْ كُلِّ ما يَصِلُكَ مِنْ أَذَى الجارِ!، فذلك طريقٌ إلى العافيةِ والسلامةِ.

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٦)، و«جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٥٣).

(٢) الحديث ذُو شُجُون: أي ذو فُنُونٍ وشُعَبٍ وتَشَبُّثٍ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، الواحِدُ شَجَن - بفتحتين -، يُضْرَبُ هذا مَثَلًا للحديثِ يُسْتذكرُ به غَيْرُهُ.

فقد روى البَيْهَقِيُّ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في مناقبِ الإمامِ أحمدَ عَنْ عُثْمانَ بْنِ زائدةَ قال: العافيةُ عَشَرَةُ أجزاءٍ، تِسْعَةٌ منها في التَّغافُلِ، فَحَدَّثْتُ به أحمدَ بْنَ حَنْبَلٍ، فقال: «العافيةُ عَشَرَةُ أجزاءٍ، كُلُّها في التَّغافُلِ[1]»[2].

أقولُ لجاري - إذا أتاني مُعاتِبًا ... مُدِلًّا بحَقٍّ، أو مُدِلًّا بباطِلِ -:

إذا لم يَصِلْ خَيْري - وأَنْتَ مُجاوِري - ... إِلَيْكَ، فما شَرِّي إِلَيْكَ بواصِلِ

٤ - عَدَمُ تعليمِ الأولادِ حُقُوقَ الجارِ:

إنَّ مِنْ جفافِ المشاعرِ عَدَمَ تعليمِ الأولادِ حُقُوقَ الجارِ، واحترامَهُ في نَفْسِهِ وأَهْلِهِ، وتقديرَهُ وتقديرَ مشاعرِهِ، وعَدَمَ التَّعرُّضِ لأولادِهِ بالإيذاءِ.

وحُقُوقُ الجارِ كثيرةٌ، لعلَّ أهمَّها ما ذكرها الإمام الغزالي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - قال: «وجُمْلَةُ حَقِّ الجارِ: أَنْ يَبْدَأَهُ بالسَّلامِ، ولا يُطيلَ مَعَه الكلامَ، ولا يُكْثِرَ عَنْ حالِهِ السُّؤالَ، ويَعُودَهُ في المَرَضِ، ويُعَزِّيهِ في المُصيبةِ، ويَقُومُ مَعَهُ في العَزَاءِ، ويُهَنِّئَهُ في الفَرَحِ، ويُظْهِرَ الشراكةَ في السُّرورِ معه، ويَصْفَحَ عَنْ زَلَّاتِهِ، ولا يتطلَّعَ من السَّطْحِ إلى عَوْراتِهِ، ولا يُضايِقَهُ في وَضْعِ الجِذْعِ على جدارِهِ، ولا في مَصَبِّ الماءِ في مِيزابِهِ، ولا في مَطْرَحِ التُّرابِ في فِنائِهِ، ولا يُضَيِّق طُرُقَهُ إلى الدَّارِ، ولا يُتْبِعَهُ النَّظَرَ فيما يَحْمِلُهُ إلى دارِهِ، ويَسْتُرَ ما ينكشفُ له من عوراتِهِ، ويُنْعِشَهُ من صَرْعَتِهِ إذا نابَتْهُ نائبةٌ، ولا يَغْفُلَ عن ملاحظةِ دارِهِ عِنْدَ غَيْبتِهِ، ولا يسمعَ عليه كلامًا، ويَغُضَّ بَصَرَهُ عَنْ حُرْمَتِهِ، ولا يُدِيمَ النَّظَرَ إلى خادمتِهِ، ويَتَلَطَّفَ بوَلَدِهِ في كلمتِهِ، ويُرْشِدَهُ إلى ما يَجْهَلُهُ مِنْ أَمْرِ دينِهِ وَدُنْياهُ»[3].

---

(١) يعني: أنَّ السلامةَ من أَذَى النَّاسِ تنحصرُ أسبابُها في إظهارِ الغَفْلَةِ عَنْ شُرُورِهم وأذاهم، يُرِيهم أنَّه لم يَفْطُنْ لها.

(٢) «الآداب الشرعية» لابن مُفْلِح (٢/ ١٠٤).

(٣) «الإحياء» (٢/ ٢١٣).

وتعليمُ الأولادِ حُقُوقَ الجارِ دَأْبُ السَّلَفِ، والأحاديثُ في ذلك ذاتُ شُجُونٍ، ومِنْ طريفِ ما يُذْكَرُ: أنَّ عَبْدَ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ قال لمؤدِّب وَلَدِهِ: إذا روَّيتَهُم شِعْرًا[1]، فلا تُرَوِّهِمْ إلَّا مِثْلَ قَوْلِ العُجَيْرِ السَّلُوليِّ:

يَبِيْنُ[2] الجارُ حِيْنَ يَبِينُ عَنِّي ... ولَمْ تَأْنَسْ إليَّ كِلابُ جاري[3]

وتَظْعَنُ[4] جارتي مِنْ جَنْبِ بَيْتي ... ولَمْ تُسْتَرْ بسِتْرٍ مِنْ جِدَارِ[5]

وتَأْمَنُ أَنْ أُطَالِعَ حِيْنَ آتي ... عليها وهي واضِعَةُ الخِمَارِ[6]

كذلك هَدْيُ آبائي قَدِيمًا ... تَوارَثَهُ النِّجارُ[7] عَنِ النِّجارِ[8]

٥ - قِلَّةُ التَّهادي بَيْنَ الجيرانِ:

قد يحصُلُ بَيْنَ الجِيرانِ ما يُعَكِّرُ صَفْوَ المودَّةِ والمَحَبَّةِ، وكثيرًا ما يحصُلُ نتيجةَ هَفْوَةٍ أو زَلَّةٍ، كما يَحْصُلُ بَيْنَ الأقاربِ لقُرْبِ الدَّارِ، لهذا كانتِ المحبَّةُ بَيْنَ الأباعِدِ أَثْبَتَ، والمودَّةُ أَحْمَدَ.

---

(١) روَّاهُ الشِّعْرَ: حَمَلَهُ على رِوايتِهِ.

(٢) البَيْنُ: البُعْدِ والفراق، وبابُهُ باع، وبَيْنُونةً - أيضًا -.

(٣) أي: إنَّ كلابَ الجارِ لَمْ تَأْنَسْ إليه لِعَدَمِ تَرَدُّدِهِ إلى بَيْتِ جارِهِ.

(٤) الظَّعن: السَّير والارتحال، وبابه مَنَعَ، وظَعَنًا - أيضًا بالتحريك -.

(٥) أي: إنَّ جارتَهُ تخرج من بيتها مُرورًا بجِوار بيتِهِ، ولا تُسْتَرُ بسِتْرٍ، فهو مَنْ يَسْتُرُها بِغَضِّ بَصَرِهِ عنها، كما قال عَنْتَرَةُ - وهو في ديوانه (ص٧٦) -:

وأَغُضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لي جارتي ... حَتَّى يُواري جارتي مَأْواها

(٦) أي: إنَّها تأمَنُ مِنَ أَنْ أُسارِقَها النَّظَرَ، ولو كانت بغَيْرِ نِقابٍ، قال بشَّارُ بْنُ بِشْرٍ المُجاشعيُّ - كما في «بهجة المجالس» (١/ ٢٩١) -:

وإنِّي لَعَفٌّ عَنْ زيارة جارتي ... وإنِّي لَمَشْنُوءٌ لَدَيَّ اغْتِيابُها

إذا غاب عنها بَعْلُها لم أَكُنْ لها ... زَءُورًا، ولَمْ تَأْنَسْ إليَّ كِلَابُها

ولَمْ أَكُ طَلَّابًا أحاديثَ سِرِّها ... ولا عالِمًا مِنْ أيِّ جِنْسٍ ثِيابُها

(٧) النِّجار - بالكسر والضَّمِّ -: الأَصْل.

(٨) «الهداية الإسلامية» (ص٧٩ - ٨٠).

قال ابْنُ عَبْدِ البَرِّ: «قال رجلٌ لسعيدِ بْنِ العاصِ: واللهِ، إنِّي أُحِبُّكَ. فقال لَهُ: ولِمَ لا تُحِبُّني ولَسْتَ بجارٍ لي ولا ابْنِ عَمٍّ؟، كان يُقالُ: الحَسَدُ في الجِيرانِ، والعَدَاوَةُ في الأَقَارِبِ»[١].

فإذا كان الأمرُ كذلك، فلا شَيْءَ يَسُلُّ سَخائِمَ الصُّدُورِ[٢]، ويُجَدِّدُ عَهْدَ المحبَّةِ والمودَّةِ كالهَدِيَّةِ؛ وقَدْ حَثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على الإهداءِ بقَوْلِهِ: «تَهَادَوْا تَحَابُّوا»[٣].

وعن عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قالتْ: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ لي جارَيْنِ[٤]، فإلى أَيِّهِما أُهْدِي؟. قال: «إلى أَقْرَبِهِما مِنْكِ بابًا»[٥].

قال ابْنُ حَجَرٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: «وقولُهُ: «أَقْرَبِهِما»، أي: أَشَدِّهما قُرْبًا، قيل: الحكمةُ فيه: أنَّ الأَقْرَبَ يَرَى ما يَدْخُلُ بَيْتَ جارِهِ مِنْ هَدِيَّةٍ وغَيْرِها، فيتشوَّفُ لها، بخلافِ الأَبْعَدِ، وأَنَّ الأَقْرَبَ أَسْرَعُ إجابةً لما يَقَعُ لجارِهِ مِنَ المُهِمَّاتِ، ولا سيَّما في أوقاتِ الغَفْلَةِ.

وقال ابْنُ أبي جَمْرَةَ: الإهداءُ إلى الأَقْرَبِ مَنْدُوبٌ؛ لأنَّ الهَدِيَّةَ في الأَصْلِ لَيْسَتْ واجبةً، فلا يكونُ التَّرتيبُ فيها واجبًا»[٦].

---

(١) «بهجة المجالس» (١/ ٢٨٩).

(٢) سخائم الصدور: وَحَرُها، وهي الحِقْدُ، والحَسَدُ، والبَغْضاءُ، والعَداوةُ، وسُوءُ الظَّنِّ، فالهديَّةُ تُذِيبُ ذلك كُلَّهُ، كما تُذِيبُ الشَّمْسُ الجليدَ، ولا سيَّما إذا كانتْ خالصةً لله، ولم يَتْبَعْها مَنٌّ ولا أَذًى.

(٣) «حسن»: أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، وحسَّنه الألبانيُّ لشواهده في «صحيح الجامع» (٣٠٠٤).

(٤) قَدْ يَظُنُّ ظانٌّ أنَّ الجارَ ما جاورك في الدَّارِ فَقَطْ، وليس كذلك، بل إنَّ الجارَ إلى أربعين دارًا، ثبت ذلك عن الحَسَنِ البَصْريِّ، أخرج البُخاريُّ في «الأدب المفرد» بسندٍ حسنٍ (١٠٩)، وحسَّنه الألبانيُّ عن الحَسَنِ أنَّه سُئِلَ عَنِ الجارِ، فقال: «أربعين دارًا أمامَهُ، وأربعين خَلْفَهُ، وأربعينَ عَنْ يمينِهِ، وأربعين عن يسارِهِ».

(٥) رواه البخاريُّ (٢٢٥٩).

(٦) «فتح الباري» (١٠/ ٤٦١).

٦ - رَدُّ هَدِيَّةِ الجارِ:

إنَّ رَدَّ هَدِيَّةِ الجارِ، وعَدَمَ قَبُولِها لَيْسَ مِنْ أَخْلاقِ عُظَماءِ الرِّجالِ، بَلِ العظيمُ - حقًّا - مَنْ يُسارعُ إلى قَبُولِ هَدِيَّةِ جارِهِ مهما كانتْ، ويُثيبُ عليها[1] إذا قَدَرَ، وقَدْ حَثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على قَبُولِ الهَدِيَّةِ وعَدَمِ رَدِّها؛ فعن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: **«أَجِيبُوا الدَّاعِيَ، ولا تَرُدُّوا الهَدِيَّةَ»**[2].

قال **ابْنُ حبَّانَ** - رَحِمَهُ اللهُ -: «زَجْرُ النَّبيِّ - ﷺ - في هذا الخَبَرِ عَنْ تَرْكِ قَبُولِ الهدايا بين المسلمين؛ فالواجبُ على المَرْءِ إذا أُهْدِيَتْ إليه هَدِيَّةٌ أَنْ يَقْبَلَها ولا يَرُدَّها، ثُمَّ يُثِيبَ عليها إذا قَدَرَ، ويَشْكُرَ عنها، وإنِّي لَأَسْتَحِبُّ للنَّاسِ بَعْثَ الهَدَايا إلى الإخوانِ بَيْنَهُمْ؛ إذِ الهَدِيَّةُ تُورِثُ المحبَّةَ، وتُذْهِبُ الضَّغينةَ»[3].

وقال - أيضًا - «فالعاقلُ يستعملُ مَعَ أَهْلِ زَمانِهِ لزوم بَعْثِ الهدايا بما قَدَرَ عليه لاستجلابِ مَحَبَّتِهِمْ إيَّاهُ، ويُفارِقُهُ تَرْكُهُ مخافةَ بُغْضِهِم»[4].

إنَّ الهَدِيَّةَ حُلْوَةٌ ... كالسِّحْرِ تَخْتَلِبُ القُلُوبَا
تُدْنِي البعيدَ مِنَ الهَوَى ... حتَّى تُصَيِّرَهُ قَرِيبَا
وتُعِيدُ مُضْطَغِنَ العَدَا ... وَةِ - بَعْدَ بِغْضَتِهِ - حَبِيبا
تَنْفِي السَّخِيمةَ[5] مِنْ ذَوِي الشَّـ ... ـحْنَا، وتَمْتَحِقُ الذُّنُوبا[6].

---

(١) رواه البخاريُّ في «صحيحه» (٢٥٨٥) عن عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قالتْ: «كان رسولُ اللهِ - ﷺ - يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ، ويُثِيبُ عليها».

(٢) «**صحيح**»: رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (١٥٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٥٨).

(٣) «روضة العقلاء» (ص٢٤٢). (٤) المرجع السابق (ص٢٤٣).

(٥) السَّخيمة: الحقد، والجمع سخائمُ.

(٦) «روضة العقلاء» (ص٢٤٣).

وقال آخَرُ:

هَدَايا النَّاسِ بَعْضِهُمُ لِبَعْضٍ ... تُوَلِّدُ في قُلُوبِهِمُ الوِصَالَا
وتَزْرَعُ في القُلُوبِ هَوَىً ووُدًّا ... وتَكْسُوكَ المَهَابَةَ والجَلَالَا
مَصايِدُ لِلْقُلُوبِ بِغَيْرِ لَغَبٍ[1] ... وتَمْنَحُكَ المَحَبَّةَ والجَمَالَا[2].

٧ ـ استقلالُ هَدِيَّةِ الجارِ واحتقارُها:

مِنَ التواضُعِ وكمالِ الأَدَبِ قَبُولُ الهَدِيَّةِ، سواء قَلَّتْ أو كَثُرَتْ، عَظُمَتْ أَوْ حَقُرَتْ؛ فقد كان النَّبيُّ ـ ﷺ ـ يَقْبَلُ القليلَ كما يَقْبَلُ الكَثِيرَ، ويَقْبَلُ الحَقِيرَ كما يَقْبَلُ الخَطِيرَ.

فعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، عَنِ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «**لَوْ دُعِيتُ إلى ذِراعٍ ـ أَوْ كُرَاعٍ[3] ـ لأَجَبْتُ، ولَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِراعٌ ـ أَوْ كُرَاعٌ ـ لَقَبِلْتُ**»[4].

قال الحافظُ بْنُ حَجَرٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «وخَصَّ الذِّراعَ والكُراعَ بالذِّكْرِ؛ ليجمعَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ: الحقيرِ، والخطيرِ؛ لأَنَّ الذِّراعَ كانتْ أَحَبَّ إليه مِنْ غَيْرِها، والكُراع لا قِيمةَ لَهُ»[5].

وعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**يا نساءَ المُسْلِماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لجارتِها، ولو فِرْسِنَ[6] شَاةٍ**»[7].

---

(١) اللَّغَبُ: التعب والإعياء. (٢) «روضة العقلاء» (ص١٤٤).

(٣) الكُرَاعُ: هو من الدَّابَّةِ ما بَيْنَ الرُّكْبةِ إلى السَّاقِ، وجَمْعُهُ كُرُعٌ، وفي المَثَلِ: «أُعْطِيَ العَبْدُ الكُراعَ، فَطَمِعَ في الذِّراعِ»، يُضْرَبُ لِمَنْ أُعْطِيَ شيئًا لم يَكُنْ يَرْجُوهُ، فَطَمِعَ في أكثرَ منه.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٥٦٨). (٥) «فتح الباري» (٥/ ٢٣٦).

(٦) الفِرْسِن ـ بكسر الفاءِ والسِّين، بَيْنَهُما راءٌ ساكنةٌ ـ: عُظَيْمٌ قليلُ اللَّحمْ، وهُوَ خُفُّ البعير، ورُبَّما اسْتُعِيرَ للشَّاةِ، وهو الظِّلْفُ، وجَمْعُها فَراسِنُ.

(٧) رواه البخاريُّ (٦٠١٧)، ومسلم (١٠٣٠).

ومعنى الحديثِ: لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ أَنْ تُهْدِيَ إلى جارتِها شيئًا، ولو أَنْ تُهْدِيَ لها ما لا يُنتفعُ به في الغالبِ، وإنَّما حَذَفَ المَفْعُولَ؛ لأنَّ المُخاطبينَ يعرفون المُرادَ منه[1].

قال النَّوويُّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «ومعناه: لا تَمْتَنِعْ جارةٌ مِنَ الصَّدقةِ والهَدِيَّةِ لجارتِها؛ لاستقلالِها واحتقارِها الموجودَ عِنْدَها، بَلْ تَجُودُ بما تيسَّر، وإن كان قليلًا: كفِرْسِنِ شَاةٍ، وهو خيرٌ مِنَ العَدَمِ، وقد قال اللهُ ـ تعالى ـ : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧).

وقال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ : «**اتَّقُوا النَّارَ، ولو بشِقِّ تَمْرَةٍ**»[2].

قال القاضي: هذا التَّأْويلُ هُوَ الظَّاهرُ، وهُوَ تأويلُ مالكٍ؛ لإدخالِهِ هذا الحديثَ في بابِ التَّرْغيبِ في الصَّدقةِ، قال: ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَهْيًا للمُعْطَاةِ عَنِ الاحتقارِ»[3].

وقال ابْنُ حَجَرٍ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «وقال الكِرْمانيُّ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ للمُعْطِيَةِ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ للمُهْدَى إليه. قُلْتُ: ولا يَتِمُّ حَمْلُهُ على المُهْدَى إليها إلَّا بجَعْلِ اللَّامِ في قَوْلِهِ: «لجارتِهَا» بمعنى (مِنْ)، ولا يَمْتَنِعُ حَمْلُهُ على المَعْنَيَيْنِ»[4].

وقال ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «أَيْ: لا تَحْقِرَنَّ أَنْ تُهْدِيَ إلى جارتِها شيئًا، ولو أَنَّها تُهْدِي لها ما لا يُنْتَفَعُ به في الغالبِ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بابِ النَّهْيِ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرًا بضِدِّهِ، وهو كِنايةٌ عَنِ التَّحابُبِ والتَّوادُدِ، فكأنَّه قال: لِتُوادِدِ الجارةُ جارتَها بهديَّةٍ، ولَوْ حَقُرَتْ، فيتساوى في ذلك الغَنِيُّ والفَقِيرُ، وخَصَّ النَّهْيَ بالنِّساءِ؛ لأنَّهُنَّ مواردُ المودَّةِ والبَغْضَاءِ، ولأنَّهُنَّ أَسْرَعُ انفعالًا في كُلٍّ مِنْهُما»[5].

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٥٨).

(٢) أخرجه البُخاريُّ (٦٥٤٠)، ومسلم (١٠١٦).

(٣) «شرح النوويِّ على مسلم» (٧/ ٩٩).

(٤) «فتح الباري» (١٢/ ٥٩).

(٥) المرجع السابق (١٢/ ٥٨ ـ ٥٩).

ومِنْ جميلِ ما قِيلَ في الهَدِيَّةِ:

جَاءَتْ سُلَيْمانَ يَوْمَ العَرْضِ هُدْهُدَةٌ ... أَهْدَتْ لَهُ مِنْ جَرادٍ كَانَ فِي فِيْهَا

وأَنْشَدَتْ بِلِسانِ الحَالِ قائلَةً: ... إنَّ الهدايا على مِقْدَارِ مُهْدِيْهَا

لَوْ كَان يُهْدَى إلى الإِنْسَانِ قِيْمَتُهُ ... لكانَ يُهْدَى لَكَ الدُّنْيا وما فِيْهَا

وقال آخَرُ:

هَدِيَّتي تَصْغُرُ عَنْ هِمَّتي ... وهِمَّتي تَكْبُرُ عَنْ مالي

فَخَالِصُ الوُدِّ ومَحْضُ الصَّفا ... أَفْضَلُ ما يُهْدِيهِ أَمْثالي

جفافُ المشاعرِ مَعَ الحُكَّامِ

٣

جفافُ المشاعرِ مَعَ الحُكَّامِ أَشْهَرُ مِنْ نارٍ على عَلَمٍ، وإنَّ ذلك لكائنٌ في مُخْتَلَفِ البُلْدانِ، ولا يَخْلُو مِنْهُ عَصْرٌ أو مِصْرٌ [1] لجَهْلِ النَّاسِ، وبُعْدِ عَهْدِهِمْ بمَنْهَجِ الأنبياءِ، وينتجُ عن جفافِ المشاعرِ مَعَ الحُكَّامِ أمورٌ منها:

صور من جفاف المشاعر مع الحُكَّامِ:

١ ـ عَدَمُ تَوْقِيرِهِمْ:

الحُكَّامُ ـ أَيْنَمَا كانوا ـ لهم علينا حقوقٌ، كما لنا عليهم حقوقٌ، فمن حقِّهم علينا التَّوقيرُ؛ فَنُوقِّرُهم ونُوقِّرُ ـ لتوقيرهم ـ كُلَّ عاملٍ لهم يعملُ بإذْنٍ منهم [2].

فعن أبي بَكْرَةَ ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ يقولُ: «**مَنْ أَكْرَمَ سُلْطَانَ اللهِ ـ تبارك وتعالى ـ في الدُّنيا؛ أكرمه اللهُ يَوْمَ القيامةِ، ومَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللهِ ـ تبارك وتعالى ـ في الدُّنيا؛ أهانه اللهُ يَوْمَ القِيامةِ**» [3].

---

(١) المِصْر ـ بالكسر ـ: القُطْر والبَلَدُ، والجمع أَمْصارٌ.

(٢) إنَّه يجب علينا أن نقومَ بحقوقِ الحكَّامِ كاملةً غَيْرَ منقوصةٍ، ولو لم يقوموا بالواجب عليهم تُجاهَ الرَّعِيَّةِ، فعليهم ما حُمِّلوا، وعلينا ما حُمِّلنا من الحقوقِ، ففي صحيح مسلمٍ (١٨٤٦) من حديث عَلْقَمَةَ بْنِ وائلٍ الحَضْرَميِّ عن أبيه قال: سأل سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الجُعْفيُّ رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ، فقال: يا نبيَّ الله، أَرَأَيْتَ إنْ قامتْ علينا أُمراءُ، يَسألوننا حَقَّهم، ويَمْنَعُونا حقَّنا، فما تَأْمُرُنا؟. فأعرض عنه، ثُمَّ سأله فأعرض عنه، ثُمَّ سأله في الثَّانيةِ ـ أو في الثالثةِ ـ فجذبه الأشعثُ بْنُ قَيْسٍ، وقال: «**اسْمَعُوا وأَطِيعُوا، فإنَّما عليهم ما حُمِّلوا، وعليكم ما حُمِّلْتُمْ**». أي: علينا بما كُلِّفنا به من السَّمْعِ والطَّاعةِ، فإنْ قُمْنا بما يَجِبُ علينا، يكافئنا اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ بحُسْنِ المَثُوبةِ والأَجْرِ.

ويُؤَيِّدُ ذلكَ ما جاء في البخاريِّ (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣) من حديثِ عَبْدِ الله بْنِ مسعودٍ ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذي عليكم، وتسألون اللهَ الَّذي لَكم**».

(٣) «حسن»: أخرجه أحمدُ في «المسند» (٥/ ٤٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٥/ ٣٧٦).

وعَنْ مُعاذِ بْنِ جَبَلٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: عَهِدَ إلينا رسولُ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ في خَمْسٍ، مَنْ فَعَلَ مِنْهُنَّ كان ضامِنًا على الله: «مَنْ عاد مَرِيضًا، أَوْ خَرَجَ مَعَ جِنَازَةٍ، أو خَرَجَ غازِيًا في سبيلِ الله، أو دخل على إمامٍ يُرِيدُ تَعْزِيرَهُ وتَوْقِيرَهُ، أَوْ قَعَدَ في بَيْتِهِ فيسْلَمُ النَّاسُ منه ويَسْلَمُ»[1].

٢ ـ التَّهاوُنُ بأَمْرِ السَّمْعِ والطَّاعةِ:

من جفافِ المشاعرِ التهاوُنُ بأَمْرِ السَّمْعِ والطَّاعةِ لحُكَّامِ المسلمين، وهذا من الخَلَلِ الفادحِ، والجَهْلِ البالغِ؛ فإنَّ السَمْعَ والطَّاعةَ لحكَّامِ المسلمين ـ في غَيْرِ معصيةٍ ـ مُجْمَعٌ على وجوبِهِ عند أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، والإجماعُ مَبْنِيٌّ على النُّصُوصِ الشَّرْعيَّةِ.

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النِّسَاءِ: ٥٩).

قال ابْنُ سَعْدِيٍّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «وأَمَرَ بطاعةِ أُولي الأَمْرِ، وهُمُ الوُلاةُ على النَّاسِ من الأمراءِ والحُكَّامِ والمُفْتِينَ؛ فإنَّه لا يستقيمُ للنَّاسِ أَمْرُ دينهم ودُنْياهم إلَّا بطاعَتِهِمْ والانقيادِ لهم طاعةً للهِ، ورَغْبةً فيما عِنْدَهُ، ولكنْ بشَرْطِ ألَّا يأمُروا بمعصيةٍ، فإنْ أمروا بذلك، فلا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ.

ولعلَّ هذا هُوَ السِّرُّ في حَذْفِ الفِعْلِ عِنْدَ الأَمْرِ بطاعَتِهِمْ، وذِكْرِهِ مَعَ طاعةِ الرَّسُولِ؛ فإنَّ الرَّسُولَ لا يَأْمُرُ إلَّا بطاعةِ اللهِ، ومَنْ يُطِعْهُ فَقَدْ أطاعَ اللهَ، وأمَّا أُولوا الأَمْرِ فَشَرْطُ الأَمْرِ بطاعتهم ألَّا يكونَ معصيةً»[2].

---

(١) «صحيح»: أخرجه أحمدُ (٥/ ٢٤١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (٢/ ٤٩٠/ ٤٩١).

(٢) «تفسير ابْنِ سَعْديٍّ» (ص١٨٣ ـ ١٨٤).

وقد حَثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على السَّمْعِ والطَّاعةِ للحُكَّامِ في غَيْرِ معصيةِ الله؛ فعن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، عن النَّبيِّ - ﷺ - أنَّه قال: «**على المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ والطَّاعةُ فيما أَحَبَّ وكَرِهَ**[1]**، إلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بمعصيةٍ، فإنْ أُمِرَ بمعصيةٍ، فلا سَمْعَ ولا طاعةَ**»[2].

وعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «**عليك السَّمْعَ والطَّاعةَ، في عُسْرِكَ ويُسْرِكَ، ومَنْشَطِكَ**[3] **ومَكْرَهِكَ**[4]**، وأَثَرَةٍ عَلَيْكَ**»[5].

قال النَّوويُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : «قال العُلماءُ: معناه: يَجِبُ طاعةُ وُلاةِ الأَمْرِ فيما يشقُّ وتكرهُهُ النُّفُوسُ وغَيْرِهِ ممَّا ليس بمعصيةٍ، فإن كانتْ لمعصيةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعةَ».

وقال: «والأَثَرةُ: الاستئثارُ والاختصاصُ بأمورِ الدُّنيا عليكم، أَيِ: اسمعوا وأطيعوا، وإنِ اختصَّ الأُمراءُ بالدُّنيا، ولم يُوصلوكم حقَّكم ممَّا عِنْدَهم»[6].

وعن حُذَيْفَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّا كنَّا بِشَرٍّ، فجاء اللهُ بخَيْرٍ، فنحن فيه، فهل مِنْ وَرَاءِ هذا الخَيْرِ شَرٌّ؟. قال: «**نَعَمْ**». قلتُ: هَلْ وَرَاءَ ذلك الشَّرِّ خَيْرٌ؟. قال: «**نَعَمْ**». قلتُ: هَلْ وَرَاءَ ذلك الخَيْرِ شَرٌّ؟. قال: «**نَعَمْ**». قلتُ: كيف؟. قال: «**يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ، لا يهتدون بهُدَايَ، ولا يَسْتَنُّونَ بسُنَّتي، وسيقومُ فيهم رجالٌ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشياطينِ في جُثْمانِ إِنْسٍ**». قُلْتُ: كيف أَصْنَعُ - يا رسولَ اللهِ - إنْ أَدْرَكْتُ ذلك؟. قال: «**تَسْمَعُ وتُطِيعُ للأميرِ، وإنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وأُخِذَ مالُكَ، فاسْمَعْ وأَطِعْ**»[7].

---

(١) فيما أحبَّ وكَرِهَ: أي فيما وافق غَرَضَهُ أو خالفه.

(٢) رواه مسلم (١٨٣٩).

(٣) في منشطك: أي في حالة نشاطك.

(٤) ومكرهك: أي في حالة كراهتِكَ.

(٥) رواه مسلم (١٨٣٦).

(٦) «شرح النَّوويِّ على مسلم» (١٢/ ٢٢٥).

(٧) رواه البخاريُّ (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧)، واللَّفْظُ له.

فيا أخي، انْظُرْ إلى وَصْفِ النَّبيِّ - ﷺ - لهؤلاءِ الأئمَّةِ، وذَكَرَ أنَّهم لا يهتدون بهَدْيِهِ، ولا يستنُّون بسُنَّتِهِ، وذلك غايةُ الضَّلالِ، ومع ذلك فقد أمر النَّبيُّ - ﷺ - بطاعتهم - في غَيْرِ معصيةِ الله -، وحتَّى لو بلغ بهمُ الأَمْرُ إلى ضَرْبِكَ، فلا يَحْمِلَنَّكَ ذلك على تَرْكِ طاعَتِهِمْ[1].

قال الحَسَنُ البَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «هؤلاءِ - يعني: المُلُوكَ - وإنْ رَقَصَتْ بِهِمُ الهَمَالِيجُ[2]، ووَطِئَ النَّاسُ أعْقَابَهُم، فإنَّ ذُلَّ المعصيةِ في قُلُوبِهِم، إلَّا أنَّ الحقَّ أَلْزَمَنَا طاعَتَهُم، ومَنَعَنا مِنَ الخُرُوجِ عليهم، وأَمَرَنَا أَنْ نستدفِعَ بالتَّوبةِ والدُّعاءِ مَضَرَّتَهُمْ، فَمَنْ أراد اللهُ به خَيْرًا لَزِمَ ذلك، وعَمِلَ به، ولم يُخالِفْهُ»[3].

٣ - قِلَّةُ الصَّبْرِ على الحُكَّامِ:

من جفافِ المشاعرِ عَدَمُ الصَّبْرِ على جَوْرِ الحُكَّامِ، مَعَ أنَّ الصَّبْرَ على جَوْرِ الحُكَّامِ يَجْلُبُ مِنَ المصالحِ، ويَدْرَأُ مِنَ المفاسِدِ ما يكونُ به صلاحُ العِبادِ والبِلادِ، وقد حثَّ النَّبيُّ على الصَّبْرِ على جَوْرِ الأَئِمَّةِ وظُلْمِهِم، فعنِ ابْنِ عبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: **«مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شيئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ؛ فإنَّهُ مَنْ فارَقَ الجماعةَ شِبْرًا، فماتَ فَمِيتَةٌ جاهليَّةٌ»**.

وفي روايةٍ لمسلم: **«مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شيئًا فَلْيَصْبِرْ عليه؛ فإنَّه لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا، فماتَ عليه؛ إلَّا ماتَ مِيتَةً جاهليَّةً»**[4].

---

(١) انظر «معاملة الحكام» لابن برجس (ص٨١).

(٢) الهماليج: جمع هِمْلاجٍ - بالكسر -، ويُطْلَق على غَيْرِ العربيِّ من الخَيلِ والبِغالِ، وهو فارسيٌّ مُعَرَّبٌ.

(٣) كتاب «آداب الحسن البَصْريِّ» لابن الجَوْزيِّ (ص١٢١).

(٤) رواه البخاريُّ (٧١٤٣)، ومسلم (١٨٤٩).

قال الحافظُ: «قال ابْنُ أبي جَمْرَةَ: المرادُ بالمفارقةِ: السَّعْيُ في حَلِّ عَقْدِ البَيْعةِ الَّتي حَصَلَتْ لذلك الأميرِ، ولو بأَدْنَى شَيْءٍ، فكنَّى عنها بمقدارِ الشِّبْرِ؛ لأنَّ الأَخْذَ في ذلك يَئُولُ إلى سَفْكِ الدِّماءِ بغَيْرِ حَقٍّ.

والمُرادُ بالمِيتةِ الجاهليَّةِ: حالةُ الموتِ كموتِ أَهْلِ الجاهليَّةِ على ضَلالٍ، وليس له إمامٌ مطاعٌ، لأنَّهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنَّه يموتُ كافرًا، بل يموتُ عاصيًا»[١].

وعن ابن مسعودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنَّ رسولَ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «**إنَّها ستكُونُ بَعْدي أَثَرةٌ**[٢]**، وأُمورٌ تُنْكِرُونها**»[٣]. قالوا: يا رسولَ الله، فما تَأْمُرُنا؟. قال: «**تؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذي عليكم، وتسألون اللهَ الَّذي لَكُمْ**»[٤].

قال النَّوويُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «فيه الحثُّ على السَّمْعِ والطَّاعةِ، وإنْ كان المُتَوَلِّي ظالمًا عَسوفًا؛ فَيُعْطَى حَقَّهُ مِنَ الطَّاعةِ، ولا يُخْرَجُ عليه، ولا يُخْلَعُ، بل يُتضرَّعُ إلى الله - تعالى - في كَشْفِ أَذاهُ، ودَفْعِ شَرِّهِ، وإصلاحِهِ»[٥].

وعن عَمْرِو بْنِ يَزِيدَ قال: «سَمِعْتُ الحَسَنَ أَيَّامَ يَزِيدَ بْنِ المُهَلَّب يقولُ - وأتاهُ رَهْطٌ، فأمرهم أن يلزموا بُيُوتَهُم، ويُغْلِقُوا عليهم أبوابَهُم، ثُمَّ قَالَ: واللهِ، لو أنَّ النَّاسَ إذا ابْتُلُوا مِنْ قِبَلِ سُلْطَانِهِم صَبَرُوا؛ ما لَبِثُوا أَنْ يَرْفَعَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - ذلك عنهم، إنَّهم يَفْزَعُونَ إلى السَّيْفِ، فَيُوكَلونَ إليه، وواللهِ، ما جاءُوا بيومِ خَيْرٍ قَطُّ، ثُمَّ تلا: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾ (الأعراف: ١٣٧)»[٦].

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٧). (٢) أثرة: هي الانفراد بالشيء عَمَّنْ له فيه حقٌّ.

(٣) أمور تنكرونها: يعني من أمور الدِّين. (٤) رواه البخاريُّ (٧٠٥٢)، ومسلم (١٨٤٣).

(٥) «شرح النَّوويِّ على مسلم» (١٢/ ٢٣٢).

(٦) «الشريعة» للآجري (ص٣٨).

وقال الحَسَنُ ـ أيضًا ـ : «اعلم ـ عافاك اللهُ ـ أنَّ جَوْرَ المُلُوكِ نِقْمةٌ مِنْ نِقَمِ الله ـ تعالى ـ ، ونِقَمُ الله لا تُلاقَى بالسُّيُوفِ، وإنَّما تُتَّقى وتُسْتَدْفَعُ بالدُّعاءِ والتَّوبةِ والإنابةِ، والإقلاعِ عَنِ الذُّنُوبِ.

إنَّ نِقَمَ الله مَتَى لُقِيَتْ بالسَّيْفِ؛ كانتْ هي أَقْطَعَ، ولَقَدْ حدَّثني مالكُ بْنُ دِينارٍ: أنَّ الحجَّاجَ كان يقولُ: اعلموا أنَّكم كُلَّما أَحْدَثْتُمْ ذَنْبًا؛ أَحْدَثَ اللهُ في سُلْطَانِكُمْ عُقُوبةً.

ولَقَدْ حُدِّثْتُ: أنَّ قائلًا قال للحجَّاجِ: إنَّكَ تفعلُ بأُمَّةِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ كَيْتَ وكَيْتَ!. فقال: أَجَلْ، إنَّما أنا نِقْمَةٌ على أَهْلِ العِراقِ؛ لما أَحْدَثُوا في دِينِهِمْ ما أَحْدَثُوا، وتركوا مِنْ شَرائعِ نَبِيِّهِمْ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ ما تركوا».

وقيل: : «سَمِعَ الحَسَنُ رجلًا يدعو على الحجَّاجِ، فقال: لا تَفْعَلْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ ؛ إنَّكم مِنْ أَنْفُسِكُم أُتِيتُمْ، إنَّما نخافُ إنْ عُزِلَ الحجَّاجُ ـ أو مات ـ أَنْ تَلِيَكُمُ القِرَدَةُ والخنازيرُ.

ولقد بلغني أنَّ رجلًا كَتَبَ إلى بَعْضِ الصالحين يَشْكُو إليه جَوْرَ العُمَّالِ، فكتب إليه: يا أخي، وصلني كتابُكَ، تَذْكُرُ ما أنتم فيه مِنْ جَوْرِ العُمَّالِ، وإنَّه ليس ينبغي لمن عَمِلَ بالمعصيةِ أَنْ يُنْكِرَ العُقُوبةَ، وما أَظُنُّ الَّذي أنتم فيه إلَّا مِنْ شُؤْمِ الذُّنُوبِ ... والسَّلامُ»[1].

٤ ـ التهاوُنُ بأمرِ نصيحةِ الحُكّامِ:

من جفافِ المشاعرِ التَّهاوُنُ بأَمْرِ نصيحةِ الحُكَّامِ، ومَنْ يأتمرون بأَمْرِهِم من المسئولين، وكِرامُ النَّاسِ يَقْضُونَ هذا الحقَّ، فالحُكَّامُ بَشَرٌ مِثْلُنا، وما يُمَيِّزُهُمْ هُوَ ثِقَلُ المَسْئُوليَّة، ولهم علينا حقوقٌ كثيرةٌ، كما لنا عليهم حقوقٌ، ومِنْ حَقِّهم علينا

---

(١) «الشريعة» للآجري (ص٣٨).

النَّصيحةُ[١]، والنَّصيحةُ للحُكَّامِ خاصَّةً مَعَ أنَّها أمانةٌ وحَقٌّ من حقوقهم فلها فائدةٌ عظيمةٌ، تَعُودُ على الناصحِ، ولو لم تُقْبَلْ منه[٢]، وهي أنَّها تَنْفِي الغِلَّ والغِشَّ، ومُفْسِداتِ القَلْبِ وسَخائِمَهُ.

فعن زَيْدِ بْنِ ثابتٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **«ثلاثُ خِصالٍ لا يَغِلُّ[٣] عليهِنَّ قَلْبُ مُسْلمٍ: إخلاصُ العَمَلِ لله، والنَّصيحةُ لوُلاةِ الأُمُورِ، ولُزُومُ جماعَتِهِمْ؛ فإنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»**[٤].

---

(١) الأصل في نصيحةِ الحُكَّامِ أنْ تكونَ سِرًّا لا جَهْرًا، سِرًّا فيما بينك وبينهم: كأن تكتبَ لهم، أو تَتَّصلَ بأهل العلمِ الَّذين يتَّصلون بهم، والدليل على ذلك ما أخرجه ابْنُ عاصمٍ في «السنة» (٢/ ٥٠٧) بسندٍ صحيحٍ، صحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (١٠٩٦) من حديث عِياضِ بْنِ غَنْمٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لذي سُلْطانٍ، فلا يُبْدِهِ عَلانِيَةً، وليأخُذْ بيدِهِ فيخلوا به، فإنْ قبل مِنْهُ فذاك، وإلَّا كانَ أدَّى الَّذي عَلَيْهِ». وهذا الحديثُ أَصْلٌ عظيمٌ في إخفاءِ نصيحةِ السُّلطانِ، وأنَّ الناصِحَ إذا قام بالنُّصْحِ على هذا الوَجْهِ فَقَدْ بَرِئَ، وخيرُ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فلا تغترَّ بما يفعله جُهَّالُ النَّاسِ مِنَ التَّشهيرِ بالحُكَّامِ مِنْ فَوْقِ المنابرِ، والمحافلِ، والمساجدِ، والصُّحُفِ، والمجلَّاتِ، فليس ذلك من النصيحةِ في شَيْءٍ، بل هو خِلَافُ ما عليه السَّلفُ المُقْتَدَى بهم، فقد أخرج أحمدُ في «مسنده» (٤/ ٣٨٢) بسندٍ حَسَنٍ، حسَّنه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (ص٥٢٣) من حديث أُسامةَ بْنِ زَيْدٍ: أنَّه قيل له: أَلَا تدخلُ على عُثْمانَ لتُكلِّمَهُ؟. فقال: «أَتَرَوْنَ أنِّي لا أُكَلِّمُهُ إلَّا أَسْمِعُكُمْ؟، والله، لقد كَلَّمْتُهُ فيما بيني وبَيْنَهُ ما دُونَ أَنْ أَفْتَحَ أمرًا لا أُحِبُّ أن أكونَ أوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ».

- قال القاضي **عِياضٌ** - رَحِمَهُ اللَّهُ - : «مُرادُ أسامةَ: أنَّه لا يفتحُ بابَ المُجاهرةِ بالنَّكيرِ على الإمامِ؛ لما يُخشى من عاقبةِ ذلك، بل يتلطفُ به، وينصحُهُ سِرًّا، فذلك أَجْدَرُ بالقَبُولِ» انظر «فتح الباري» (١٣/ ٥٢).

- وقال **الألبانيُّ** - رَحِمَهُ اللَّهُ - في «مختصر مسلم» (٣٣٥) ما نصُّهُ: «يعني: المُجاهرةَ بالإنكارِ على الأُمَراءِ في المَلَإِ؛ لأنَّه في الإنكارِ جِهارًا ما يُخشى عاقبتُهُ، كما اتُّفِقَ في الإنكارِ على عُثْمانَ جِهارًا، إذْ نشأ عنه قَتْلُهُ».

(٢) قال الإمامُ **ابْنُ حَزْمٍ** - رَحِمَهُ اللَّهُ - في كتابه «الأخلاق والسِّير» (ص١١٨): «لا تَنْصَحْ على شَرْطِ القَبُولِ، ولا تَشْفَعْ على شَرْطِ الإجابةِ، ولا تَهَبْ على شَرْطِ الإثابةِ، لكنْ على سبيلِ استعمالِ الفَضْلِ، وتأديةِ ما عليك مِنَ النَّصيحةِ، والشَّفاعةِ، وبَذْلِ المعروفِ».

(٣) لا يَغِلُّ: من الغِلِّ، وهو الحِقْدُ والشَّحْناءُ، أي: لا يدخُلُه حِقْدٌ، قال **ابْنُ الأثيرِ** - رَحِمَهُ اللَّهُ - في «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٣٨١): «والمعنى: أنَّ هذِهِ الخِلَالَ الثَّلاثَ تُسْتَصْلَحُ بها القُلُوبُ، فَمَنْ تَمَسَّكَ بها، طَهُرَ قلبُهُ مِنَ الخِيانةِ والدَّغَلِ والشَّرِّ. و«عَلَيْهِنَّ»: في موضعِ الحالِ، تقديرُهُ: لا يَغِلُّ كائنًا عليهنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ».

(٤) «صحيح»: أخرجه أحمدُ في «المسند» (٥/ ١٨٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (ص٥٠٤).

٥ ـ سَبُّ الحكَّامِ:

من جفافِ المشاعرِ الوَقيعةُ في أَعْراضِ الحُكَّامِ، والاشتغالُ بِسَبِّهِم، وهذا مَعَ كَوْنِهِ مِنْ إيذاءِ المُسْلِمِ، فكيف إذا كان في حَقِّ مَنْ أَمَرَنا اللهُ بطاعَتِهِمْ، وأَمَرَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بطاعَتِهِمْ، وحثَّنا على تَوْقِيرِهِم، فعن زِيادِ بْنِ كُسَيْبٍ العَدَويِّ قال: كنتُ مَعَ أبي بَكْرَةَ تَحْتَ مِنْبَرِ ابْنِ عامرٍ، وهو يَخْطُبُ وعليه ثِيابٌ رِقَاقٌ، فقال أبو بلالٍ: انظروا إلى أَمِيرِنا يَلْبَسُ ثِيابَ الفُسَّاقِ. فقال أبو بَكْرَةَ: اسْكُتْ؛ سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «**مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللهِ فِي الأَرْضِ أَهَانَهُ اللهُ**»[(١)].

وعن أَنَسِ بْنِ مالكٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: «كان الأكابرُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ يَنْهَوْننا عَنْ سَبِّ الأُمَراءِ»[(٢)].

وعن أبي الدَّرْداءِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: «إِيَّاكُمْ ولَعْنَ الوُلَاةِ؛ فإنَّ لَعْنَهُمُ الحالقةُ، وبُغْضَهُمُ العاقِرَةُ».قيل: يا أبا الدَّرْداءِ، فكيف نَصْنَعُ إذا رأينا منهم ما لا نُحِبُّ؟. قال: «اصبروا، فإنَّ الله إذا رأى ذلك منهم، حَبَسَهُمْ عَنْكُمْ بالمَوْتِ»[(٣)].

وعن عَوْنٍ السَّهْميِّ قال: أَتَيْتُ أبا أُمامةَ فقال: «لا تسُبَّ الحَجَّاجَ؛ فإنَّهُ عليك أميرٌ، وليس عليَّ بأَميرٍ[(٤)]»[(٥)].

وعن أبي جَمْرَةَ الضُّبَعيِّ قال: لَمَّا بَلَغَني تَحْرِيقُ البَيْتِ، خرجتُ إلى مَكَّةَ، واختلفتُ إلى ابْنِ عبَّاسٍ، حتَّى عَرَفَني واستأنس بي، فَسَبَبْتُ الحَجَّاجَ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ، فقال: «لا تَكُنْ عَوْنًا للشيطانِ».

---

(١) «صحيح»: أخرجه التِّرمذيُّ (٢٢٣٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٢٩٦).

(٢) «التمهيد» (٢١/ ٢٨٧).

(٣) «السنة» لابن أبي عاصم (٢/ ٤٤٨).

(٤) قوله: «ليس عليَّ بأمير»: أنَّ أبا أُمامةَ في الشَّامِ، والحجَّاج والٍ في العِراقِ.

(٥) «التاريخ الكبير» للبخاريِّ (٧/ ١٨).

وعن هلالِ بْنِ أبي حميدٍ قال: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ عُكَيْمٍ يقولُ: لا أُعينُ على دَم خَليفةٍ أبدًا بَعْدَ عُثْمانَ، فيقالُ له: يا أبا مَعْبَدٍ، أَوَ أَعَنْتَ على دَمِهِ؟. فيقولُ: «إنِّي أَعُدُّ ذِكْرَ مَساويهِ عَوْنًا على دَمِهِ».

وعن الزِّبْرِقَانِ قال: «كنتُ عِنْدَ أبي وائلٍ[1]، فجعلتُ أَسُبُّ الحَجَّاجَ، وأَذْكُرُ مَساويهِ، قال: لا تَسُبَّهُ، وما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ قال: اللّهُمَّ، اغْفِرْ لي، فَغُفِرَ له؟»[2].

٦ ـ التهاوُنُ بأَمْرِ الدُّعاءِ للحُكَّامِ:

من جفافِ المشاعرِ عَدَمُ تخصيصِ وُلاةِ الأُمُورِ بالدُّعاءِ، ولا يَقِفُ الأَمْرُ عِنْدَ ذلك، بَلْ إنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْتَقِصُ الدَّاعي لهم، ويَمْدَحُ مَنْ يَدْعُو عليهم، وهذا مِنَ الخَلَلِ الفادحِ، والتَّقصيرِ الكبيرِ؛ فإنَّ الدُّعاءَ للحُكَّامِ دليلٌ على تمسُّكِ الدَّاعي لهم بالسُّنَّةِ، زِدْ على ذلك أَنَّ السُّلْطانَ إذا دَعَوْتَ له بالصَّلاحِ، فإنَّه يَصْلُحُ بصلاحِهِ خَلْقٌ عَظِيمٌ، فإذا أردتَ الخَيْرَ لك ولغَيْرِك فادْعُ للسُّلْطانِ، فعلى ذا مضى السَّلَفُ؛ فَسِرْ على ما ساروا عليه مِنَ البِرِّ، واصنع كما صنعوا.

قال **الإمامُ البربهاريُّ** ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «إذا رأيتَ الرَّجُلَ يدعو على السُّلْطانِ؛ فاعلمْ أَنَّه صاحبُ هَوىً، وإذا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو للسُّلْطانِ بالصَّلاحِ؛ فاعلمْ أَنَّه صاحبُ سُنَّةٍ، إنْ شاء اللهُ ـ تعالى ـ»[3].

وكان الفُضَيْلُ بْنُ عِياضٍ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ يقولُ: «لو كان لي دَعْوةٌ ما جَعَلْتُها إلَّا في السُّلْطانِ، فأُمِرْنَا أَنْ نَدْعُوَ لهم بالصَّلاحِ، ولم نُؤْمَرْ أَنْ نَدْعُوَ عليهم، وإنْ جَارُوا وظَلَمُوا؛ لأَنَّ جَوْرَهُم وظُلْمَهُم على أَنْفُسِهِمْ وعلى المسلمين، وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين»[4].

---

(١) هو شَقِيقُ بْنُ سلمةَ.

(٢) أخرجه هَنَّادٌ في «الزُّهد» (٢/ ٤٦٤).

(٣) «السنة» للإمام البربهاري (١٠٧، ١٠٨).

(٤) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٦).

جفافُ المشاعر مَعَ العُلَماءِ

مِنَ النَّاسِ مَنْ جَفَّتْ مشاعرُهم، فلا يُقَدِّرونَ العُلَماءَ كما ينبغي أن يكونَ التَّقديرُ، فإنَّ للعُلَماءِ منزلةً عظيمةً مِنَ الدِّينِ ليستْ لِغَيْرِهم، ولهم حُرْمة مصونة، وقد تواردتْ أدلَّةُ الكتابِ والسُّنَّةِ على عُلُوِّ شَأْنِهم، ورفعةِ مَقامِهم، فمنها:

فَضْلُ العُلماءِ:

١ ـ أن الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أمر بطاعتهم:

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء: ٥٩).

قال شيخ الإسلام ابْنُ تَيْمِيَّةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «(أولو الأمر) أصحابُ الأمر وذَوُوْهُ، وهمُ الَّذين يأمرون النَّاسَ، وذلك يشتركُ فيه أَهْلُ اليَدِ والقُدْرةِ، وأَهْلُ العِلْمِ والكلامِ؛ فلهذا كان أولو الأَمْرِ صِنْفَيْنِ: العُلَماءَ، والأُمَراءَ، فإذا صَلَحُوا صَلَحَ النَّاسُ، وإذا فَسَدُوا فَسَدَ النَّاسُ»[١].

٢ ـ أن الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ نفى التَّسوية بين العلماءِ وغَيْرِهم:

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩).

٣ ـ أن الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ رفعهم على من سواهم من المؤمنين:

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة: ١١).

قال الطَّبَرِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «ويرفعُ اللهُ الَّذين أُوتُوا العِلْمَ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ على المؤمنين الَّذين لم يُؤْتُوا العِلْمَ ـ بفَضْلِ عِلْمِهِمْ ـ دَرَجاتٍ، إذا عَمِلُوا بما أُمِرُوا بِهِ»[٢].

---

(١) «الفتاوى» (٢٨/ ١٧٠).
(٢) «جامع البيان» (٢٨/ ١٩).

٤ ـ أن الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أوجب الرجوعَ إليهم وسُؤَالَهُم عمَّا أشْكَلَ:

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنبياء: ٧).

قال ابْنُ سَعْديٍّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «عمومُ هذه الآية فيها مدح لأهلِ العِلْمِ، وأنَّ أعلى أنواعِهِ: العِلْمُ بكتابِ اللهُ المُنزَّل؛ فإنَّ اللهَ أَمَرَ مَنْ لا يَعْلَمُ بالرُّجُوعِ إليهم في جميعِ الحوادثِ، وفي ضِمْنِهِ تعديلٌ لأَهْلِ العِلْمِ وتَزْكيةٌ لهم؛ حيثُ أَمَرَ بسُؤالِهم، وأنَّ بذلك يَخْرُجُ الجاهلُ مِنَ التَّبِعَةِ».

٥ ـ أن الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ عظَّم قَدْرَهُم فأشهدهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ على أعظمِ مَشْهُودٍ:

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ١٨).

قال ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «وفي ضِمْنِ هذِهِ الشَّهادةِ الإلهيَّةِ: الثَّناءُ على أَهْلِ العِلْمِ الشاهدين بها وتَعْدِيلِهِمْ»[1].

وقال الإمامُ القُرْطُبيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «في هذِهِ الآيةِ دليلٌ على فَضْلِ العِلْمِ، وشَرَفِ العُلماءِ وفَضْلِهِمْ؛ فإنَّه لَوْ كان أَحَدٌ أَشْرَفَ مِنَ العُلَماءِ لَقَرَنَهُمُ اللهُ باسْمِهِ، واسْمِ ملائكتِهِ، كما قَرَنَ اسْمَ العُلَماءِ»[2].

وقال العلَّامةُ ابْنُ سَعْديٍّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «وفي هذِهِ الآيةِ: فَضِيلةُ العِلْمِ والعُلماءِ؛ لأنَّ اللهَ خَصَّهم بالذِّكْرِ مِنْ دُونِ البَشَرِ، وقَرَنَ شَهادَتَهُم بشهادتِهِ، وشهادةِ ملائكتِهِ، وجعل شَهادَتَهُم مِنْ أَكْبَرِ الأَدِلَّةِ والبراهينِ على توحيدِهِ ودينِهِ وجزائِهِ، وأنَّه يَجِبُ على المُكَلَّفِينَ قَبُولُ هذِهِ الشَّهادةِ العادلةِ الصادقةِ، وفي ضِمْنِ ذلك تَعْدِيلُهم، وأنَّ الخَلْقَ

---

(١) «التفسير القيِّم» (ص١٩٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٤١).

تَبَعٌ لهم، وأنَّهم هُمُ الأَئِمَّةُ المَتْبُوعون، وفي هذا مِنَ الفَضْلِ والشَّرَفِ وعُلُوِّ المكانةِ ما لا يُقادَرُ قَدْرُهُ»[1].

٦ ـ أنَّهم أَهْلُ الفَهْمِ عَنِ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ :

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

قال الإمام ابْنُ كثيرٍ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «وما يَفْهَمُها ويَتَدَبَّرُها إلَّا الراسخون في العِلْمِ، المُتَضَلِّعون[2] منه»[3].

وقال العلَّامةُ ابْنُ سَعْديٍّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : « ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ بفَهْمِها وتَدَبُّرِها وتطبيقِها على ما ضُرِبَتْ لَهُ، وعَقْلُها في القَلْبِ، ﴿ إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أي: أَهْلُ العِلْمِ الحقيقيِّ، الَّذين وصل العِلْمُ إلى قُلُوبِهِمْ، وهذا مَدْحٌ للأمثالِ الَّتي يَضْرِبُها، وحَثٌّ على تدبُّرِها وتَعَقُّلِها، ومَدْحٌ لِمَنْ يَعْقِلُها، وأنَّه عُنْوانٌ على أنَّه مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، فَعُلِمَ أنَّ مَنْ لَمْ يَعْقِلْها لَيْسَ مِنَ العالمين»[4].

٧ ـ أنهم أَهْلُ الخَشْيَةِ:

قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: ٢٨).

قال ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «وهذا حَصْرٌ لِخَشْيَتِهِ في أُولي العِلْمِ، وقال ـ تعالى ـ : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة: ٨)، وقد أخبر أنَّ أَهْلَ خَشْيَتِهِ هُمُ العُلَماءُ، فدلَّ على أنَّ الجزاءَ المذكورَ للعُلَماءِ بمجموعِ النَّصَّينِ»[5].

---

(١) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (ص١٢٤).

(٢) تَضَلَّعَ: امتلأ شِبَعًا أو رِيًّا، حتَّى بَلَغَ الماءُ أضلاعَهُ.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤١٤).

(٤) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٣١).

(٥) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١).

وقال ابْنُ سَعْدِيٍّ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: «فكُلُّ مَنْ كان بالله أَعْلَمَ، كان أكثرَ لَهُ خَشْيَةً، وأوجبتْ له خَشْيةُ اللهِ الانكفافَ عَنِ المعاصي، والاستعدادَ للقاءِ مَنْ يَخْشَاهُ، وهذا دليلٌ على فَضِيلةِ العِلْمِ؛ فإنَّه داعٍ إلى خَشْيَةِ اللهِ»[1].

٨ - أنَّ أَهْلَ العِلْمِ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ الشَّرِّ ومداخِلِ الشَّرِّ:

قَالَ ٱللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (النحل: ٢٧).

قال العلَّامة ابْنُ سَعْديٍّ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: «﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: العُلماءُ الرَّبَّانيُّونَ: ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي: يَوْمَ القيامةِ، ﴿ وَٱلسُّوٓءَ ﴾ أي: العَذَابَ، ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. وفي هذا فضيلةُ أَهْلِ العِلْمِ، وأنَّهم الناطقون بالحقِّ في هذِهِ الدُّنيا، ويَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ، وأنَّ لقولهِمُ اعتبارًا عِنْدَ اللهِ، وعِنْدَ خَلْقِهِ»[2].

٩ - أنَّ أَهْلَ العِلْمِ يعرفون الفِتْنةَ عِنْدَ إقبالِها:

قَالَ ٱللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ (القصص: ٨٠).

فأهلُ العِلْمِ كانوا بُصَرَاءَ بالشَّرِّ، وعُلَماءَ بالخَيْرِ، فلمَّا رَأَوُا النَّاسَ يتمنَّون مِثْلَ ما أُوتِيَ قارونَ، حذَّروهم مِنَ الشَّرِّ، وبَيَّنوا لهمُ الخَيْرَ؛ لأنَّهم يَعْرِفُونَ الفِتْنَةَ عِنْدَ إقبالِها، وغَيْرُهم لا يَعْرِفُ الفِتْنَةَ إلَّا عِنْدَ إدبارِها، فلمَّا أَدْبَرَتِ الفِتْنةُ بقارُونَ، وحَلَّتْ عُقُوبةُ اللهِ - عَرَفَ النَّاسُ أنَّ العُلَماءَ على الحقِّ، قَالَ ٱللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (القصص: ٨٢).

---

(١) «تفسير ابنِ سَعْديٍّ» (ص٦٨٩).

(٢) المرجع السَّابق (ص ٤٣٩).

١٠ - أنَّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ:

عن أبي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - قال: سَمِعْتُ رسولَ الله - ﷺ - يَقُولُ: «**فَضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ ليلةَ البَدْرِ على سائِرِ الكَواكِبِ، وإنَّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثوا دِينارًا ولا دِرْهمًا، ولكنَّهُمْ وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وافِرٍ**»[١].

قال الإمام **ابْنُ رَجَبٍ** - رَحِمَهُٱللَّهُ - : «يعني: أنَّهم وَرِثُوا ما جاء به الأنبياءُ مِنَ العِلْمِ، فهم خَلَفُوا الأنبياءَ في أُمَمِهِمْ بالدَّعْوةِ إلى اللهِ، وإلى طاعتِهِ، والنَّهْيِ عَنْ معاصي اللهِ، والزَّوْدِ عَنْ دِيْنِ اللهِ»[٢].

١١ - أنَّ العُلَماءَ هُمُ المُبلِّغونَ عَنِ الأنبياءِ:

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ - : «**تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، ويُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ**»[٣].

١٢ - أنَّهمُ المُستحِقُّون لدعوةِ النَّبيِّ ﷺ:

فعَنْ زَيْدِ بْنِ ثابتٍ - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ - : «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مقالتي فبلَّغها، فَرُبَّ حاملِ فِقْهٍ غَيْرُ فقيهٍ، ورُبَّ حاملِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[٤].

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الله عَنْ أبيه: أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرأً سَمعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبلَّغَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَحْفَظُ مِنْ سَامِعٍ**»[٥].

---

(١) «حسن»: رواه أحمدُ (٥/ ١٩٦)، والدراميُّ (٣٤٩)، وأبو داوُدَ (٣٦٤١)، والتِّرْمِذيُّ (٢٨٣٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في «المشكاة» (٢١٢).

(٢) «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» (ص٤٦).

(٣) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٣٦٥٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٧٨٤).

(٤) «صحيح»: أخرجه ابْنُ ماجَهْ (٢٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٤٠٣).

(٥) «صحيح»: أخرجه ابن ماجَهْ (٢٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «المشكاة» (٢٣٠).

قال الإمامُ ابْنُ القيِّمِ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «في هذا الحديثِ دُعاءٌ مِنَ الرَّسولِ لمن يسمعُ كلامَهُ ووعاه بالنَّضْرةِ، وهي البَهْجَةُ ونَضَارةُ الوَجْهِ وتحسينُهُ»[1].

١٣ ـ أنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ أراد بهمُ الخَيْرَ:

عَنِ مُعاويةَ بْنِ أبي سُفْيَانَ ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا، يُفَقِّهْهُ في الدِّيْنِ**»[2].

قال الإمامُ الآجري ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «فلمَّا أراد اللهُ ـ تعالى ـ بهم خيرًا، فَقَّههم في الدِّينِ، وعلَّمهمُ الكتابَ والحِكْمةَ، وصاروا سِراجًا للعبادِ، ومَنارًا للبِلَادِ»[3].

١٤ ـ أنَّ نَجاةَ النَّاسِ مَنُوطَةٌ بوُجُودِ العُلَماءِ:

عَنِ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يقولُ: «**إنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انتزاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبادِ، ولكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلماءِ، حتَّى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا**»[4].

ضَلُّوا بإفتاءِ النَّاسِ بالباطلِ، وقَوْلِهِمْ على اللهِ ـ سبحانه وتعالى ـ بغَيْرِ عِلْمٍ، ولا هُدًى ولا كتابٍ مُنيرٍ[5].

وبَعْدَ أَنْ عَرَّجْتُ على فَضْلِ العُلماءِ، ومنزلتِهِم مِنَ الدِّينِ تَذْكيرًا للعاقلِ، وتنبيهًا للغافلِ، أذكر جُمْلةً مِنْ جَفافِ المشاعرِ نَحْوَهُم.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧).

(٣) «أخلاق العلماء» (ص٩٤).

(٤) رواه البخاريُّ (٧٣٠٧)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٥) انظر «قواعد في التعامل مع العلماء» للشيخ عبد الرحمن اللُّويحق (ص٤٣) وما بعدها.

صور من جفاف المشاعر مع العلماء:

١ ـ قِلَّةُ احترامِهِمْ وتَوقِيرِهم:

من جفافِ المشاعرِ نَحْوَ العُلماءِ قِلَّةُ احترامِهِم وتوقيرِهم، وكِرامُ النَّاسِ يَقْضُونَ هذا الحَقَّ، ويَعْرِفُونَ للعلماءِ حقَّهم ومَنازِلَهُم.

وقد حثَّ النَّبيُّ على احترامِ أَهْلِ العِلْمِ وإجلالِهم وتقديرِهِمْ، فعَنِ أبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: **«إنَّ مِنْ إجلالِ اللهِ إكرامُ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلمِ[1]، وحامِلِ القُرآنِ غَيْرِ الغالي فيه والجافي عنه، وإكْرامُ ذي السُّلْطانِ المُقْسِطِ»[2].**

(١) ذي الشَّيبة: هو الكبير في السِّنِّ، وقد انقرضتْ لُغةُ المشاعرِ الَّتي تُضْفِي عليهمُ الدِّفْءَ في قَرِّ الشِّتاءِ، ونحن نتفيَّأُ في ظِلالِ دِينٍ عظيمٍ، يُراعي كُلَّ شيءٍ بما في ذلك هذا الجانب، قالَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨).

ـ وقد جعل النَّبيُّ ـ ﷺ ـ إكرامَ ذي الشَّيْبةِ المُسْلمِ مِنْ إجلالِ الله، والإجلالُ لا يقتصرُ على ذي الشَّيبةِ المُسْلِمِ، بل مَنْ كان يَكْبُرُكَ بسنةٍ له حَقٌّ، ويتأكَّدُ ذلك إذا كان يَكْبُرُكَ بأعوام، ففي البُخاريِّ مُعلَّقًا (٢٤٦)، ومسلم (٣٠٠٣) من حديثِ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: **«أراني في المنامِ أَتَسَوَّكُ بسِوَاكٍ، فَجَذَبَني رَجُلانِ، أَحَدُهما أَكْبَرُ مِنَ الآخَرِ، فناولتُ السِّواكَ الأَصْغَرَ منهما، فقيل لي: كَبِّرْ، فدفعتُهُ إلى الأَكْبَرِ».**

ـ وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: **«ليس مِنَّا مَنْ لم يَرْحَمْ صَغِيرَنا، ويُوَقِّرْ كَبِيرَنا»**، وهو حسن، وسيأتي تخريجُهُ.

والكبيرُ في قومِهِ يُقابَلُ بالتقدير، لما في «سنن ابن ماجَهْ» (٣٧١٢) بسندٍ حسنٍ، حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٦٩) من حديثِ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: **«إذا أتاكم كريمُ قَوم فَأَكْرِمُوهُ»**. وحتَّى لو كان الكبيرُ في قومِهِ لا يستحقُّ التَّقديرَ، فهو يستحقُّ التَّقْدِيرَ الشَّكْليَّ لمصلحةِ التَّألُّفِ، كما كان مِنْ مُخاطبةِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ لِهِرَقْلَ بـ«عظيمِ الرُّوم»، وهو في «صحيح البخاريِّ» (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

ـ قال ابْنُ حَجَرٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في «الفتح» (١/ ٣٨): «لم يُخْلِهِ مِنْ إكرامٍ لمصلحةِ التَّألُّفِ».

(٢) «حسن»: أخرجه أبو داوُدَ (٤٨٤٣)، وقال الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢١٩٥): حسن.

وعَنِ عُبادَةَ بْنِ الصامتِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَيْسَ مِنَّا[1] **مَنْ لم يُجِلَّ كَبِيْرَنا، وَيَرْحَمُ صَغيرَنا، ويَعْرِفْ لِعَالِمِنا حَقَّهُ**»[2].

وقد كان السَّلَفُ يَحْتَرِمون العُلماءَ احترامًا كبيرًا؛ فهذا ابْنُ عبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يأخذُ بِرِكَابِ[3] زَيْدِ بْنِ ثابتٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ويقولُ: «هكذا أُمِرْنا أَنْ نَفْعَلَ بعُلَمائِنا وكُبَرائِنا»[4].

وقال ابْنُ عبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «أقبلتُ على المسألةِ، وتَتَبُّعِ أصحابِ رَسُولِ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فإنْ كُنْتُ لآتي الرَّجُلَ في الحديثِ، يَبْلُغَني أنَّه سَمِعَهُ مِنْ رسولِ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فأَجِدُهُ قائلًا[5]، فأتوسَّدُ رِدائي على بابِهِ، تَسْفي الرِّيحُ[6] على وَجْهي حتَّى يَخْرُجَ، فإذا خرج قال: يا بْنَ عَمِّ رسولِ الله، ما لك؟، فأقولُ: بلغني حديثٌ عنك أنَّك تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فأحببتُ أن أَسْمَعَهُ مِنْكَ، - قال: - فيقولُ: هَلَّا بَعَثْتَ إليَّ حتَّى آتِيَكَ، فأقولُ: أنا أحقُّ أَنْ آتِيَكَ»[7].

وقال **الإمامُ أحمدُ** - رَحِمَهُ اللَّهُ - لِخَلَفٍ الأَحْمَرِ: «لا أقعدُ إلَّا بَيْنَ يَدَيْكَ؛ أُمِرْنا أَنْ نتواضَعَ لِمَنْ نتعلَّمُ منه»[8].

---

(١) ليس منا: ليس من سُنَّتنا.

(٢) «حسن»: أخرجه أحمدُ في «المسند» (٥/ ٣٢٣)، والحاكمُ (١/ ١٢٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٤٤٣).

(٣) **الرِّكاب** - بالكسر -: الإبل الَّتي يُسارُ عليها، الواحدةُ راحلةٌ، ولا واحِدَ لها مِنْ لَفْظِها.

(٤) «**أثر صحيح**»: رواه الحاكم (٣/ ٤٢٣)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ.

(٥) **قائلًا**: أي نائمًا في القائلةِ.

(٦) **سَفَتِ الرِّيحُ التُّرابَ**: ذَرَتْهُ، وبابُهُ رَمَى.

(٧) رواه ابن عبد البرِّ في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٨٦).

(٨) «تذكرة السامع والمُتكلِّم» (ص٨٨).

ولَمَّا جاء الإمامُ مسلمُ بْنُ الحَجَّاجِ إلى الإمامِ البُخاريِّ ـ رحمهما الله ـ، وقبَّل بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وقال: «دَعْني أُقَبِّلْ رِجْلَيْك يا أُستاذَ الأُستاذينَ، وسَيِّدَ المُحَدِّثِيْنَ، وطَبِيبَ الحديثِ في عِلَلِهِ..»[١].

فانظر إلى توقيرِ السَّلَفِ لأَهْلِ العِلْمِ، فهم قَدِ اتَّفقوا على توقيرِ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ، وهمُ العُلَماءُ، والأُمَراءُ، وذُو الشَّيْبَةِ المُسلمُ، والوالدُ.

قال الإمامُ أبو مُحَمَّدِ بْنِ حَزْمٍ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «اتَّفقوا على توقيرِ أَهْلِ القُرْآنِ والإسلامِ، والنَّبيِّ ﷺ، وكذلك الخليفةُ، والفاضِلُ، والعالِمُ»[٢].

٢ ـ عَدَمُ استشعارِ مهابتِهِمْ:

من جفافِ المشاعرِ عَدَمُ استشعارِ مَهابةِ العُلماءِ الَّذين هُمْ أَحَقُّ بها وأَهْلُها، حاشا الوالدَيْنِ، ووُلَاةَ أُمورِ المسلمين، وحاشا ذا الشَّيْبةِ المُسْلِمَ[٣].

فعَنِ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: صَلَّى بنا النَّبيُّ ـ ﷺ ـ الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ قام إلى خَشَبَةٍ في مُقَدَّمِ المَسْجِدِ، ووَضَعَ يَدَهُ عليها، وفي القَوْمِ يَوْمَئِذٍ أبو بَكْرٍ وعُمَرُ، فهابا أَنْ يُكَلِّمَاهُ، وخَرَجَ سَرَعَانُ النَّاسِ[٤]، فقالوا: قَصُرَتِ الصَّلاةُ، وفي القَوْمِ رَجُلٌ كان النَّبيُّ ـ ﷺ ـ يدعُوهُ ذا اليَدَيْنِ، فقال: يا نَبِيَّ الله، أَنَسِيْتَ أَمْ قَصُرَتْ؟. فقال: «لَمْ أَنْسَ ولم تُقْصَرْ». قالوا: بَلَى، نَسِيْتَ يا رسولَ الله، قال: «صَدَقَ ذُو اليَدَيْنِ»[٥].

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٣٤٠).

(٢) «الآداب الشرعية» (١/ ٤٠٣).

(٣) قال طاؤس: «مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُوَقَّرَ أربعةٌ: العَالِمُ، وذُو الشَّيْبَةِ، والسُّلْطانُ، والوالِدُ». انظر «شرح السنة» (١٣/ ٤٣).

(٤) سَرَعان النَّاسِ ـ بفتحتين ويُسَكَّنُ ـ: أوائلهم المُستبقون إلى الأمرِ.

(٥) رواه البخاريُّ (٦٠٥١)، ومسلم (٥٧٣).

وعن طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ الله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ : «أَنَّ أصحابَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ قالوا لأعرابيٍّ جاهلٍ: سَلْهُ عمَّن قَضَى نَحْبَهُ، مَنْ هُوَ؟ ـ وكانوا لا يَجْتَرِئُونَ على مسألتِهِ، يُوَقِّرونَهُ ويَهَابُونَهُ ـ»[١].

وعن الأعمش قال: حَدَّثَني شَقِيقٌ قال: سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ قال: كُنَّا جلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، فقال: أَيُّكم يحفظُ قَوْلَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ في الفِتْنةِ؟. قُلتُ: أنا، كما قَالَهُ. قال: إنَّك عليهِ ـ أو عليها ـ لَجَرِيءٌ. قُلْتُ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ في أَهْلِهِ، ومالِهِ، ووَلَدِهِ، وجارِهِ تُكَفِّرُها الصَّلاةُ، والصَّومُ، والصَّدَقةُ، والأَمْرُ والنَّهْيُ. قال: ليس هذا أُريدُ، ولكِنِ الفِتْنَةُ الَّتي تَمُوجُ كما يَمُوجُ البَحْرُ. قال: ليس عليك منها بَأْسٌ يا أميرَ المؤمنين، إنَّ بَيْنَكَ وبَيْنَها بابًا مُغلقًا. قال: أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ؟. قال: يُكْسَرُ. قال: إذًا لا يُغْلَقُ أبدًا. قُلْنا: أكان عُمَرُ يَعْلَمُ البابَ؟. قال: نَعَمْ، كما أَنَّ دُونَ الغَدِ اللَّيْلَةَ، إنِّي حَدَّثْتُهُ بحديثٍ لَيْسَ بالأغاليطِ، فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ، فَأَمَرْنا مَسْرُوقًا فسأله، فقال: البابُ عُمَرُ[٢].

وعَنِ ابْنُ عبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «مَكَثْتُ سَنَتَيْنِ أُريدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنْ حديثٍ، ما مَنَعَني إلَّا هَيْبَتُهُ[٣]»[٤].

٣ ـ التَّقدُّمُ بحَضْرَتِهِمْ في الحديثِ وغَيْرِهِ:

من جفافِ المشاعرِ التَّقدُّمُ بحَضْرةِ العُلَماءِ والأكابرِ مِنَ النَّاسِ في الحديثِ وغَيْرِهِ، والأَدَبُ الحَسَنُ يقتضي عَدَمَ التَّقدُّمِ بحَضْرَتِهِمْ في رَأْيٍ، أو قَوْلٍ، أو فِعْلٍ، إلَّا إذا أَذِنُوا له.

---

(١) «حسن صحيح»: أخرجه التِّرْمذيُّ (٣٢٠٣)، وقال الألبانيُّ في «صحيح التِّرْمذيِّ» (٢٥٦٠): حسن صحيح.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٢٥)، ومسلم في الفتن (٢٦/ ١٤٤).

(٣) إذا كنتَ تستشعرُ مَهابةَ العُلَماءِ، وتمنعُكَ هَيْبَتُكَ لهم عَنِ السُّؤالِ، فاكتبْ لهم، أوِ اتَّصل بمن يتَّصلون بهم.

(٤) رواه ابْنُ عَبْدِ البرِّ في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٢).

فعن رافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، وسَهْلِ بن أبي خَيْثَمَةَ أنَّهما قالا: إنَّ عَبْدَ الله بْنَ سَهْلٍ، ومُحَيِّصَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَتيا خَيْبَرَ، فتفرَّقا في النَّخْلِ، فَقُتِلَ عَبْدُ الله بْنُ سَهْلٍ، فجاء عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ، وحُوَيِّصَةُ ومُحَيِّصَةُ ابنا مَسْعُودٍ إلى النَّبيِّ - ﷺ - ، فتكلَّموا في أَمْرِ صاحِبِهِمْ، فَبَدَأَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وكان أَصْغَرَ القَوْمِ، فقال له النَّبيُّ - ﷺ - : «كَبِّرِ الكُبْرَ». قال يَحْيَى (ابْنُ سَعِيدٍ): يَعْني: لِيَلِيَ الكَلامَ الأَكْبَرُ[1].

قال الحافظ ابن حجرٍ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - : «المرادُ الأكبرُ في السِّنِّ إذا وقع التَّساوي في الفَضْلِ، وإلَّا فَيُقَدَّمُ الفاضلُ في الفِقْهِ والعِلْمِ، إذا عارضه السِّنُّ»[2].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : «**أَخْبِرُوني بشَجَرةٍ، مَثَلُها مَثَلُ المُسْلِمِ، تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بإذْنِ رَبِّها، ولا تَحُتُّ وَرَقَها**[3]». فوقع في نَفْسي أنَّها النَّخْلَةُ، فكَرِهْتُ أَنْ أَتكَلَّمَ، وثَمَّ أبو بَكْرٍ وعُمَرُ، فلمَّا لم يتكلَّما، قال النَّبيُّ - ﷺ - : «**هي النَّخْلَةُ**». فلمَّا خَرَجْتُ مَعَ أبي، قُلْتُ: يا أَبَتَاهُ، وَقَعَ في نَفْسي أنَّها النَّخْلَةُ، قال: ما منعك أَنْ تَقُولَها؟، لو كُنْتَ قُلْتَها كان أحبَّ إليَّ مِنْ كَذَا وكَذَا. قال: ما مَنَعَني إلَّا أنِّي لم أَرَكَ ولا أبا بَكْرٍ تَكَلَّمْتُما، فكَرِهْتُ.

وفي روايةِ مسلمٍ: «فجعلتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَها، فإذا أَسْنَانُ القَوْمِ[4]؛ فأهابُ أَنْ أَتكَلَّمَ».

وفي روايةِ أحمدَ والدَّاميِّ: «فنظرتُ، فإذا أنا أصغرُ القَوْمِ؛ فسكتُّ»[5].

فانظر إلى أَدَبِ الصَّحابةِ - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ - لا يتقدَّمُ أَحَدُهم بَيْنَ يَدَيْ أَهْلِ الفَضْلِ والعِلْمِ والدِّينِ، وحتَّى لو كان عِنْدَهُ فَضْلُ عِلْمٍ ما ليس عِنْدَ غَيْرِهِ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦١٤٢)، ومسلم (١٦٦٩).
(٢) «فتح الباري» (١٢/ ١٧٠).
(٣) **ولا تَحُتُّ وَرَقَها**: أي لا تَحُطُّ ولا تُسْقِطُ، وبابُهُ رَدَّ.
(٤) **أسنان القوم**: أي كُبَراؤُهم.
(٥) رواه البخاريُّ (٦٠٤٤)، واللَّفظ له، ومسلم (٢٨١١).

٤ ـ قِلَّةُ الأَخْذِ عَنْهُم والسَّعْيِ إليهم:

من جفافِ المشاعرِ قِلَّةُ الأَخْذِ عَنِ العلماءِ، والسَّعْيِ إليهم، أَوْ ـ على الأَقَلِّ ـ سُؤالهم عن أمورِ دِيْنِهِم ودُنْياهم، وإنَّ دلَّ ذلك على جفافِ المشاعرِ، فإنَّه يدلُّ ـ أيضًا ـ على زُهْدِ النَّاسِ في مِيراثِ النُّبُوَّةِ؛ فالعلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ، فمن أراد أَنْ ينالَ شيئًا مِنْ هذا الميراثِ النَّبويِّ، فعليه بِمُجالسةِ العُلماءِ والأَخْذِ عنهم، فإنَّ الآخِذَ عَنِ العُلماءِ، السالِكَ في طريقِ العِلْمِ يُسَهِّلُ اللهُ له طريقًا إلى الجنَّةِ، فليس هناك طريقٌ أقصرُ إلى الجنَّةِ مِنْ طريقِ مَنْ سَلَكَ طريقَ العِلْمِ.

فعن كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ قال: كُنْتُ جالسًا مَعَ أبي الدَّرْداءِ في مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فجاءه رجلٌ فقال: يا أبا الدَّرْدَاءِ، إنِّي جِئْتُكَ مِنْ مدينةِ الرَّسولِ ـ ﷺ ـ لحديثٍ، بَلَغَني أَنَّك تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ، ما جِئْتُ لحاجةٍ. قال: فإنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فيه عِلْمًا، سَلَكَ اللهُ بِهِ طريقًا مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَها رِضًا لطالبِ العِلْمِ، وإنَّ العالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْضِ، والحِيْتَانُ في جَوْفِ الماءِ، وإنَّ فَضْلَ العالِمِ على العابدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينارًا ولا دِرْهمًا، وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وافرٍ**»(١).

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**ما مِنْ رَجُلٍ يَسْلُكُ طريقًا يَطْلُبُ فيه عِلْمًا، إلَّا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طريقًا إلى الجَنَّةِ، ومَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»(٢).

---

(١) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٣٦٤١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجَهْ» (٢٢٣).

(٢) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٣٦٤٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجَهْ» (٢٢٥).

٥ ـ انتقادُ العُلماءِ بأسْلُوبٍ ينالُ مِنْ هَيْبَتِهِمْ:

من جفافِ المشاعرِ انتقادُ العلماءِ بأُسْلُوبٍ ينالُ مِنْ هَيْبَتِهِمْ لَدَى العامَّةِ، وهذا لَيْسَ مِنَ النَّصيحةِ في شَيْءٍ، وإنَّما يفعلُ ذلك الَّذين يفسدون، ويَحْسَبُونَ أنَّهم يُصْلِحُون، والعلماءُ غَيْرُ معصومين أَلْبَتَّةَ، بَلْ هم عُرْضَةٌ للخَطَإِ والسَّهْوِ، والغَفْلَةِ والتَّقْصيرِ.

فعن أَنَسِ بْنِ مالكٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الخَطَّائِين التَّوَّابُونَ**»[١].

فإذا كانتْ زَلَّةُ العالمِ لا تُؤَثِّرُ في النَّاسِ فالواجبُ سَتْرُها[٢]، وإقالةُ هذا العالمِ عَثْرَتَهُ؛ فإنَّ العُلماءَ مِنْ ذَوِي الهَيْئاتِ الَّذين أَمَرَ النَّبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإقالةِ عَثَراتِهِمْ.

فعن عائشةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أنَّ النَّبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أَقِيلُوا ذَوِي الهَيْئاتِ عَثَراتِهِمْ إلَّا الحُدُودَ**»[٣].

وأيضًا فالرَّسولُ نَفَى عَنِ العُلماءِ المُجتهدين الإثْمَ والجُنَاحَ؛ فالعالمُ إذا اجتهد فأصاب فَلَهُ أَجْرانِ، وإنِ اجتهد فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ واحِدٌ، فهو على كُلِّ حالٍ مَأْجُورٌ، والإِثْمُ عَنْهُ مَرْفُوعٌ.

---

(١) «حسن»: أخرجه أحمدُ (٣/ ١٩٨)، والتِّرْمِذيُّ (٢٦١٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في «تخريج المشكاة» (٢٣٤١).

(٢) يجبُ السَّتْرُ وبَذْلُ النَّصيحةِ خاصَّةً في السِّرِّ؛ لأنَّ من حقِّ العالمِ أَنْ يُنْصَحَ إذا زَلَّ وأَخْطَأَ، ففي صحيح مسلم (٥٥) من حديثِ تَميم الدَّاريِّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: أنَّ النَّبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**الدِّينُ النَّصيحةُ**». قُلنا: لِمَنْ؟. قال: «**للهِ، ولكتابِهِ، ولرسولِهِ، ولأئمَّةِ المسلمين، وعامَّتِهِمْ**».

ـ والنَّصيحةُ في السِّرِّ سُنَّةٌ، سنَّها السَّلَفُ لِمَنْ بَعْدَهُم، قال ابْنُ المُبارَكِ: «كان الرجلُ إذا رأى من أخيه ما يَكْرَهُ، أَمَرَهُ في سَتْرٍ، ونهاه في سَتْرٍ، فَيُؤْجَرُ في سَتْرِهِ، ويُؤْجَرُ في نَهْيِهِ، وأمَّا اليَوْمَ فإذا رأى أَحَدٌ مِنْ أَحَدٍ ما يَكْرَهُ، استغضب أخاه، وهَتَكَ سِتْرَهُ». وقال **الفُضَيْلُ بْنُ عِياضٍ** ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «المؤمنُ يسترُ وينصحُ، والفاجرُ يَهْتِكُ ويُعَيِّرُ». وقال هارُونُ الرَّشيدُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ للأصمعيِّ: «وقِّرْنا في المَلَإِ، وعَلِّمْنا في الخَلاءِ».

(٣) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٤٣٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١١٨٥)، و«الصحيحة» (٦٣٨).

فعن عَمْرِو بْنِ العاصِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**إذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجتهد ثُمَّ أصاب فَلَهُ أَجْرَانِ، وإذا حَكَمَ فاجتهد ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»(١).

ومع ذلك لا يمنع من الرَّدِّ على الخَطَإِ إنْ كان يُؤَثِّرُ في الاتِّباعِ تأثيرًا بَيِّنًا، لكنْ بشُرُوطٍ، منها:

١ - ألَّا يكونَ الخَطَأُ في المسائلِ الاجتهاديَّةِ الَّتي يَسَعُ فيها الخلافُ بَيْنَ المسلمين.

٢ - ألَّا يَبْني نَقْدُهُ على ظَنٍّ أو تُهَمَةٍ، بل على أَمْرٍ جَلِيٍّ، أو قَرِينةٍ صريحةٍ.

٣ - أَنْ يَتَحَرَّى العَدْلَ في كلامِهِ.

٤ - أَنْ يَلْتَزِمَ الصِّدْقَ.

٥ - أَنْ يَلْتَزِمَ الرِّفْقَ(٢).

---

(١) رواه البُخاريُّ (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

(٢) الرفق هو الأصل، ومن دواعي القَبُولِ وحُصُولِ المراد، ورُغِّبَ فيه ففي «صحيح مسلم» (٢٥٩٣) من حديث عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**يا عائشةُ، إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي على الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي على العُنْفِ، وما لا يُعْطِي على ما سِوَاهُ**».

ـ وفي «صحيح مسلم» (٢٥٩٢) عن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ حُرِمَ الخَيْرَ**».

ـ وقال العلَّامة ابْنُ بازٍ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كما في «مجلة الدَّعوة» العدد رقم (١٣٨٦): «فالواجبُ على الدُّعاةِ إلى اللهِ ـ سبحانه ـ أن يتثبَّتوا في الأمرِ، وأن يتبصروا أوَّلًا، حتَّى يتيقَّنوا أنَّ هذا الأمرَ معروفٌ أو مُنْكَرٌ، وعلى القائمين بالأمر بالمعروف والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ بالدَّليلِ الشَّرْعيِّ؛ حتَّى يكونَ إنكارُهم على بصيرةٍ، لقول الله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ (يوسف: ١٠٨)، مع نصيحتي لهم ـ أيضًا ـ بأن يكونَ الإنكارُ بالرِّفْقِ، والكلامِ الطَّيِّبِ، والأُسْلُوبِ الحَسَنِ؛ حتَّى يُقْبَلَ منهم، وحتَّى يُصْلِحُوا أكثر ممَّا يُفْسِدُونَ».

٦- أَنْ يكونَ قَصْدُهُ النَّصيحةَ لا التَّأنيبَ[١].

٧- أَنْ يَكْتُبَ الرَّدَّ سِرًّا، ثُمَّ يُرْسِلَهُ بنفسِهِ إلى المنصوحِ، ويَجْلِسَ معه إنْ أمكن ذلك، يُناقشه إن كان قريبًا، ويُرْسِلُ إليه بالرَّدِّ إن كان بعيدًا.

٨- أَنْ يجتنبَ مِنَ الكلامِ ما قد يُثيرُ العِنادَ والتَّمادِيَ في الخَطَإِ، وأَنْ يُرَكِّزَ في رَدِّهِ على القَوْلِ لا القائلِ، ولا يَكُونَ حالُهُ كحالِ شُعَراءِ النَّقَائِضِ[٢].

٩- أَنْ يَعْرِضَ الرَّدَّ على أَهْلِ العِلْمِ قَبْلَ نَشْرِهِ، فإنْ أشاروا عليه بنَشْرِهِ وإلَّا طَوَاهُ؛ فَرَأْيُ الجماعةِ خَيْرٌ مِنْ رَأْيِ الواحِدِ.

٦- انتهاكُ حُرْمَةِ العُلماءِ:

من جفافِ المشاعرِ انتهاكُ حُرْمَةِ العُلماءِ بالتَّنَقُّصِ مِنْ أَقْدارِهم، وما ذاك بأخلاقِ الكِرامِ، فكِرامُ النَّاسِ لا يسمحون لأنفسِهِم - أو لِغَيْرِهم - بالتَّنَقُّصِ مِنَ العُلماءِ، بَلْ

---

(١) قال ابن القيِّم - رَحِمَهُ اللَّهُ - في الفرق بين النصيحة والتأنيب - كما في كتابه «الروح» (ص٢٥٧-٢٥٨) - ما نصُّهُ: «والفَرْقُ بَيْنَ النصيحةِ والتأنيبِ: أنَّ النصيحةَ إحسانٌ إلى مَنْ تنصحُهُ بصورةِ الرَّحمةِ له، والشَّفقةِ عليه، والغَيْرةِ له، وعليه فهو إحسانٌ مَحْضٌ، يصدُرُ عن رحمةٍ ورِقَّةٍ، ومُرادُ الناصحِ بها وَجْهُ الله ورِضَاهُ، والإحسانُ إلى خَلْقِهِ، فيتلطَّفُ في بَذْلِها غايةَ التَّلطُّفِ، ويحتملُ أذى المنصوحِ ولائمته ويعامله سُوءَ خُلُقِهِ، وشَراستَهُ، ونَفْرتَهُ، ويتلطَّفُ في وُصُولِ الدَّواءِ إليه بكُلِّ ممكنٍ، فهذا شَأْنُ الناصحِ.

وأمَّا المُؤَنِّبُ فهو رجلٌ قَصْدُهُ التَّعبيرُ والإهانةُ، وذمُّ مَنْ أَنَّبه، وشَتْمُهُ في صُورةِ النُّصْحِ، فهو يَقُولُ له: يا فاعلَ كذا وكذا، يا مُستحقًا للذَّمِّ والإهانةِ. في صورةِ ناصحٍ مُشْفِقٍ، وعلامةُ هذا: أنَّه لو رأى مَنْ يُحِبُّهُ ويُحْسِنُ إليه على مِثْلِ عمل هذا - أو شَرٍّ منه - لم يَعْرِضْ له، ولم يَقُلْ له شيئًا، ويَطْلُبُ له وُجُوهَ المعاذيرِ، فإنْ غلب قال: (وأنَّى) ضُمِنَتْ له العِصْمةُ؟، والإنسانُ عُرضةٌ للخطإِ، ومحاسنُهُ أكثرُ من مساويه، والله غفورٌ رحيمٌ، ونَحْوَ ذلك، فيا عجبًا!، وكيف كان هذا لمن يُحِبُّهُ دُونَ مَنْ يُبْغِضُهُ؟!، وكيف كان حَظُّ ذلك منك التأنيبَ في صورة النُّصْحِ، وحَظُّ هذا منك رجاءَ العَفْوِ والمغفرةِ، وطَلَبَ وُجُوهِ المعاذيرِ؟!.

ومن الفُرُوقِ بَيْنَ الناصحِ والمؤنب: أنَّ الناصحَ لا يُعاديك إذا لم تَقْبَلْ، وقال قد وقع أَجْري على الله، قَبِلْتَ أو لم تَقْبَلْ، ويدعو لك بظَهْرِ الغَيْبِ، ولا يذكرُ عُيُوبَكَ، ولا يُبَيِّنُها في النَّاسِ، والمُؤَنِّبُ بضدِّ ذلك».

(٢) النقائض: جمع نَقِيضةٍ، وهي أَنْ يقولَ شاعرٌ شِعْرًا، فَيَنْقُضَ عليه شاعرٌ آخَرُ، حتَّى يجيءَ بغَيْرِ ما قال.

ويُطَهِّرون مجالسَهُم مِنَ الوَقيعةِ فيهم؛ لأنَّ العلماءَ مِنَ المسلمين الَّذين حَرَّمَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- دماءَهُم، وأموالَهُم، وأعراضَهمُ على لسانِ نَبيِّهِ -ﷺ-.

فعن أبي بَكْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسولُ الله -ﷺ-: «**إنَّ دماءَكُم، وأموالَكُم، وأعراضَكُم**[1] **عليكم حَرامٌ كحُرْمَةِ يَوْمِكُم هذا، في شَهْرِكُم هذا، في بَلَدِكُم هذا**»[2].

ومن المعلومِ أنَّه لا يستوي ما حَرَّمه اللهُ مِنْ جِهَةٍ واحدةٍ، وما حرَّمه من جهاتٍ مُتَعَدِّدةٍ، فالحرامُ يَعْظُمُ بتعدُّدِ جهاتِ الانتهاكِ، ويَعْظُمُ -تَبَعًا لذلك- الإِثْمُ، ويتضاعفُ العِقابُ.

فَظُلْمُ النَّفْسِ بالمعاصي حرامٌ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، لكنَّه أَشَدُّ إذا وقع في الأَشْهُرِ الحُرُمِ؛ ولذلك قال ربُّنا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿**فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ**﴾ (التوبة: ٣٦).

ولهذا نظائر؛ فعن المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسولُ الله -ﷺ-: «**لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بعَشْرِ نِسْوةٍ أَيْسَرُ عليه من أَنْ يَزْنِيَ بامرأةِ جارِهِ، ولَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرِ أبياتٍ أَيْسَرُ عليه مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ بَيْتِ جارِهِ**»[3].

وإنَّ المُسيءَ إلى العلماءِ، والطَّاعِنَ فيهم بَغْيًا وعَدْوًا -قَدْ رَكِبَ مَتْنَ[4] الشَّطَطِ[5]، ووقع في أَقْبَحِ الغَلَطِ؛ لأنَّ حُرْمَةَ العُلماءِ مُضاعفةٌ، وحُقُوقهم مُتعدِّدةٌ: فلهم كُلُّ

---

(١) **الأعراض**: جمع عِرْضٍ، وهو موضعُ المَدْحِ والذَّمِّ مِنَ الإنسانِ، سواء كان في نَفْسِهِ أو في سَلَفِهِ، أو مَنْ يَلْزَمُهُ أَمْرُهُ، وقيل: هو جانبُهُ الَّذي يصونُهُ مِنْ نَفْسِهِ وحَسَبِهِ، ويُحامي عنه أن يُنْتَقَصَ أو يُثْلَبَ. انظر «النهاية» (٣/ ٢٠٨)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٦٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٣) «صحيح»: أخرجه أحمدُ (٦/ ٨)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (١٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٦٥).

(٤) مَتْنُ الشَّيءِ -بالفتح-: ظَهْره، والجمع متون.

(٥) الشَّطَط -بفتحتين-: مُجاوزةُ القَدْرِ في كُلِّ شيءٍ.

ما ثبت من حقوقِ المسلمِ على أخيه المُسْلِمِ، ولهم حُقُوقُ المُسنِّين والأكابرِ، ولهم حُقُوقُ حَمَلَةِ القُرْآنِ الكريمِ، ولهم حُقُوقُ العُلَماءِ العاملين، والأولياءِ الصَّالحين، فَمِنْ ثَمَّ نصَّ الشافعيَّةُ على أنَّ الغِيبةَ إذا كانتْ في أَهْلِ العِلْمِ وحَمَلَةِ القُرْآنِ فهي كَبيرةٌ، وإلَّا فصغيرةٌ[1].

فيا أخي، إنَّ التَّنَقُّصَ مِنَ العُلماءِ إيذاءٌ لهم، والإيذاءُ للعلماءِ إيذاءٌ لأولياءِ اللهِ الصالحين، فإنَّ العُلماءَ العاملين يدخلون ـ دُخُولا أَوَّليًّا ـ في وَصْفِ الأَوْلياءِ[2].

ومَنْ عادَى أولياءَ اللهِ، فقد حارب الجبَّارَ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ؛ فعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في الحديثِ القُدْسِيِّ: «مَنْ عادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ[3] بالحَرْبِ»[4].

وقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ الله في الانتقامِ مِنْ مُنْتَقِصِ العُلماءِ، والجزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، قال الإمامُ ابْنُ عَسَاكِرَ الدِّمَشْقِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «واعْلَمْ ـ يا أخي، وفَّقَنا اللهُ وإيَّاك لمرضاتِهِ، وجَعَلَنا ممَّن يَخْشَاهُ ويتَّقيهِ حَقَّ تُقاتِهِ ـ أَنَّ لُحومَ العلماءِ ـ رحمهم الله ـ مسمومةٌ، وعادةُ الله في هَتْكِ أستارِ مُنْتَقِصِيهم معلومةٌ؛ لأنَّ الوَقِيعةَ فيهم بما هم منه بَرَاءٌ[5] أَمْرُهُ عظيمٌ، والتناوُل لأعراضِهم بالزُّورِ والافتراءِ مَرْتَعٌ وَخِيمٌ[6]، والاختلاف على مَنِ اختاره اللهُ منهم لنَشْرِ العِلْمِ خُلُقٌ ذَميمٌ»[7].

---

(١) «مغني المحتاج» (٤/ ٤٢٧)، وانظر «حرمة أهل العلم» للمقدَّم (ص٩، ١٠).

(٢) انظر «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص١٠٤).

(٣) آذنتُهُ: أَعْلَمْتُهُ.

(٤) رواه البخاريُّ (٧/ ١٩٠).

(٥) بَرَاءٌ ـ بالفتح ـ: أي بُرَآءُ، لا يُثَنَّى ولا يُجْمَعُ ولا يُؤَنَّثُ.

(٦) مرتع وخيم: أي وَبيلٌ ثقيلٌ، لا يَنْجَحُ كَلَؤُهُ.

(٧) «تبيين كذب المفتري» (٢٨).

وقال ابْنُ المُبارَكِ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «حَقٌّ على العاقلِ ألَّا يستخفَّ بثلاثةٍ: العُلماءِ، والسَّلاطينِ، والإخوانِ؛ فإنَّه مَنِ استخفَّ بالعُلماءِ ذَهَبَتْ آخِرَتُهُ، ومَنِ استخفَّ بالسُّلْطانِ ذَهَبَتْ دُنْياهُ، ومَنْ استخفَّ بالإخوانِ ذَهَبَتْ مُرُوءتُهُ»[١].

فيا أخي، إنَّك لن تستطيعَ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْ فَضْلِ نَفْسِكَ بمثْلِ اعترافِك بفَضْلِ ذوي الفَضْلِ؛ فإنَّه لا يَعْرِفُ الفَضْلَ لأَهْلِهِ إلَّا ذَوو الفَضْلِ، وليس بفاضلٍ مَنْ لا يَذُبُّ عَنْ أعراضِ الفُضَلاءِ.

وما عَبَّرَ الإنسانُ عَـنْ فَـضْلِ نَفْـسِهِ ... بِمِثْلِ اعتقادِ الفَضْلِ في كُلِّ فاضِـلِ
ولَيْسَ مِنَ الإنصافِ أَنْ يَدْفَعَ الفَتَى ... يَدَ النَّقْصِ عَنْهُ بانتقاصِ الأَفَاضِلِ.

٧ ـ قِلَّةُ الأَدَبِ في الخِطَابِ مَعَ العُلماءِ:

مِنْ جَفافِ المشاعرِ قِلَّةُ الأَدَبِ في الخِطَابِ مَعَ العُلماءِ: كَأَنْ يُنادِيَهُ مِنْ بُعْدٍ مِنْ غَيْرِ ضَرُورةٍ، أو يُنادِيَهُ باسْمِهِ مُجَرَّدًا.

قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ: ﴿ **لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا** ﴾ (النُّور: ٦٣).

قال الخطيبُ البَغْداديُّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في ذِكْرِ أَدَبِ الطالبِ مَعَ شَيْخِهِ: «أَنْ يُنَبِّلَهُ في الخِطَابِ، ويُبَجِّلَهُ في الألفاظِ، ولا تَكُونَ مخاطبتُهُ له كمخاطبتِهِ أَهْلَ السُّوقِ وأفناء[٢] العَوامِّ؛ فقد قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ: ﴿ **لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا** ﴾، وهذا أصلٌ في أَنْ يُمَيَّزَ ذو المنزلةِ بمنزلتِهِ، ويُفَرَّقَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَنْ لَمْ يَلْحَقْ بطبقتِهِ»[٣].

---

(١) «السِّير» (١٧/ ٢٥١).

(٢) الأفناء: الأخلاط من الناس، مفردها فِنْوٌ ـ بالكسر ـ.

(٣) «الفقيه والمتفقِّه» (٢/ ١٧٩).

وقال بكر أبو زيد: «وكما لا يليقُ أَنْ تَقُولَ لوالدِكَ ذي الأُبُوَّةِ الطينيةِ: يا فُلانُ، أو يا والدي فُلانُ، فلا يَجْمُلُ بك مَعَ شَيْخِكَ»[١].

ومِنْ طَرِيفِ ما يُذْكَرُ: أَنَّ أَحَدَهم جاء إلى سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ مِنْ خَلْفِهِ فَجَذَبَهُ، وقال: يا سُفْيَانُ، حَدِّثْني!. فالتفتَ سُفْيانُ إليه، وقال: «يا بُنَيَّ، مَنْ جَهِلَ أَقْدَارَ الرِّجالِ، فهو بنَفْسِهِ أَجْهَلُ»[٢].

وقال أبو محمَّدٍ التَّميميُّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «يَقْبُحُ بكم أَنْ تستفيدوا منَّا، ثُمَّ تذكرونا ولا تترحَّموا علينا»[٣].

---

(١) «حلية طالب العلم» (ص٢٥).

(٢) «آداب العشرة» للغُزِّيِّ (ص٥٥).

(٣) «رسالة المسترشدين» (ص٤).

جفافُ المشاعر مَعَ الإخوان

الأُخُوَّةُ في الله تقومُ على المشاعرِ الدَّافئةِ، والعاطفةِ الصادقةِ، والأُلْفةِ والوُدِّ والتَّراحُمِ، فهي أشبهُ ببَذْرَةٍ زُرِعَتْ في أَرْضٍ خِصْبَةٍ، تُسْقَى بماءِ المشاعرِ الفيَّاضةِ، ولا يُمْكِنُ لمن جَفَّتْ مشاعرُهُ أَنْ يستبقيَ على إخوانِه، وأنَّى لهمُ الحياةُ في صَحْرَاءٍ قاحلةٍ، لا ماءَ فيها ولا شَجَرَ؟!.

نعمة الأخُوَّة:

الأُخُوَّةُ في الله مِنْ أَجَلِّ النِّعَمِ وأَعْظَمِها بَعْدَ نِعْمَةِ الهُدَى والإيمانِ، قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، قَالَ ٱللَّهُ ـ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٣).

فما أَرْوَعَها مِنْ نِعْمَةٍ!، فيها من النُّورِ العظيمِ جلالٌ وبهاءٌ وكمالٌ، وأنت حَقِيقٌ أَنْ تَدَّخِرَ إخوانَك، وتَسْتبقيَ على مودَّتِهم؛ فإنَّ ذلك سببٌ لتذوُّقِ حَلاوةِ الإيمانِ؛ فعن أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ حَلاوةَ الإيمانِ، فَلْيُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا للَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ**»[(١)].

و عن أَنَسِ بْنِ مالكٍ ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه، وَجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليه ممَّا سِواهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لله، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ**»[(٢)].

---

(١) «حسن»: أخرجه أحمدُ (٢/ ٢٩٨)، والطيالسي (٢٤٩٥)، والحاكم (١/ ٤)، (٤/ ١٦٨) وصحَّحه، ووافقه الذَّهبيُّ، ورواه البغويُّ في «شرح السُّنَّة» (١٣/ ٥٣)، وقال الهَيْثميُّ في «المجمع» (١/ ٩٠): رجالُهُ ثِقاتٌ ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦١٦٤).

(٢) رواه البخاريُّ (١٦)، ومسلم (٤٣).

ولْتَعْلَمْ - أخي في الله - أَنَّ جَفافَ مشاعِرِكَ مَعَ إخوانِك يُقَرِّرُ لك في قُلُوبِهِمْ مِنَ العَيْبِ أكثرَ مِمَّا يُقَرِّرُ لك مِنَ الفَضْلِ.

صور من جفاف المشاعر مع الإخوان:

١ - قلة الرغبة في انتقاء الإخوان:

لا تَقِلُّ الرَّغْبَةُ في انتقاءِ الإخوانِ إِلَّا مِنْ جفافِ المشاعرِ، فَمَنْ جَفَّتْ مشاعِرُهُ فإنَّه لا يُبالي مَنْ يُصاحِبُ، أكان صالحًا يَزْدَادُ به صلاحًا، أم صديقَ سَوْءٍ لا يَزْدَادُ به إلَّا وَهْنًا إلى وَهْنِهِ، وقد حثَّنا نبيُّنا - ﷺ - على انتقاءِ الإخوانِ، وأرشد إلى ذلك؛ فعن أَبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : «**الرَّجلُ على دِيْنِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخَالِلُ**»[١].

ففي هذا الحديثِ حثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على انتقاءِ الإخوانِ واختيارِهم؛ لأنَّ للإخوانِ مِنَ التأثيرِ ما ليس لِغَيْرِهم، ويُؤَكِّدُ ذلك حديثُ أبي مُوسى الأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : «**إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ، والجليسِ السَّوْءِ كحامِلِ المِسْكِ، ونافِخِ الكِيْرِ**[٢]**؛ فحاملُ المِسْكِ إمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ**[٣]**، وإمَّا أَنْ تَبْتَاعَ منه**[٤]**، وإمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيْرِ إمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثيابَكَ، وإمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً**»[٥].

---

(١) «حسن»: أخرجه أحمدُ (٧٢١٢)، وأبو داوُدَ (٤٨٣٣)، والتِّرْمِذيُّ (٢٣٨٧)، وقال: حسن صحيح، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٢٧).

(٢) الكير - بالكسر - : جِلْد غليظ ذو حافاتٍ، يَنْفُخُ فيه الحدَّادُ.

(٣) يُحذيك: يعطيك.

(٤) تبتاع منه: تطلب البَيْعَ منه.

(٥) رواه البخاريُّ (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

وهذا التَّمثيل للجليسِ الصَّالحِ والجليسِ السَّوْءِ من تمامِ حِرْصِهِ - ﷺ - على أُمَّتِهِ بتوجيهها إلى الخيرِ وأبوابِهِ، وتحذيرِهم من الشَّرِّ ومُقَدِّماتِهِ؛ فإنَّ للجليسِ من التَّأثيرِ ما ليس لغيرِهِ، كما قيل:

صَحِبْتُكُمْ فَازْدَدْتُ نُورًا وبَهْجَةً ... وَمَنْ يَصْحَبِ الطِّيْبَ المُعَطَّرَ يَعْبَقُ(١)

ويَحْسُنُ بنا ذِكْرُ مَنْ تُؤْثَرُ صُحْبَتُهُ.

صِفَةُ مَنْ تُؤْثَرُ صُحْبَتُهُ:

١ - أَنْ يكونَ صالحًا نَشَأَ في الصَّالحينَ:

فَعَنْ عَمْرِو بْنِ العاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «**أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي (يَعْنِي فُلانًا)**(٢) **لَيْسُوا بأَوْليائي، إِنَّما وَلِيِّيَ اللهُ، وصالِحُ المُؤْمِنِيْنَ**»(٣).

قال ابْنُ حِبَّانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «العاقِلُ لا يُؤَاخي إلَّا ذا فَضْلٍ في الرَّأْيِ، والدِّيْنِ، والعِلْمِ، والأخلاقِ الحَسَنةِ، ذا عَقْلٍ نَشَأَ مَعَ الصالحين؛ لأنَّ صُحْبَةَ بليدٍ نَشَأَ مَعَ العُقَلاءِ خَيْرٌ مِنْ صُحْبةِ لَبِيبٍ نَشَأَ مَعَ الجُهَّالِ»(٤).

عاشِرْ أَخَا الدِّينِ؛ كي تَحْظَى بِصُحْبَتِهِ
فَالطَّبْعُ مِنْ كُلِّ مَصْحُوبِ
كالرِّيحِ آخِذَةٍ مِمَّا تَمُرُّ بِهِ
نَتْنًا مِنَ النَّتْنِ، أَوْ طِيبًا مِنَ الطِّيْبِ.

---

(١) يُقال: عَبِقَ به الطِّيبُ عبقًا: أي لزق ولَصِقَ به، وبابُهُ فَرِحَ.

(٢) هذِهِ الكنايةُ من بَعْضِ الرُّواةِ، خَشِيَ أنْ يُسمِّيَهُ، فيترتَّبَ عليه مفسدةٌ وفتنةٌ.

(٣) رواه البخاريُّ (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥).

(٤) «روضة العقلاء» (ص١٤٧).

٢ ـ أن يكون حَسَنَ الخُلُقِ:

وذلك لأنَّ حُسْنَ الخُلُقِ هُوَ الأساسُ بَعْدَ الإيمانِ بالله، وقد ذكر الإمام الماوَرْدِيُّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ أَنَّ مِنَ الخِصَالِ المُعْتَبرةِ في إخاءِ الإخوانِ: «أَنْ يكونَ مَحْمُودَ الأخلاقِ، مرضيَّ الفِعالِ، مُؤْثرًا للخيرِ آمرًا به، كارهًا للشَّرِّ ناهيًا عنه»[١].

وقال **الفُضَيْلُ بْنُ عِياضٍ** ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «إذا خالطتْ فخالِطْ حَسَنَ الخُلُقِ؛ فإنَّه لا يدعو إلا إلى خيرٍ، وصاحبُهُ منه في راحةٍ، ولا تُخالِطْ سَيِّءَ الخُلُقِ؛ فإنَّه لا يدعو إلَّا إلى شَرٍّ، وصاحبُهُ مِنْهُ في عناءٍ؛ ولَأَنْ يَصْحَبَني فاجرٌ حَسَنُ الخُلُقِ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ يَصْحَبَني قارئٌ سيِّءُ الخُلُقِ؛ إنَّ الفاسِقَ إذا كانَ حَسَنَ الخُلُقِ عاش بعَقْلِهِ، وخَفَّ على النَّاسِ وأَحَبُّوهُ، وإنَّ العابِدَ إذا كانَ سَيِّءَ الخُلُقِ، ثَقُلَ على النَّاسِ ومَقَتُوهُ»[٢].

وقال **ابْنُ حَزْمٍ** ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «مَنْ طَلَبَ الفضائلَ لم يُسايِرْ إلَّا أَهْلَهُ، ولم يُرافِقْ في تلك الطريقِ إلَّا أكرمَ صديقٍ مِنْ أَهْلِ المُواساةِ، والبِرِّ والصِّدْقِ، وحُسْنِ العِشْرةِ، والصَّبْرِ، والوفاءِ، والأمانةِ، والحِلْمِ، وصفاءِ الضَّميرِ، وصِحَّةِ المودَّةِ»[٣].

وإيَّاكَ أَنْ تُؤاخِيَ أحدًا إلَّا بَعْدَ تثبُّتٍ وطُولِ مُعاشرةٍ، ومن ذلك السَّفَرُ مَعَهُ؛ فإنَّ السَّفَرَ يُسْفِرُ عن حقائقِ النُّفُوسِ، ويُرِيكَ أَيْنَ أخلاقُهُ مِنْ أخلاقِ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ، فإنَّ العَرَبَ تقولُ: «السَّفَرُ مِيزَانُ القَوْمِ»[٤]، لأنه يُسْفِرُ عَنْ كثيرٍ مِنْ أخلاقِهم وطبائِعِهم.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص١٦٧).

(٢) «روضة العقلاء» (ص١٠١).

(٣) «الأخلاق والسِّير» (ص٩٢).

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٢١٨).

أَبْلُ الرِّجَالَ[١] إذا أَرَدْتَ إخَاءَهُمْ
وَتَوَسَّمَنَّ[٢] أُمُورَهُمْ وَتَفَقَّدِ

فَإذا ظَفِرْتَ بِذِي الأَمَانةِ والتُّقَى
فَبِهِ اليَدَيْنِ ـ قَرِيرَ عَيْنٍ ـ فَاشْدُدِ.

ولا يقفُ الأَمْرُ عِنْدَ هذا، بَلِ انظرْ مَنْ يُصاحِبُ غَيْرَكَ؛ فقد قيل: «قُلْ لي من تُصاحِبُ؟ أُخبِرْكَ مَنْ أنْتَ».

وقال بَعْضُ الحُكماء: «اعْرِفْ أَخَاكَ بأَخيهِ قَبْلَكَ»[٣].

وقال أعرابيٌّ: «اعْرِفِ النَّاسَ بإخوانِهِمْ».

وقال الشاعر:

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ، وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارِنِ يَقْتَدِي

وَصَاحِبْ أُولي التُّقَى تَنَلْ مِنْ تُقاهُمُ
ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي.

٣ ـ أن يكون عاقلاً:

ذكر الإمام الماوَرْدِيُّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ أَنَّ مِنَ الخِصالِ المُعتبرةِ في إخاءِ الإخوانِ: «عَقْلٌ موفورٌ يَهْدي إلى مراشدِ الأمورِ»[٤].

---

(١) ابْلُ: اخْتَبِرْ وَجَرِّبْ.

(٢) توسَّمَنَّ: تَفَرَّسَنَّ.

(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٦٥).

(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٦٧).

٤ ـ ألاَّ يكونَ لئيمًا:

قال ابْنُ حبَّانَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «والعاقلُ لا يُؤاخي لئيمًا؛ لأنَّ اللَّئيمَ كالحيَّةِ الصَّمَّاءِ[١]، لا يُوجَدُ عِنْدَها إلَّا اللَّدْغُ والسُّمُّ، ولا يَصِلُ اللَّئيمُ ولا يُؤاخي إلَّا عَنْ رَغْبةٍ أو رَهْبةٍ، والكَرِيمُ يَوَدُّ الكَرِيمَ على لَقْيةٍ واحدةٍ[٢]، ولو لَمْ يَلْتَقِيا بَعْدَها أَبَدًا»[٣].

٥ ـ ألاَّ يكونَ حريصًا على الدُّنيا:

الحريصُ على الدُّنيا صُحْبَتُهُ عَناءٌ، وفِراقُهُ غَناءٌ، ومُداراتُهُ طريقٌ للسَّلامةِ، قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (النجم: ٢٩).

قال العلَّامةُ ابْنُ سَعْديٍّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «أمر اللهُ رسولَهُ بالإعراضِ عمَّن تولَّى عَنْ ذِكْرِه، الَّذي هو الذِّكْرُ الحكيمُ، والقُرآنُ العظيمُ، والنَّبأُ الكَرِيمُ، فأَعْرَضَ عَنِ العلومِ النافعةِ، ولم يُرِدْ إلَّا الحياةَ الدُّنيا، فهذا مُنْتَهَى إرادتِهِ، ومن المعلومِ أنَّ العَبْدَ لا يعملُ إلَّا للشَّيءِ الَّذي يُريدُهُ، فَسَعْيُهُمْ مَقْصُورٌ على الدُّنيا ولذَّاتِها وشَهَواتِها، كيف حَصَلَتْ حصَّلوها، وبأيِّ طريقٍ سَنَحَتِ ابتدروها»[٤].

٦ ـ ألاَّ يكونَ فاسقًا:

والفاسقُ سارقٌ، يَسْرِقُ مِنْ دِينِكَ قَبْلَ أَنْ يَسْرِقَ من أخلاقِكَ، ويتغيَّرُ بتغيُّرِ الأغراضِ والأهواءِ، قَالَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ (الكهف: ٢٨).

---

(١) الحيَّةُ الصَّمَّاءُ: الَّتي لا تقبلُ الرُّقَى.

(٢) أي: يقع في قلبه حُبُّ مصادقته، وإن لم يَلْقَهُ إلَّا مرَّةً واحدةً لكمالِ خِلَالِهِ.

(٣) «روضة العقلاء» (ص١٤٤).

(٤) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (ص٨٢٠).

قال ابْنُ حبَّانَ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «العاقلُ لا يُصاحِبُ الأشرارَ؛ لأنَّ صُحْبَةَ صاحِبِ السَّوءِ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، تُعْقِبُ[١] الضَّغائِنَ[٢]، لا يستقيمُ وُدُّهُ، ولا يفي بعهدِهِ.

وإنَّ مِن سعادةِ المَرْءِ خِصالًا أربعًا: أن تكونَ زوجتُهُ مُوافقةً، ووَلَدُهُ أبرارًا، وإخوانُهُ صالحين، وأنْ يكونَ رِزْقُهُ في بَلَدِهِ.

وكُلُّ جليسٍ لا يستفيدُ منه المَرْءُ خيرًا تكونُ مُجالسةُ الكَلْبِ خيرًا مِنْ عِشْرَتِهِ، ومن يَصْحَبْ صاحِبَ السَّوْءِ لا يَسْلَمْ، كما أنَّ مَنْ يَدْخُلْ مداخِلَ السُّوءِ يُتَّهَمْ»[٣].

وأَهْوَى مِنَ الشُّبَّانِ كُلَّ مُجَنَّبٍ ... عَنِ اللَّهْوِ مِقْدَامًا إلى كُلِّ طاعَةِ
أَخُو عِفَّةٍ عَنْ كُلِّ شيءٍ مُحرَّمٍ ... وذو رَغْبَةٍ فيما يَقُودُ لِجَنَّةِ
تَمسَّكْ بِهِ ـ إنْ تَلْقَهُ ـ يا أخا التُّقى ... تَمَسُّكَ ذي بُخْلٍ بِتبْرٍ[٤] وفِضَّةِ.

٧ ـ ألاَّ يكونَ مُبتدعًا:

المبتدعُ صُحْبتُهُ بلاءٌ خطيرٌ، وشَرٌّ مستطيرٌ؛ لأنَّه أشدُّ خطرًا، وأعظمُ ضَرَرًا مِنَ الفاسقِ، وأكثرُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ على التَّحذيرِ الشديدِ مِنْ صُحْبَةِ المُبتدعِ.

قال سعيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «لِأَنْ يُصاحِبَ ابني فاسقًا شاطِرًا ـ أَيْ: قاطعَ طريقٍ ـ سُنِّيًّا أَحَبُّ إِليَّ مِنْ أن يَصْحَبَ عابدًا مُبْتدعًا»[٥].

وكثيرٌ مِمَّن صاحب أَهْلَ البِدَعِ لم يَسْلَمْ مِنْ غَوائِلِهِمْ[٦].

---

(١) تُعْقِبُ: تُورِثُ.
(٢) الضغائن: الأحقاد، مفردها ضغينة.
(٣) «روضة العقلاء» (ص١٠١).
(٤) التِّبْرُ ـ بالكسر ـ: ما كان من الذهب غَيْرَ مضروبٍ، أو غَيْرَ مَصْنُوعٍ، واحدتُهُ تِبْرَة.
(٥) «الإبانة الصُّغْرى» لابن بطَّةَ (ص١٣٢).
(٦) الغوائل: الدواهي والشُّرور، مفردها غائلةٌ.

قال الذَّهبيُّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في ترجمةِ الديوبندي: «وكان يُلازمُ الرافضةَ والملاحدةَ، فإذا عُوْتِبَ قال: إنَّما أُريدُ أن أعرفَ أقوالَهُم، إلى أَنْ صار مُلْحِدًا، وحَطَّ[1] على الدِّيْنِ والمِلَّةِ»[2].

وقال ـ أيضًا ـ في تَرْجَمةِ ابْنِ عقيلٍ الحَنْبَلِيِّ حيثُ نَقَلَ عَنْهُ قَوْلَهُ: «وكان أصحابُنا الحنابلةُ يُريدون مِنِّي هِجرَانَ جماعةٍ مِنَ العلماءِ، وكان يَحْرِمُني عِلْمًا نافعًا!».

فعلَّق عليه بقولِهِ: «كانوا يَنْهَوْنَهُ عَنْ مُجالسةِ الْمُعْتَزِلَةِ ويَأْبى، حتَّى وَقَعَ في حَبائِلِهِمْ، وتجسَّر على تَأْوِيلِ النُّصُوصِ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامةَ»[3].

٨ ـ أن يكونَ مِنْ كُلِّ واحدٍ مِنْهُمَا مَيْلٌ لصاحبِه:

ذكر الإمام الماوَرْدِيُّ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ أنَّ مِنَ الخِصالِ الْمُعْتَبَرةِ في إخاءِ الإخوانِ: «أَنْ يكونَ مِنْ كُلِّ واحدٍ منهما مَيْلٌ لصاحبِهِ، ورَغْبةٌ في مُؤاخاتِهِ»[4].

وهذِهِ الرَّغْبةُ تُسَمَّى الأُلْفَةَ؛ وتُعَرَّفُ الأُلْفَةُ بأَنَّها: «اجتماعٌ مَعَ التئامٍ ومَحَبَّةٍ»[5].

وقيل: «هي مَيَلانُ القَلْبِ إلى المَأْلُوفِ»[6].

وما مِنْ شَكٍّ أنَّ الأُخُوَّةَ الصافيةَ لا ينتظمُ عِقْدُها بَيْنَ شَخْصَيْنِ، إلَّا أَنْ يكونَ بَيْنَ رُوحَيْهِما تقارُبٌ، وفي آدابِهِما تشابُهٌ.

---

(١) حَطَّ: نَزَلَ.

(٢) «سير أعلام النُّبلاء» (٤/ ٩٥).

(٣) المرجع السابق (١٩/ ٤٤٧).

(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص١٦٨).

(٥) انظر «موسوعة نضرة النعيم» (٢/ ٤٩٥).

(٦) «كشاف اصطلاحات الفنون» (١/ ١١٤)، و«التوقيف على مهمّات التعاريف» للمناوي (ص٦٠).

عن عائشةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «الأرواحُ جُنُودٌ مُـجَنَّدَةٌ(١)، فما تعارف(٢) منها ائْتَلَفَ(٣)، وما تَنَاكَرَ(٤) منها اخْتَلَفَ(٥)»(٦).

قال الحافظ ابْنُ حَجَرٍ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «قال الخَطَّابِيُّ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إشارةً إلى مَعْنَى التَّشاكُلِ في الخَيْرِ والشَّرِّ، والصَّلاحِ والفسادِ، وأَنَّ الخَيِّرَ مِنَ النَّاسِ يَحِنُّ إلى شَكْلِهِ، والشَّرير نظيرُ ذلك يميلُ إلى نَظِيرِهِ، فتعارُفُ الأَرْوَاحِ يَقَعُ بحَسْبِ الطِّباعِ الَّتي جُبِلَتْ عليها مِنْ خيرٍ وشَرٍّ، فإذا اتَّفَقَتْ تعارَفَتْ، وإذا اختلَفَتْ تناكرتْ.

قلتُ ـ أَي: ابْنُ حَجَرٍ ـ : ولا يَعْكِرُ(٧) عليه أَنَّ بَعْضَ المتنافرين رُبَّما ائْتَلفا؛ لأَنَّه محمولٌ على مَبْدَإِ التلاقي، فإنَّه يتعلَّق بأَصْلِ الخِلْقةِ بغيرِ سَبَبٍ، وأمَّا في ثاني الحالِ فيكونُ مُكتَسَبًا لتجدُّد وَصْفٍ يَقْتَضِي الأُلْفة بَعْدَ النَّفْرةِ: كإيمانِ الكافرِ، وإحسانِ المُسِيءِ. وقولُهُ: «جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ»، أي: أجناسٌ مُجَنَّسَةٌ، أو جُمُوعٌ مُجَمَّعةٌ.

قال ابْنُ الجَوْزِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : ويُسْتَفادُ من هذا الحديثِ: أَنَّ الإنسانَ إذا وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ نَفْرَةً مِمَّن له فضيلةٌ أو صلاحٌ، فينبغي أَنْ يَبْحَثَ عَنِ المُقْتضي لذلك؛ ليسعى في إزالتِهِ؛ حتَّى يتخلَّصَ مِنَ الوَصْفِ المَذْمُومِ، وكذلك القولُ في عَكْسِهِ»(٨).

ويُؤْخَذُ مِنْ هذا أَنَّك مَتَى وَجَدْتَ صُحْبَةً بَيْنَ بخيلٍ وكريمٍ، أو جَبانٍ وشُجاعٍ، أو غَبِيٍّ وذَكيٍّ، أو مُهْتَدٍ ومُبْتَدِعٍ، أو أحمقَ وعاقلٍ ـ فاعلمْ أَنَّ الصُّحْبَةَ لَمْ تَبْلُغْ أَنْ تكونَ صداقةً بالغةً.

---

(١) جُنودٌ مجنَّدة: جموع مجتمعة، وأنواعٌ مختلفةٌ، والأرواح جمع رُوحٍ، وهو الَّذي يقوم به الجَسَدُ، وتكونُ به الحياةُ.

(٢) تعارف: توافقت صفاتها، وتناسبت في أخلاقها.

(٣) ائتلف: من الألفة، وهي المحبَّة والمودَّة.

(٤) تناكر: تنافرت في طبائعها.

(٥) اختلف: تباعد.

(٦) رواه البخاريُّ (٣٣٣٦)، واللفظ له، ورواه مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

(٧) عَكَرَ على الشَّيء ـ من بابَيْ ضَرَبَ ودَخَلَ ـ : رَجَعَ.

(٨) «فتح الباري» (١٠/ ٤٢٦) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

قال مُجاهِدٌ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «رَأَى ابْنُ عبَّاسٍ ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ رجلًا، فقال: إنَّ هذا لَيُحِبُّني، قالوا: وما عِلْمُكَ؟، قال: إنِّي لَأُحِبُّهُ، والأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدةٌ، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»(١).

لا تَسْأَلَنَّ المَرْءَ عَمَّا عِنْدَهُ ... واسْتَمْلِ(٢) ما في قَلْبِهِ مِنْ قَلْبِكَا
إنْ كانَ بُغْضًا كانَ عِنْدَكَ مِثْلُهُ ... أو كانَ حُبًّا فازَ مِنْكَ بِحُبِّكَا.

وكان مالكُ بْنُ دِينارٍ يقولُ: «لا يَتَّفِقُ اثنانِ في عِشْرةٍ إلَّا وفي أَحَدِهما وَصْفٌ مِنَ الآخَرِ، وإنَّ أجْناسَ النَّاسِ كأجْناسِ الطَّيْرِ، ولا يتَّفقُ نَوْعانِ مِنَ الطَّيْرِ في الطَّيَرانِ إلَّا وبَيْنَهُما مُناسبةٌ»(٣).

ورَأَى يومًا غُرابًا مَعَ حمامةٍ، فقال مُتَعجِّبًا: «اتَّفقا وَلَيْسا مِنْ شَكْلٍ واحِدٍ!». ثُمَّ طارا، فإذا هُما أَعْرَجانِ، فقال: «مِنْ ها هُنا اتَّفقا».

وقال ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «وأنت إذا تأمَّلتَ الوجودَ لا تكادُ تَجِدُ اثْنَيْنِ يتحابَّانِ إلَّا وبينهما مُشاكلةٌ، أوِ اتِّفاقٌ في فِعْلٍ، أو حالٍ، أو مقصدٍ، فإنْ تباينتِ المقاصدُ، والأوصافُ، والأفعالُ، والطَّرائقُ ـ لم يَكُنْ هُناك إلَّا النَّفْرةُ والبُعْدُ بَيْنَ القُلُوبِ، ويكفي في هذا الحديثِ الصحيحِ عَنْ رسولِ الله ـ ﷺ ـ : «**مَثَلُ المؤمنين في توادِّهِم، وتَرَاحُمِهِم، وتعاطُفِهِم كمثلِ الجَسَدِ الواحِدِ، إذا اشتكى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى له سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى**»(٤).

وقال ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «إذا كانتِ المحبَّةُ بالمشاكلةِ والمُناسبةِ ثَبَتَتْ وتمكَّنَتْ، ولم يُزِلْها إلَّا مانعٌ أقوى مِنَ السَّببِ، وإذا لم تَكُنْ بالمُشاكلةِ، فإنَّما هي محبَّةٌ لغَرَضٍ مِنَ الأغراضِ،

(١) «روضة العقلاء» (ص١٨٠).
(٢) اسْتَمْلَاهُ الكتابَ: سألَهُ أَنْ يُمْلِيَهُ عليه.
(٣) «بهجة المجالس» للأثريِّ (٢/ ١١٠).
(٤) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلم (٦٦) عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشيرٍ.

تزولُ عِنْدَ انقضائِهِ، وتَضْمَحِلُّ، فمن أحبَّكَ لأَمْرٍ ولَّى عِنْدَ انقضائِهِ، فداعي المحبَّةِ وباعثُها إنْ كان غَرَضًا للمحبِّ، لَمْ يَكُنْ لمحبَّتِهِ بَقَاءٌ»[١].

٢ ـ قِلَّةُ التَّودُّدِ للإخوانِ:

من جفافِ المشاعرِ قِلَّةُ التَّودُّدِ للإخوانِ، ومن طِباعِ الكريمِ وسَجاياهُ رِعايةُ هذا الحقِّ؛ لأنَّه مِنْ أسبابِ بقاءِ المحبَّةِ، ودَوامِ الأُلْفةِ، ولِحِفْظِ التَّودُّدِ وسائلُ كثيرةٌ، فمنها:

وسائلُ حِفْظِ المودَةِ:

١ ـ إظهارُ المحبَّةِ:

قد حثَّ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ على إظهارِ المحبَّةِ القَلْبيَّةِ، والعاطفةِ المكنونةِ، وبَيَّنَ أنَّ ذلك أبقى في الأُلْفَةِ، وأثبتُ في المودَّةِ، فعن عليِّ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ مرفوعًا قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «**إذا أحبَّ أحدُكم أخاهُ في الله، فَلْيُعْلِمْهُ؛ فإنَّه أبقى في الأُلْفَةِ، وأثبتُ في المودَّةِ**»[٢].

قال الإمام البغويُّ ـ رَحِمَهُٱللَّهُ ـ : «ومعنى الإعلامِ هو: الحثُّ على التَّودُّدِ والتألُّفِ، وذلك أنَّه إذا أخبره استمالَ قَلْبَهُ، واجتلب وُدَّهُ»[٣].

وعن أبي ذرٍّ ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**إذا أحبَّ أحدُكم صاحبَهُ، فَلْيأتِهِ في مَنْزِلِهِ، فَلْيُخْبِرْهُ بِأنَّه يُحِبُّهُ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ**»[٤].

قال الإمام البغويُّ ـ رَحِمَهُٱللَّهُ ـ : «وفيه: أنَّه إذا أعلم أنه مُحِبٌّ له، قَبِلَ نُصْحَهُ فيما دلَّهُ عليه مِنْ رُشْدِهِ، ولم يَرُدَّ قَوْلَهُ فيما دعاه إليه مِنْ صلاحٍ، خَفِيَ عليه باطنُهُ»[٥].

---

(١) «روضة المحبِّين» (ص ٥٤).

(٢) «حسن»: أخرجه وَكِيعٌ في «الزُّهد» (٣٣٧) بسندٍ صحيحٍ، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١١٩٩).

(٣) «شرح السنة» للبغويِّ (١٣/ ٦٧).

(٤) «صحيح»: أخرجه ابْنُ المُبارَكِ في «الزُّهد» (٧١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٧٩٧).

(٥) «شرح السنة» (١٣/ ٦٧).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مالكٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: مَرَّ رجلٌ بالنَّبيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، فقال رجلٌ ممَّن عِنْدَهُ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا هذا لله. فقال النَّبيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **«أَعْلَمْتَهُ؟»**. قال: لا. قال: **«قُمْ إليه فَأَعْلِمْهُ»**. فقام إليه فأَعْلَمَهُ، فقال: أَحَبَّكَ الَّذي أَحْبَبْتَني لَهُ، ثُمَّ قال: ثُمَّ رَجَعَ فسأله النَّبيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فأخبره بما قال، فقال النَّبيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **«أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، ولَكَ ما احْتَسَبْتَ»**[١].

وعن مُعاذِ بْنِ جَبَلٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ: أنَّ رسولَ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَخَذَ بيدِهِ، وقال: **«يا مُعاذُ، والله، إنِّي لَأُحِبُّكَ»**. فقال: **«أُوصِيكَ ـ يا مُعاذُ ـ لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ، أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسْنِ عِبادَتِكَ»**[٢].

٢ ـ تعاهُدُ الإخوانِ بالهَدِيَّةِ:

للهَدِيَّةِ أَثَرٌ عظيمٌ في كَسْبِ القُلُوبِ، واستجلابِ المحبَّةِ، والبقاءِ على المودَّةِ، وقد حَثَّ النَّبيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ على الإهداءِ؛ فعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **«تَهَادُوا تَحَابُّوا»**[٣].

وعن عائشةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قالتْ: «كان رسولُ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ، ويُثِيبُ عليها[٤]»[٥].

---

(١) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٥١٢٥)، والحاكم (٤/ ١٧١)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٤١٨).

(٢) «صحيح»: أخرجه أحمدُ (٥/ ٢٤٤)، وأبو داوُدَ (١٥٢٢)، والنَّسائيُّ (١٣٠١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (١١٤٧).

(٣) «حسن»: أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، وحسَّنه الألبانيُّ لشواهده في «صحيح الجامع» (٣٠٠٤)، وفي «إرواء الغليل» (١٦٠١).

(٤) **يثيب عليها**: أي يُجازي المُهْدِي بهديَّةٍ ـ أيضًا ـ.

(٥) رواه البخاريُّ (٢٥٨٥).

فعليك - أخي - أن تتعاهدَ إخوانَك بالهدايا ما استطعتَ إلى ذلك سبيلًا؛ فإنَّ الهديَّةَ مِنْ أَعْظَمِ ما يَتَوَصَّلُ بها إلى قلوبِ الإخوانِ، ويُسْتَجْلَبُ بها محبَّتُهم.

٣ - إفشاءُ السَّلام:

إفشاءُ السلامِ مِنْ أعظمِ أسبابِ الأُلْفَةِ والمحبَّةِ بَيْنَ الإخوةِ، كما أنَّه من أعظمِ أسبابِ زَوالِ الشَّحْناءِ والبَغْضَاءِ عَنْ قُلُوبِهِمْ؛ فعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : **«والَّذي نَفْسي بيدِهِ، لا تَدْخُلُونَ الجنَّةَ حتَّى تُؤمنوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَـحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُم على شيءٍ إذا فعلتموه تَـحَابَبْتُم؟، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ»**[١].

وهو - أَي: السَّلامُ - حقٌّ مِنْ حُقُوقِ المُسْلِمِ على أخيهِ المُسْلِمِ؛ فعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : **«حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ سِتٌّ: إذا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عليهِ، وإذا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وإذا استنصحك فانْصَحْ لَهُ، وإذا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وإذا مَرِضَ فَعُدْهُ، وإذا مَاتَ فاتَّبِعْهُ»**[٢].

وقد ذكر النَّبيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ مِنَ البُخْلِ البُخْلُ بالسَّلامِ؛ فعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : **«إنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بالسَّلامِ، وأَعْجزَ النَّاسِ مَنْ عَجزَ عَنِ الدُّعاءِ»**[٣].

فاحْرِصْ - أخي - على إفشاءِ السَّلامِ؛ فإنَّهُ يُزِيلُ العداوةَ، ويُنْهِي الخُصُومةَ، ويَسُلُّ سَخِيمةَ الصُّدُورِ، ويَجْمُلُ بك أَنْ تُرْسِلَ إلى أخيك برسولٍ يَحْمِلُ إليه سلامَكَ،

---

(١) رواه مسلم (٥٤).

(٢) رواه مسلم (٢١٦٢).

(٣) «صحيح»: أخرجه المنذري في «الترغيب» (٣/ ٤٣٠) واللفظ له، وقال: إسنادُهُ جيِّدٌ قويٌّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٥١٩).

أو تَبْعَثَ له بالسَّلامِ عَبْرَ رسالةٍ، أو تتَّصلَ به هاتفيًّا للسَّلامِ عليه، ويتخلَّلُ ذلك السُّؤالُ عن حالِه، وحالِ مَنْ يعزُّ عليه، مَعَ التواصي بالحقِّ والصَّبْرِ؛ فإنَّ ذلك أدعى لبقاءِ المودَّةِ، وتوثيقِ عُرَا الأُخُوَّةِ بينكما.

فعن عائشةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالتْ: قال لي رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**يا عائِشُ، هذا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلامَ**». قالتْ: قُلْتُ: «وعليه السَّلامُ ورحمةُ الله وبَرَكاتُهُ»[١].

وعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، عَنِ النَّبيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أنَّه قال: «**إنِّي لَأَرْجُو ـ إنْ طال بي عُمرٌ ـ أَنْ أَلْقَى عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُم، فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلامَ**»[٢].

وأخيرًا إنِ استطعتَ ألَّا يَسْبِقَكَ أَحَدٌ إلى البَدْءِ بالسَّلامِ فافْعَلْ؛ فإنَّ النَّبيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يقولُ: «**وخَيْرُهما الَّذي يَبْدَأُ بالسَّلام**»[٣]، وعن أبي أُمامةَ الباهليِّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**إنَّ أَوْلَى**[٤] **النَّاسِ بالله مَنْ بَدَأَهُمْ بالسَّلامِ**»[٥].

٤ ـ المُصافحة:

المصافحةُ مِنْ أعظمِ وسائلِ المودَّةِ والمحبَّةِ بَيْنَ الإخوانِ، ومِنَ الأعمالِ الصالحاتِ الَّتي تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ؛ فعن البَرَاءِ بْنِ عازِبٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**ما مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ، إلَّا غُفِرَ لَهُما قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا**»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٩)، ومسلم (٢٤٤٧).

(٢) «صحيح»: رواه أحمدُ (٢/ ٢٩٨) وإسناده صحيح.

(٣) رواه البخاريُّ (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠) من حديث أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ.

(٤) أولى: أي أحقّ بالقُرْبِ منه والطاعةِ.

(٥) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٥١٩٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٠١١).

(٦) «حسن»: رواه أبو داوُدَ (٥٢١٢)، والتِّرْمذيُّ (٢٧٢٧)، وقال: حسن غريب، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٧٧٧)، وفي «الصحيحة» (٥٢٥).

وعن أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رَجُلٌ: يا رسولَ الله، الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أَخَاهُ أو صَدِيقَهُ، أَيَنْحَنِي لَهُ؟. قال: «لا». قال: أيأَخُذُ بِيَدِهِ ويُصافِحُهُ؟. قال: «نعَمْ»[١].

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: «علَّمَني رسولُ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ التَّشهُّدَ، وكَفِّي بَيْنَ كفَّيهِ»[٢].

ومِنَ الأَدَبِ إذا صافحك أَخُوكَ أَلَّا تَنْزِعَ يَدَكَ مِنْ يَدِهِ، حتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذي يَنْزِعُ قَبْلَكَ.

فعَنِ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: «كان النَّبيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إذا استقبله الرَّجُلُ فصافحه، لا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ، حتَّى يكونَ الرَّجُلُ الَّذي يَنْزِعُ، ولا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ، حتَّى يكونَ الرَّجُلُ هُوَ يَصْرِفُهُ، ولَمْ يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جليسٍ له»[٣].

والمُصافحةُ تَزِيدُ في الوُدِّ ما مِنْ ذلك بُدٌّ، وقَدْ كانتِ المُصافحةُ في أَصْحابِ النَّبيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ؛ فعن قَتَادَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قُلْتُ لأَنَسٍ: أكانتِ المُصافحةُ في أَصْحَابِ النَّبيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ؟. قال: «نَعَمْ»[٤].

وعَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: لَمَّا جاء أَهْلُ اليَمَنِ، قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**قَدْ جَاءَكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ جَاءَ بِالمُصَافحةِ**»[٥].

---

(١) «صحيح»: أخرجه التِّرْمذيُّ (٢٧٢٨) وحسَّنه، وابْنُ ماجَهْ (٣٧٠٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٦٠).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٢٦٥).

(٣) «حسن»: أخرجه أبو داوُدَ (٤٧٩٤)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٤٨٥).

(٤) رواه البخاريُّ (٦٢٦٣).

(٥) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٥٢١٣)، واللفظ له، وقال الألبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٤٣٤٤): صحيح، إلَّا أنَّ قوله: «وهم أوَّل ...» مدرج فيه من قول أنس، «الروض النضير» (١٠٤٥).

وقال كَعْبُ بْنُ مالكٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : «دخلتُ المسجدَ، فإذا برسولِ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقام إليَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ يُهَرْوِلُ، حتَّى صافحني وهَنَّأَنِي»[١]. وقال الحَسَنُ البَصْريُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ : «المُصافحة تَزِيدُ في الوُدِّ»[٢].

٥ ـ الزِّيارةُ:

الزِّيارةُ مِنْ أَعْظَمِ وسائلِ تقويةِ الصِّلةِ؛ فهي تُحْفَةُ النَّفْسِ للنَّفْسِ، يَجِدُ منها الإخوةُ لَذَّةً وأَرْيَحِيَّةً وانشراحًا، ومتى كانتِ الزِّيارةُ خالصةً لله كانتْ غنيمةً.

فعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«إنَّ رجلًا زار أخًا له في قَرْيةٍ أُخْرَى، فأَرْصَدَ اللهُ لَهُ على مَدْرَجَتِهِ[٣] مَلَكًا، فلمَّا أَتَى عليه، قال: أَيْنَ تُريدُ؟، قال: أُريد أخًا لي في هذِهِ القَرْيةِ، قال: هَلْ لك عليه مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّها[٤]؟، قال: لا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ في الله، قال: فإنِّي رسولُ الله إليك بأنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كما أَحْبَبْتَهُ فيه»**[٥].

وعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«قال اللهُ ـ تعالى ـ : وَجَبَتْ محَبَّتي للمتحابِّين فيَّ، والمُتجالسين فيَّ، والمُتباذلين فيَّ، والمُتزاورين فيَّ»**[٦].

وعن كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«ألَا أُخْبِرُكُمْ برِجالِكُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟: النَّبيُّ في الجَنَّةِ، والشَّهيدُ في الجَنَّةِ، والصِّدِّيقُ في الجَنَّةِ، والمولودُ في الجَنَّةِ، والرَّجُلُ يَزُورُ أَخَاهُ في ناحيةِ المِصْرِ في الله في الجَنَّةِ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٤١٨).

(٢) «المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق» (١٨٩).

(٣) المدرجة ـ بفتح الميم والراء ـ : الطَّريق، سُمِّيتْ بذلك؛ لأنَّ النَّاسَ يَدْرُجُون عليها (أي: يمشون).

(٤) تَرُبُّها ـ من باب رَدَّ ـ : أي تحفظها وتُراعيها وتُربِّيها كما يُرَبِّي الرَّجُلُ وَلَدَهُ.

(٥) رواه مسلم (٢٥٦٧).

(٦) «صحيح»: أخرجه أحمدُ (٥/ ٢٢٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣٣١).

بنسائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟: الودُودُ العَئُودُ، الَّتي ظُلِمَتْ قالتْ: هذِهِ يَدِي في يَدِكَ، لا أَذُوقُ غَمْضًا حتَّى تَرضَى»[1].

قلتُ: لو لم يكن في الزِّيارةِ إلَّا أنَّها تُنَمِّي المودَّةَ والمحبَّةَ بَيْنَ المُتحابِّين، لكان في ذلك كفايةٌ؛ فكيف والزَّائِرُ يَنْقَلِبُ بالأَجْرِ العظيمِ الَّذي يَدُلُّ على كَرَمِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ، وعظيمِ جُودِهِ؟!، فله الحمدُ على جميعِ نَعْمَائِهِ الظاهرةِ والباطنةِ، فهو أَهْلٌ للمحامِدِ كُلِّها.

يا رَبِّ، حَمْدًا لَيْسَ غَيْرُكَ يُحْمَدُ ... يا مَنْ لَهُ كُلُّ الخَلائِقِ تَصْمُدُ[2]

أبوابُ غَيْرِك ـ ربَّنا ـ قَدْ أُوصِدَتْ[3] **... ورأيتُ بابَكَ واسعًا لا يُوصَدُ.**

٣ ـ قِلَّةُ المُواساةِ:

مِنْ جفافِ المشاعرِ بَيْنَ الإخوانِ قِلَّةُ المُواساةِ، وهذا لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ، فالمُواساةُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِ الأُخُوَّةِ، وهي مع ذلك مِنْ أَحَبِّ الأعمالِ إلى اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ.

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **«أَحَبُّ النَّاسِ إلى اللهِ ـ تعالى ـ أَنْفَعُهُمْ للنَّاسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ سُرُورٌ يُدْخِلُهُ على مُسْلِمٍ، أو يَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أو يقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أو يَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، ولأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ في حاجَةٍ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أَعْتَكِفَ في هذا المَسْجِدِ (يَعْنِي: مَسْجِدَ المدينةِ) شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ـ ولو شاء أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضاهُ ـ مَلأَ اللهُ**

---

(١) «حسن»: «الروض النضير» (٤٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٦٠٤).

(٢) يقال: صَمَدهُ ـ من باب نَصَرَ ـ: أي قَصَدَهُ في حوائجِهِ.

(٣) أُوصِدَتْ: أغْلِقَتْ.

قَلْبَهُ رَجاءً يَوْمَ القِيامةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ في حاجةٍ حَتَّى تَتَهَيَّأَ لَهُ، أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزِلُّ الأَقْدَامُ، وإِنَّ سُوءَ الخُلُقِ يُفْسِدُ العَمَلَ، كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ»(١).

وعن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «مَنْ نَفَّس عَنْ مُؤمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يوم القيامةِ، ومَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ، يَسَّر الله عَلَيْهِ في الدُّنيا والآخرةِ، ومن سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ، واللهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كان العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ»(٢).

فعلى الأخِ أَنْ يُواسِيَ إخوانَهُ بحُدُودِ ما يستطيعُ، والمُواساةُ أنواعٌ كثيرةٌ، قال العلَّامةُ ابْنُ القيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «المُواساةُ للمؤمنين أنواعٌ: مُواساةٌ بالمالِ، ومُواساةٌ بالجاهِ، ومُواساةٌ بالبَدَنِ والخِدْمةِ، ومُواساةٌ بالنَّصيحةِ والإرشادِ، ومُواساةٌ بالدُّعاءِ والاستغفارُ لهم، ومُواساةٌ بالتَّوجُّعِ لهم، وعلى قَدْرِ الإيمانِ تَكُونُ هذِهِ المُواساةُ، فكلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَتِ المُواساةُ، وكُلَّما قَوِيَ قَوِيَتْ، وكان رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أَعْظَمَ النَّاسِ مواساةً لأصحابِهِ بذلك كُلِّهِ، فَلِأَتْباعِهِ مِنَ المُواساةِ بحَسَبِ اتِّباعِهِمْ له»(٣).

وعَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: رَأى النَّبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ النِّساءَ والصِّبْيَانَ مُقْبِلينَ ـ قال: حَسِبْتُ أنَّه قَالَ ـ مِنْ عُرُسٍ فقام النَّبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُمْثِلًا(٤)، فقال: «اللَّهُمَّ، أنتم مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ». قالها ثلاثَ مِرَارٍ(٥).

---

(١) «حسن»: أخرجه الطَّبرانيُّ في «الكبير» (٣/ ٢٠٩)، وابْنُ عَسَاكِرَ في «تاريخه» (١٨/ ١)، وحسَّن إسنادَهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٠٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داوُدَ (٤٩٤٦).

(٣) «الفوائد» (ص٢٢٤).

(٤) مُمْثِلًا: أي مُنْتصبًا قائمًا.

(٥) رواه البخاريُّ (٣٧٨٥)، وأخرجه مسلم (٢٥٠٨).

وعَنْ أَنسِ بْنِ مالكٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: جاءتِ امرأةٌ مِنَ الأَنْصارِ إلى رَسُولِ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ومَعَها صَبِيٌّ لها، فكلَّمها رسولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فقال: «**والَّذي نَفْسي بيدِهِ، إنَّكُم أَحَبُّ النَّاسِ إليَّ**». مرَّتَيْنِ[1].

٤ ـ كَثْرَةُ العِتَابِ:

مَنْ جَفَّتْ مشاعِرُهُ كَثُرَ عِتَابُهُ، ومَنْ كَثُرَ عتابُهُ فقد عَلِمَ إخوانُهُ أنَّه لا يتحمَّلُ أَدْنَى شيءٍ منهم؛ فَوَطِّنْ نَفْسَكَ على قِلَّةِ العِتَابِ، فَمِنَ اللَّوْمِ أنْ تُعاتِبَ إخوانَكَ على كُلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، كما قيل:

إذا عــاتَبْتَني في كُــلِّ ذَنْــبٍ ... فما فَضْلُ الكريـمِ على اللَّئيمِ؟!.

فَعَنْ أَنسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «ما مَسِسْتُ دِيْباجًا ولا حَرِيرًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ الله، ولَقَدْ خَدَمْتُ رسولَ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَشْرِ سنين، فما قال لي: أُفٍّ قَطُّ، ولا لشيءٍ فعلتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كذا؟، ولا لشيءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَ كذا وكذا؟»[2].

والعِتَابُ غَيْرُ محمودِ العاقبةِ في الغالبِ، وهُناكَ حالاتٌ لا يُوَفَّقُ لها إلَّا حكيمٌ عليمٌ بسياسةِ النُّفُوسِ، فمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْتَقِدُ أنَّ العِتَابَ ما هُوَ إلَّا تسفيهٌ له، وهذا كثيرٌ مِنْ كثيرٍ، ورُبَّما صارتْ مودَّتُهُ تَكَلُّفًا، ما من ذلك بُدٌّ، كما قال **ابْنُ الرُّوميِّ**:

إذا أَنْـتَ عاتَبْـتَ المَلُـولَ[3] فإنَّمـا ... تَـخُطُّ على صُحُفٍ مِنَ الماءِ أَحْرُفـا

وهَبْهُ[4] ارْعَوى[5] بَعْدِ العِتَابِ أَلَمْ تَكُـنْ ... مَوَدَّتُـهُ طَبْعًـا، فَـصَارَتْ تَكَلُّفـا.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٧٨٦)، ومسلم (٢٥٠٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٣) الملول: الكثير المَلَلِ والسَّآمةِ.

(٤) هَبْ: فعل أمْرٍ جامَد بمعنى: ظُنَّ.

(٥) ارْعَوَى: كَفَّ وانزجر.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يتقبَّلُ العتابَ على أنَّه نصيحةٌ سديدةٌ، وتربيةٌ رشيدةٌ، وهذا قليلٌ مِنْ قليلٍ، فإذا وجدتَ للعتابِ موضعًا فعاتبْ، فلعلَّ عِتَابَ مَنْ هذا حالُهُ محمودُ العاقبةِ، كما قيل:

لعـلَّ عَتْبَـكَ مَحْمُـودٌ عَواقِبُـهُ ... فَرُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بالعِلَلِ

ويتأكَّدُ العِتَابُ حِيْنَ يَجِدُ[1] الأَخُ على أَخِيهِ في نَفْسِهِ، ويَكْتُمُ السَّبَبَ، ويَظَلُّ الأَخُ مُتَأَلِّمًا، في حِيْنِ تظلُّ لُغَةُ العُيُونِ تَهْدِمُ بُنْيانَ الأُخُوَّةِ.

قال أبو الدَّرْدَاءِ: «عِتَابُ الأَخِ خَيْرٌ مِنْ فَقْدِهِ»[2].

وقال الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: «العِتَابُ مِفْتَاحُ التَّعالي، والعِتَابُ خَيْرٌ مِنَ الحِقْدِ»[3].

ولقد أجاد مَنْ قال ـ وأَحْسَنَ ـ:

إنَّ العِتَابَ صِقَالُ[4] كُلِّ مَوَدَّةٍ ... صَدِئَتْ، ومَغْمَدُ كُلِّ حِقْدٍ مُصْلَتٍ[5]

وَهْوَ المسيحُ يُمِيتُ كُلَّ سَخِيمةٍ ... خَبِيثَتْ، ويُحْيِي كُلَّ وُدٍّ مَيِّتِ.

ومِنْ دُرَرِ الإمامِ الماوَرْدِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «إنَّ كَثْرَةَ العِتَابِ سَبَبٌ للقطيعةِ، واطِّراحِ جميعِهِ دليلٌ على قلَّةِ الاكتراثِ بأَمْرِ الصَّديقِ، وقَدْ قيل: عِلَّةُ المُعاداة قِلَّةُ المُبالاةِ، بَلْ تتوسَّطُ حالتا تَرْكِهِ وعِتَابِهِ، فَيُسامحُ بالمُتاركةِ، ويستصلحُ بالمُعاتبةِ؛ فإنَّ

---

(١) وَجَدَ عليه ـ بالفتح ـ يَجُدُ ـ بالضَّمِّ والكسر ـ وَجْدًا وجِدَةً ومَوْجِدَةً ووِجْدانًا: غَضِبَ.

(٢) «عيون الأخبار» (٣/ ٣٤).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٩٤).

(٤) صَقَلَ السَّيْفَ والمِرْآةَ: جَلاهُما وأَخْلَصَهُما مِنَ الصَّدَإِ والوَسَخِ، وبابُهُ نَصَرَ، وصِقالًا ـ أيضًا ـ بالكسر ـ.

(٥) سيفٌ مُصْلَتٌ: أَيْ مُجَرَّدٌ مِنْ غِمْدِهِ.

المُسامحةَ والاستصلاحَ إذا اجتمعا لم يَلْبَثْ مَعَهُما نُفُورٌ، ولم يَبْقَ مَعَهُما وَجْدٌ، وقَدْ قال بَعْضُ الحُكَماءِ: لا تُكْثِرَنَّ مُعاتبةَ إخوانِكَ؛ فَيَهُونَ عليهم سُخْطُكَ»[١].

وقال: «ثُمَّ إنَّ مِنْ حقِّ الإخوانِ أن تغفِرَ هَفْوتَهُمْ، وتَسْتُرَ زَلَّتَهُمْ؛ لأنَّ مَنْ رام[٢] بريئًا مِنَ الهَفَواتِ، سليمًا مِنَ الزَّلَّاتِ ـ رام أَمْرًا مُعْوزًا[٣]، واقترح وَصْفًا مُعْجزًا، وقَدْ قالتِ الحكماءُ: أيُّ عالم لا يَهْفُو؟، وأيُّ صارمٍ[٤] لا يَنْبُو[٥]؟، وأَيُّ جَوادٍ[٦] لا يكبو[٧]؟، وقالوا: مَنْ حاوَل صديقًا يَأْمَنُ زَلَّتَهُ، ويَدُومُ اغتباطُهُ به ـ كان كضالِّ الطريقِ، الَّذي لا يزدادُ لنفسِهِ إتعابًا إلَّا ازداد مِنْ غَايتِهِ بُعْدًا»[٨].

وقال بشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

إذا كُنْتَ في كُلِّ الأُمُورِ مُعاتِبًا ... صديقَكَ، لَمْ تَلْقَ الَّذي لا تُعاتِبُهْ

وإنْ أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرارًا على القَذَى[٩] ... ظَمِئْتَ، وأيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ؟

فَعِشْ واحدًا، أَوْصِلْ أَخَاكَ، فإنَّهُ ... مُقارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجانِبُهْ[١٠].

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص١٧٨).

(٢) رام: طلب، وبابُهُ قَالَ.

(٣) مُعْوزًا: أي مُعْجزًا لا يُقْدَرُ عليه..

(٤) الصَّارم: السَّيف القاطع.

(٥) نبا السَّيفُ: لم يقطع، وبابُهُ عدا، ونَبْوَةً ـ أيضًا ـ.

(٦) الجَواد: الفرس الرَّائع السريع، والجمع جِيادٌ.

(٧) كَبَا: سقط لوَجْهِهِ، وبابُهُ عَدَا.

(٨) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٨).

(٩) القَذَى ـ بزِنَةِ الفَتَى ـ : ما يَقَعُ في الشرابِ مِنْ تُرابٍ ووَسَخٍ، والواحدةُ قَذَاةٌ.

(١٠) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٨).

ومَهْمَا امتدَّ حَبْلُ الجفاءِ، وكَثُرَ العِتابُ، فإنَّ خَيْرَ الإخوانِ مَنْ مَدَّ لأخيهِ حَبْلَ الصَّفاءِ، قَبْلَ أَنْ يأتيَ يَوْمٌ تُعْرَضُ فيه الأعمالُ[١]، قال أُستاذُنا الأديبُ عَبْدُ الكريمِ العِمادُ ..... في قِصَّةٍ وَقَعَتْ لَهُ مَعَ أَخٍ عَزِيزٍ، وصديقٍ حميمٍ، فكتب له هذِهِ القصيدةَ:

قَلْبٌ أَصَاغَ لِيَ الطَّرِيقَ وُرُودا ... وبَنَى الحياةَ مَحَبَّةً وسُعُودا

أعطاني القَلْبَ الرَّحِيمَ، وكَفُّهُ ... أَضْفَى عَلَيَّ مِنَ المكارمِ جُودا

قَدْ كانَ أَنْفاسِي، وكُنْتُ فُؤادَهُ ... صارَ الوفاءُ رَبيعَنا المَوْلُودا

وتعاظمَ الحُبُّ المُبَجَّلُ بَيْنَنَا ... حتَّى استحال تمزُّقًا وصُدُودا

هَبَّتْ علينا مِنْ زماني عاصِفٌ ... وأحالتِ الغُصْنَ الرَّطيبَ صُلُودا

دَخَلَ الوُشاةُ حياتَنا؛ فتكدَّرَتْ ... بَذَلَتْ لاشتاءِ القُلُوبِ جُهُودا

أَلْبَسْتُهُ مِنْ قَسْوتي حُلَلَ الجَفَا ... ما عادَ عِنْدي الصَّادِقَ المَحْمُودا

عُذْرًا - أخي - أنا إنْ جَفَوْتُ فإنَّني ... أَعْمَى، وقَلْبِي لَمْ يَزَلْ مَوْلُودا

عَوَّدْتَني الصَّفْحَ الكريمَ، ولم تَكُنْ ... فيما عَرَفْتُكَ مُبْغِضًا وحَقُودا

مَنْ ذا الَّذي تَصْفُو مشارِبُ عَيْشِهِ ... دُونَ اكْتِدارٍ إنْ أرادَ وُرُودا

مَهْما تآلفتِ الظِّبا ورُعاتُها ... لا بُدَّ أَنْ يَلْقَى لَهُنَّ شُرُورا

قَدْ جِئْتُ بابَكَ - يا أُخَيَّ - مُصالحًا ... لَمْ أَلْقَ مِنْ حَبْلِ الصَّفاءِ مَحِيدا

أنا ما رأيتُ أَعَزَّ مِنْكَ مَحَبَّةً ... وجَعَلْتُ دقَّاتَ القُلُوبِ شُهُودا

هذي دُمُوعي في دُمُوعِ يَراعتي ... مُزِجَتْ؛ لتحمِلَ للقُلُوبِ قَصِيدا.

---

(١) أخرج مسلم في «صحيحه» (٢٥٦٥) عن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنَّ رسولَ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «تُعْرَضُ الأعمالُ في كُلِّ يَوْمِ خميسٍ واثنَيْنِ، فيغفرُ اللهُ - عزَّ وجلَّ - في ذلك اليوم لكُلِّ امرِئٍ لا يُشْرِكُ بالله شيئًا، إلَّا امرًا كانتْ بَيْنَهُ وبَيْنَ أخيهِ شَحْناءُ، فيُقالُ: اركُوا أَيْ: أَخِّرُوا - هذَيْنِ حتَّى يَصْطَلِحا، اركُوا هَذَيْنِ حتَّى يَصْطَلِحا».

٥ ـ إذاعةُ السِّرِّ:

مِنْ جَفافِ المشاعِرِ إذاعةُ أَسْرارِ الإخوانِ، والرَّجُلُ النَّبيلُ يَحْفَظُ أسرارَ إخوانِهِ، ويتَّسعُ لها صَدْرُهُ، كما قيل: «قُلُوبُ الأَحْرارِ قُبُورُ الأَسْرارِ»، بَلْ إنَّه لَيَحْفَظُ أَسْرارَ إخوانِهِ، حتَّى ولو تَصَرَّمَ[1] حَبْلُ المودَّةِ بَيْنَهُما، كما قيل:

لَيْسَ الكَرِيمُ الَّذي إذا زَلَّ صاحِبُهُ ... بَثَّ الَّذي كانَ مِنْ أَسْرارِهِ عَلِما

بَلِ الكريمُ الَّذي تَبْقَى مَوَدَّتُهُ ... ويَحْفَظُ السِّرَّ، إنْ صَافَى وإنْ صَرَما.

وقَدْ حَثَّ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ على حِفْظِ الأَسْرارِ، وعَدَمِ إذاعَتِها، فعن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**إذا حَدَّثَ الرَّجُلُ بالحديثِ، ثُمَّ الْتَفَتَ، فهو أَمَانةٌ**»[2]. فقولُهُ: «**ثُمَّ الْتَفَتَ**»، أي: إنَّ التفاتَهُ يقومُ مَقَامَ احْفَظْ عنِّي؛ وذلك لأنَّ أخاك إذا أحبَّك ووَثِقَ بك، لا يُخْفي عَنْكَ أَحْوَالَهُ وتصرُّفاتِهِ، ولا يَتَحَفَّظُ وهو يُحَدِّثُكَ.

---

(١) تصرَّم: تقطَّع.

(٢) «حسن»: أخرجه أبو داوُدَ (٤٨٦٨)، والتِّرْمذيُّ (١٩٥٩)، وأحمدُ (٣/ ٣٢٤)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٨٦)، و«الصحيحة» (١٠٩٠).

جفافُ المشاعرِ مَعَ الجُلَسَاءِ

صُورَ جفافِ المشاعرِ مع الجُلَساءِ كثيرةٌ، فهي أكثرُ من أَنْ تُحْصَرَ، وأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ، وسوف أذكرُ طَرَفًا منها، وبالمثالِ يتَّضحُ المقالُ، فمنها:

صورمن جفاف المشاعرمَعَ الجُلَساءِ:

١ - قِلَّةُ التَّفَسُّحِ في المجالسِ:

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (المجادلة: ١١).

قال الشَّيْخُ ابْنُ سَعْديٍّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : «هذا أَدَبٌ مِنَ الله لعبادِهِ إذا اجتمعوا في مجلسٍ من مجالسِ مُجْتَمعاتِهم، واحتاج بَعْضُهم - أو بَعْضُ القادمينَ عليهم - للتَّفَسُّح له في المجلس، فإنَّ مِنَ الأَدَبِ أَنْ يَفْسَحُوا له؛ تحصيلًا لهذا المَقْصُودِ، وليس ذلك بضارٍّ للفاسحِ شيئًا، فيحصل مقصودُ أخيه مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُ، والجزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، فإنَّ مَنْ فَسَحَ لأخيه فَسَحَ اللهُ له، ومَنْ وسَّع لأخيه وَسَّعَ اللهُ عليه»[١].

وحثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على التَّفَسُّحِ في المجالسِ، وبَيَّنَ أَنَّ خَيْرَ المجالسِ أَوْسَعُها؛ فعن ابْنُ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : «**تفسَّحُوا وتوَسَّعُوا**»[٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: سَمِعْتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ: «**خَيْرُ المَجَالِسِ أَوْسَعُهَا**»[٣].

---

(١) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (ص٨٤٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٢٧٠)، ومسلم (٢١٧٧).

(٣) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٤٨٢٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٤٠٣٥).

وقال الأصمعيُّ: «كان الأَحْنَفُ إذا أَتَاهُ إنسانٌ وسَّع لَهُ، فإن لم يَجِدْ موضعًا تحرَّك؛ ليُرِيَهُ أنَّه وسَّع له»[1].

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَأْخُذُ لنفسِهِ مساحةً واسعةً في المَجْلِسِ، ورُبَّما ضَنَّ على أخيه مِنْ أَنْ يَجْلِسَ بجانبه، بَلْ إنَّ بَعْضَ الناسِ يكونُ في المسجدِ، فيجدُ فُرْجَةً في الصَّفِّ، فيبخلُ بها على أخيه، فما الظَّنُّ بمَنْ هذه حالُهُ؟!.

فيا أخي، وَسِّعْ لأخيك يُوَسِّعِ اللهُ عليك، ولو لم يكن من التوسعةِ إلَّا أَنْ يَسَعَكَ قلبُ أخيك، لكان حَرِيًّا بك أَنْ تُوَسِّعَ له في المجلسِ[2]، فكيف وفيه من خَيْرِ الدُّنيا والآخرةِ؟!، فانظرْ كيف يكونُ حالُ أخيك لو وسَّعْتَ له، وَوَجْهُكَ يَذُوبُ رِقَّةً وخُلُقًا، وكلماتُ التَّرْحيبِ تَفُوحُ عِطْرًا وأَرِيجًا، أَيُّ مِنَّةٍ تَمُنُّ بها على جَلِيسِكَ بَعْدَ هذِهِ؟!.

٢ ـ إقامةُ الرَّجُلِ مِنْ مَجْلِسِهِ والجُلُوسُ مَكَانَهُ:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «**لا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فيه**»[3].

قال ابن حجر ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في شَرْحِهِ لهذا الحديثِ: «قال ـ يَعْنِي: ابْنَ أبي جَمْرَةَ ـ: والحِكْمَةُ مِنْ هذا النَّهْيِ: مَنْعُ استنقاصِ حَقِّ المُسْلِمِ المُقْتَضِي للضَّغائِنِ، والحثُّ على التَّواضُعِ المُقْتَضِي للمودَّةِ، وأيضًا فالنَّاسُ في المُباحِ كُلُّهم سَواءٌ، فَمَنْ سَبَقَ إلى شيءٍ

---

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٣٠٦).

(٢) لا يقتصرُ التفسُّح على المجالس، بل يدخلُ في ذلك التَّفَسُّحُ في الطَّريقِ، وسواء كُنْتَ راكبًا أو ماشيًا، ورُبَّما كُنْتَ في سيَّارةٍ والطَّريقُ لا تسمحُ لمرور سيَّارتين، فتفسحُ لأخيك، فيُلَوِّحُ لك بالتَّحيةِ شاكرًا تعاوُنَكَ، ورُبَّما كُنْتَ في سيَّارتِكَ على الخَطِّ، فتأتي سيَّارةٌ تُسابِقُ أُخْتَها، فتفسَحُ لها، ورُبَّما كان هناك مارٌّ يُريدُ عُبُورَ الشارعِ، فَتُوقِفُ سيَّارتَكَ رَيْثَما يَمُرُّ.

(٣) رواه البخاريُّ (٦٢٦٩)، ومسلم (٢١٧٧).

اسْتَحَقَّهُ، ومَنِ استحقَّ شَيْئًا، فأُخِذَ مِنْهُ بغَيْرِ حَقٍّ، فهو غَصْبٌ، والغَصْبُ حَرامٌ، فعلى هذا يكونُ بَعْضُ ذلك على سبيلِ الكراهةِ، وبَعْضُهُ على سبيلِ التَّحْرِيم»[١].

وبَعْضُ النَّاسِ نَضَبَتْ مشاعِرُهُم، فلا يلتفتون إلى هذا الأَدَبِ النَّبويِّ، وهذا من الخَلَلِ الفادحِ، والتقصيرِ الكبيرِ، فعلى المَرْءِ إذا حدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يُقِيمَ أحدًا مِنْ مَجْلِسِهِ؛ ليجلسَ فيه ـ أَنْ يَضَعَ نَفْسَهُ مكانَهُ، فحينئذٍ يَلُوحُ له وَجْهُ تَعَسُّفِهِ، ونُضُوبِ مشاعِرِهِ.

٣ ـ التَّقدُّمُ بحَضْرَةِ النَّاسِ في المجالسِ:

عن جابرِ بْنِ سُمْرَةَ ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ قال: «كنَّا إذا أَتَيْنَا النَّبيَّ ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ـ، جلس أَحَدُنا حَيْثُ ينتهي»[٢].

هكذا كان الصَّحابةُ إذا جاء أَحَدُهم إلى المَجْلِسِ، لم يتكلَّفِ الجلوسَ في المُقَدِّمةِ، أو مُزاحمةَ ومُضايقةَ الجالسين، بل كانوا يجلسون حيثُ ينتهي بهم المجلسُ، وهذا من كمالِ أَدَبِهِمْ.

وبعضُ النَّاسِ عِنْدَهم نُضُوبٌ في مشاعِرِهم، فلا يُهِمُّهم سوى أَنْفُسِهِم، ورُبَّما جلسوا في مكانٍ أُعِدَّ للأكابرِ، ممَّا يُعَرِّضُهم للتَّنقُّصِ والازدراءِ، بل رُبَّما أُقِيمُوا مِنْ مكانِهِم إذا حضر من أُعِدَّ لهمُ المكانَ.

قال الأحنفُ بْنُ قَيْسٍ: «لَأَنْ أُدْعَى مِنْ بُعْدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُقْصَى عَنْ قُرْبٍ»[٣].

وقال الأحنفُ ـ أيضًا ـ: «ما جَلَسْتُ مَجلِسًا ـ قَطُّ ـ أَخَافُ أَنْ أُقَامَ مِنْهُ لغَيْرِي»[٤].

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٣٣٥).

(٢) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٤٨٢٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) «بهجة المجالس» (١/ ٤٧).

(٤) «بهجة المجالس» (١/ ٤٧).

وقال ابْنُ المُقَفَّعِ: «إنِ استطعتَ أَنْ تَضَعَ نَفْسَكَ دُونَ غايتِكَ في كُلِّ مَجْلِسٍ ومقامٍ، ومقالٍ، ورَأْيٍ، وفِعْلٍ - فافْعَلْ؛ فإنَّ رَفْعَ النَّاسِ إيَّاكَ فَوْقَ المنزلةِ الَّتي تَحُطُّ إليها نَفْسَكَ، وتَقْريبَهُم إيَّاكَ إلى المجلسِ الَّذي تباعدتَ منه، وتعظيمَهُم مِنْ أَمْرِك ما لم تُعَظِّمْ، وتزيينَهُم مِنْ كلامِك ورَأْيِكَ وفِعْلِكَ ما لم تُزَيِّنْ - هُوَ الجَمالُ»[1].

٤ - الجُلُوسُ في مكانِ الرَّجُلِ إذا قام لحاجةٍ:

عن أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**إذا قام أَحَدُكُمْ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إليه، فهو أحقُّ بِهِ**»[2].

فمن الأدبِ والذَّوْقِ والمروءةِ إذا دخلت إلى مجلسٍ، فلا تجلسْ في مَجْلِسٍ هو لغيرِك حِفاظًا على مشاعرِ أخيك، وحتَّى لا تُتَّهمَ بالأَثَرةِ وجَفافِ المشاعرِ.

٥ - التَّفريقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ متجالسَيْنِ دُونَ إذْنِهما:

عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما -: أنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**لا يَحِلُّ للرَّجُلِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ اثْنَيْنِ إلَّا بإذْنِهِما**»[3].

هذا الحديثُ أَدَبٌ مِنْ أَدَبِ المجالسِ، وفيه الحثُّ على مُراعاةِ مشاعرِ الآخرينَ، ورُبَّما كان ذلك سببًا في إيغارِ الصُّدورِ؛ لأنَّ المُتجالسَيْنِ قَدْ يَكُونُ بَيْنَهُما حديثٌ مُتَّصِلٌ، وقد يكونُ بينهما محبَّةٌ ومودَّةٌ، وجَرَيانُ سِرٍّ وأَمانةٍ، ورُبَّما جمع بينهما ذلك المَجْلِسُ بَعْدَ فِراقٍ، فَيَشُقُّ عليهما التفريقُ بجلوسِهِ بَيْنَهُما.

---

(١) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١٥١).

(٢) رواه مسلم (٢١٧٩).

(٣) «صحيح»: أخرجه أبو داوُدَ (٤٨٤٥)، والتِّرْمذيُّ (٢٧٥٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٥٣٢).

٦ ـ تناجي الاثْنَيْنِ دُونَ الواحِدِ:

عن ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «**إذا كُنْتُمْ ثَلاثةً فلا يَتَناجَى**[١] **رَجُلانِ دُونَ الآخَرِ، حتَّى تختلطوا بالنَّاس؛ من أَجْلَ أَنْ ذلك يُحْزِنَهُ**»[٢] أو كما قال ـ ﷺ ـ.

قال ابْنُ حَجَرٍ ـ رَحِمَهُٱللَّهُ ـ: «قال الخَطَّابيُّ: وإنَّما قال: «**يُحْزِنَهُ**»؛ لأنَّه قد يَتَوَهَّمُ أَنَّ نَجْواهُمْ إنَّما هي لسُوءِ رَأْيِهِما فيه، أو لدسيسةٍ غائلةٍ له»[٣].

فانظر ـ أخي ـ كيف حافظ الإسلامُ على مشاعرِ الآخرين، حتَّى في الحديثِ المكتومِ؛ فَحَرِيٌّ بالعاقلِ أَنْ يُحافِظَ على مشاعرِ إخوانِهِ للإبقاءِ على المودَّةِ والأُلْفَةِ، فإنَّ الْمَرْءَ مَتَى جَفَّتْ مشاعِرُهُ قد لا تنفعُ مَعَهُ النَّصائحُ والتأديباتُ إلَّا بَعْدَ مُجاهدةٍ ومُعاناةٍ في نَفْسِهِ، حتَّى يَسْلَسَ قِيادُها، فتنفعَ معه التَّأْديباتُ الَّتي لا غِنَى له عنها.

٧ ـ إطالةُ المُكْثِ في بَيْتِ المُضِيفِ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مالكٍ ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ قال: «لمَّا تزوج النَّبيُّ ـ ﷺ ـ زَيْنَبَ، دَخَلَ القَوْمُ فَطَعِمُوا، ثُمَّ جلسوا يتحدَّثون، فَأَخَذَ كأَنَّهُ يَتَهيَّأُ للقيامِ، فَلَمْ يقوموا، فلمَّا رأى ذلك قام، فلمَّا قام قام مَنْ قَامَ مِنَ القَوْمِ، وقَعَدَ بقيَّةُ القَوْمِ، وإنَّ النَّبيَّ ﷺ جاء ليَدْخُلَ، فإذا القومُ جُلُوسٌ، ثُمَّ إنَّهم قاموا فانطلقوا»[٤].

قال **ابْنُ بَطَّالٍ** ـ رَحِمَهُٱللَّهُ ـ: «والحِكْمَةُ مِنْ هذا الأَدَبِ: أَلَّا يُؤْذِيَ المَأْذُونُ له أصحابَ المَنْزِلِ بإطالةِ الجُلُوسِ عِنْدَهُم، ويَمْنَعَهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ في حَوائِجِهِمْ»[٥].

---

(١) التَّناجي: التَّسارُر.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٨٦).

(٤) رواه البخاريُّ (٦٢٣٩) واللَّفظ له، ومسلم (١٤٢٨).

(٥) «فتح الباري» (١١/ ٩٠).

الفهرس

الموضـوع | الصفحة

جفافُ المشاعرِ مَعَ الأَرْحَامِ

الموضـوع الصفحة

جفافُ المشاعرِ مَعَ الجيران

جفافُ المشاعرِ مَعَ الحُكَّامِ

جفافُ المشاعرِ مَعَ العُلَماءِ

الموضـوع | الصفحة

الموضـوع الصفحة

جفافُ المشاعرِ مَعَ الإخوانِ

دفء المشاعر في الحياة الزوجية

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

دار الإيمان
إسكندرية







